عبد العزيز البشرى

المختار

الجزء الثانى

الثمن ١٨ ص

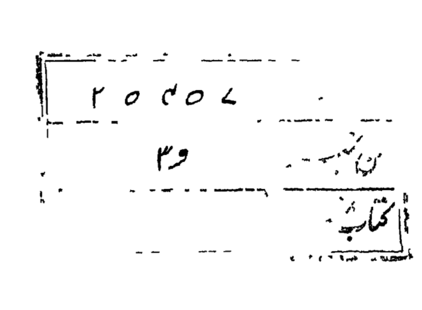
يطلب من
مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر



المختار

الجزء الثاني

يطلب من
مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر



تقديم الكتاب

بقلم عميد الأدب العربى

الدكتور طه حسين بك

رغِبتُ إلى الأستاذ الصديق عبد العزيز البشرى فى أن أقدِّم الجزء الثانى من كتابه المختار . فتأبَّى علىَّ وأظهر امتناعاً ثم التواء . ولم أظفَر منه بما أردت إلاَّ بعد جهد وإلحاح . وما رغبتُ إليه فى ذلك حرصاً على كتابة فصل من الفصول ، أو إيثاراً لإملاء مقال طويل أو قصير . فالله يشهد لقد أَضِيق بالكتابة حتى أكره أن أسمع لفظها . وأتبرَّم بالإملاء حتى لا أسمح لصاحبى أن يتحدث إلىَّ بذكر القلم والورق .

وما رغِبتُ إليه فى ذلك لأعرِّفه إلى الناس ، وقد عَرَفه الناس قبل أن يعرفونى . ولا لأقدِّم كتابَه إلى القراء ، فليست آثارُ البشرى من الآثار التى تحتاج إلى أن تقدَّم بين أيديها المقدِّمات . وإنما رغِبت إليه فى ذلك لأنى أرى له دَيناً فى عنقى وفى عنق كثير من المتقفِّين فى هذا الجيل ، الذين يُحبُّون الفنَّ الرفيعَ من الأدب ، ويحرصون على الاستمتاع به ، ويُخلِصون له نفوسَهم وعقولَهم وقلوبَهم وضمائرَهم . فكلٌّ هؤلاء المتقفِّين قد وَجدوا عند البشرى منذ أوائل هذا القرن ما يُرضى حاجتهم إلى الأدب العالى والفنِّ الممتاز . وكلُّهم مَدينٌ له بساعات حُلوة قضاها مستمتعاً بلذة موسيقية رائعة ، كان يشترك فيها سمعه وقلبه وعقله . وأيسر ما يجب للبشرى عند هؤلاء أن يعترفوا له بالفضل ، ويُسجِّلوا له على أنفسهم هذا الجميل ، ويُشهدوا الأيام على أنهم ليسوا من الجحود والعقوق بحيث يقصِّرون فى ذات كاتب عظيم كهذا الكاتب العظيم .

وما أُحبّ أن يَظُن بي البشرى مجاملةً أو ملاطفةً ، أو مبالغة فى القول ، أو تَزيُّداً فى الثناء . فأنا أبرأ إلي الله وإليه من هذا كله فى هذا الفصل الذى أُمليه الآن . إنما هو ثناء صادق يَصدُر عن ضمير مقتنع اقتناعاً صادقاً بأن هذا الكاتب الأديب قد فَرَض على هذا الجيل لنفسه حقاً ما أحسب أنه قادرٌ على أن يؤديَه أو ينهضَ به . وما أراه يبلغ من ذلك إلاّ أن يقدِّم إلى عبد العزيز البشرى تحية مهما تكن فهى رمزٌ متواضعٌ يسيرٌ لما يَشِيع فى النفوس ، ويتغلغل فى القلوب من شكر له ، وإعجاب به ، وإكبار لفنه الجميل .

لست أدرى أيرى الناسُ كلُّهم رأيي فى فنّ عبد العزيز ؛ ولكن الذين تحدثت إليهم فى ذلك قد شاركونى فيما رأيت ، ووافقونى على الصورة التى كوّنتُها لنفسى من هذا الفنّ . وأخَصّ ما يمتاز به أدب عبد العزيز أنه حُلو سمح خفيف الروح . لا يجد قارئُه مشقةً فى قراءته ، ولا جهداً فى فهمه ، ولا عَناء فى تذوُّقه وتمثُّله . ومن الفنون الأدبية الرائعة ما يكون شاقًّا عسيراً ، وغامضاً ملتوياً . وما تكون اللذة التى يُؤتيها نتيجةً لمشقته وعُسره ، وأثراً لغموضه والتوائه . فهو فنٌّ مقصورٌ على الخاصَّة ، أو على جماعة ضيِّقة من الخاصَّة . ومن الفنون الأدبية ما يكون سهلاً يسيراً ، وقريباً دانى المنال ، لا يلتوى على أحد ولا يَشقّ على طالب ؛ ولكن إمتاعه لقرائه يسيرٌ مثلُه ، ليس عميقاً ولا بعيد المدى . لا يكاد يُذاق حتى يُنسَى ، ولا يكاد يُستَمتَع به حتى يَنقضى العجبُ منه والرضى عنه والرغبةُ فيه . فهو إلى أن يكون فنًّا لتمتيع العامة وإرضائها أدنى منه إلى أىّ شىء آخر . وليس أدبُ عبد العزيز من هذا ولا ذاك . وإنما هو أدبٌ لا تنقطّع أسبابه بينه وبين أوساط المثقَّفين . ولعل الأسباب أن تتصل بينه وبين عامَّة الناس . ولعلهم أن يجدوا فيه اللذة القوية إذا قرأوه أو سمعوا له ؛ ولكنه مع ذلك بل من أجل ذلك يرتفع ويرتفع حتى يُرضى خاصَّة الناس ، ويَبلغ إعجابَهم ، ويَنزل من قلوبهم أحسن

منزل ، ويَقع من عقولهم وشعورهم أجمل موقع وألطفه . فهو فنٌّ مُيسَّر ممهَّد موطَّأ الأكناف ، فيه دَمَاثةُ الرجل الذى حَسُنت أخلاقه ، ورقَّت شمائله ، وظَرُفت نفسه ، واعتدل مِزاجه . فهو محبَّب إلى الناس جميعاً ، مقرَّب إلى الناس جميعاً ؛ يَرغب الناسُ جميعاً فى صحبته ، ويَكلَف الناس جميعاً بعشرته ، ويتحرَّق الناس جميعاً إلى لقائه ، ويعجِز الناس جميعاً عن فراقه وبُعد العهد به .

وما عليك إلاَّ أن تسأل من شئت من أىّ طبقة من طبقات الناس الذين يقرأون الأدب العربى الحديث عن رأيهم فى أدب عبد العزيز البشرى ، فستَلقى منهم جميعاً رضًى وحباً وإعجاباً واستعذاباً ، وسيختلفون فى تعليل ذلك وتأويله . يَلتمسون هذا التأويل وذلك التعليل فى أمزجتهم الخاصّة ، وفى حظوظهم المختلفة من الثقافة ، وفيما يكوّنون لأنفسهم من رأى فى الأدب ، ومن مَثَل أعلى فى الفنّ . ولكنهم سيتفقون على أنه أدب محبَّب إلى الأسماع والنفوس جميعاً .

وقد حاولت غير مرة ، فيما بينى وبين نفسى وفيما بينى وبين أصدقائى ، أن أتعرّف مَصدر هذه الخَصلة التى يمتاز بها أدبُ عبد العزيز ، والتى تحبّب أدبَه إلى الناس ، على ما يكون بينهم من اختلاف الطبقة وتفاوت المنزلة . وأحسبنى وُفِّقتُ إلى هذا المصدر ووضعتُ يدى عليه ، وما أدرى أيُقرُّنى عبد العزيز على ما أرى ، أم يخالفنى فيه . وما الذى يَعنينى أن يَرضى عبد العزيز من هذا أو يغضب ، فأنا لا أكتب لأُرضيه ولا لأسوءه ؛ وإنما أكتب لأقضى دَيناً وأؤدى حقاً . ولعلى أن أُرضِى التاريخَ الأدبىّ بعض الرّضى .

وأول ما يَبدو لى من مَصدر هذه المزّية التى يَمتاز بها أدبُ عبد العزيز ، أنه جمع خِصالاً ثلاثاً ، فلاءَم بينها أحسن ملاءمة ، وكوّن منها مِزاجاً معتدلاً رائعَ الاعتدال . فهو مصريّ قاهريّ كأشدما يمكن أن يكون الانسانُ مصرياً قاهرياً ، يُحِسّ

كما يُحِس أبناء الأحياء الوطنية ، ويَشعر كما يَشعرون ، ويَحكم كما يَحكمون ؛ لولا أن ثقافته ترتفع به إلى هذه الطبقة الممتازة التى تُحسن الحكم على الأشياء . وهو على كل حال قاهِرىُّ الحسّ ، قاهِرىُّ الشّعور ، قاهِرىُّ الذّوق . وما أراه يجد مشقةً يسيرة فى أن يتحدَّث إلى أشد الطبقات فى الأحياء الوطنية تواضعاً . وما أراه يحتاج إلى أن يَبذُل جهداً ضئيلاً فى أن يَبلُغ من الحديث إلى هذه الطبقات رِضَى نفسه ورِضَى محدِّثيه . فهذه خَصلة . والخَصلةُ الثانيةُ أنه بَغدادىّ الأدب كأشد ما يمكن أن يكون الأديب بَغدادياً ، قد عاشر أبا الفرج الأصبهانى وأصحابه فأطال عشرتهم، وتأثَّر بهم ، وانطبعت نفسه وعقله ولسانه بطابعهم . فهو إذا تحدَّث إلى المثقَّفين ، تحدَّث بلغة الأغانى ، لا يكاد يَصرفه عن هذه اللغة صارف ، إلا أن يأتى من قرارة نفسه المصرية القاهرية . فاذا هو يُلقِى النكتة المصرية بارعة رائعة لاذعة ، ولكن لذعاً يُؤلم ولا يُؤذى ، إن أمكن مثلُ هذا التّعبير . فهذه خَصلة ثانية .

والخَصلة الثالثة أنه قد ألمّ بحظٍّ من حياة المُترَفين الذين عَرَفوا الحضارة الغربية وذاقوها وتمَثَّلوها ، واستمع لأحاديثهم وشاركهم فى هذه الأحاديث ، فأخذ من هذه الحضارة الأوربية شيئاً يسيراً خفيف الظِّلّ قوىّ التأثير فى الوقت نفسه ، يَستطيع أن يلائم مصريتَه الموروثة وبغداديتَه المكتسَبة . فتكوّن له من هذه الخِصال الثلاث مِزاج غريب اشتركت فى إنشائه بغداد والقاهرة وباريس .

اشتركت فى تكوين هذا المِزاج ووُفِّقت فى هذا التكوين إلى أبعد مدًى ، إلى مدًى لم توفَّق إلى مثله فى تكوين كاتب من كتابنا المعاصرين . فأنت واجدٌ عند الكتاب المعاصرين الظاهرين هذه العناصرَ الثلاثةَ كلها ، ولكنك ترى العربيةَ تَغلِب على هذا ، والمصريةَ تغلِب على ذاك ، والانجليزيةَ أو الفرنسية تغلِب على ثالث . فأما أن تتوازن هذه العناصر وتأتلِف ، ويُحبّ بعضُها بعضاً ، ويطمئنّ

بعضها إلى بعض ، ويجتهد كلٌّ منها فى أن يُعين صاحبيه ، فذلك شيء لا تَظفَر به إلاّ عند عبد العزيز .

ومن هنا كان أدبُ عبد العزيز مُرضياً مُعجباً لطبقات المثقّفين جميعاً . إذا قرأه الأزهريون أُعجِبوا به لأن فيه شيئاً من الأزهر . وإذا قرأه أبناء المدارس المدنيَّة أُعجِبوا به لأن فيه روحاً من أوربا . وإذا قرأه أوساط الناس الذين ليسوا من أُولئك ولا هؤلاء ، أُعجبوا به لأن فيه رُوحاً من مصر . وإذا قرأه أهل الشّام والعراق أُعجبوا به لأن فيه الرُّوح العربىّ الخالص القوىّ . والغريبُ أَن التآم هذه العناصر قد أَتاح لعبد العزيز ما لم يُتح لكاتب آخرَ من المعاصرين . فهو أكثر الكتاب المحدَثين اصطناعاً للنكتة البلدية . يَصطنعها بلغتها العامّية فى غير تكلّف ولا تحفّظ ولا احتياط . يأخذها من حىّ السيدة أَو من حىّ باب الشعرية ، فيضعها فى وسط الكلام الرائع الرصين الذى يمكن أَن يقاس إلى أَروع ما كتب أهل القرن الرابع والثالث للهجرة . فاذا نكتته البلديّة العامّية مستقرّة فى مكانها ، مطمئنة فى موضعها ، لا تُحسّ قلقاً ولا نُبوّا ، ولا يُحسّ قائلها قلقاً ولا نبوّا ، ولكنها تَفجَؤه فتعجبه وتملأ نفسه رِضًى . ثم هو يُحِسّ أَن الكلام ما كان ليستقيم لولا أَن هذه النكتة قد جاءت فى هذا الموضع واستقرّت فى هذا المكان .

وهذا الذى يَصنَعه بالنكتة البلدية فى يُسر ولباقة لا يَعرِف سرّهما أحدٌ غيره . ولعله هو لا يَعرف سرّهما . ولعله لا يَتعمَّد ذلك ولا يَصطنعه ، وإنما هو وحى الطبع وإملاء الفطرة . هذا الذى يصنعه بالنكتة البلدية فى يُسر ولباقة يَصنعه بالكلمة الأُوربية أو الجملة الأُوربية . فأنت تقرأ الفصل من فصوله فما تشك فى أنك تقرأ لبديع الزمان ، وإنك لفى ذلك وإذا كلمة فرنسية تفجؤك فلا تزيد على أن تذكرك بأنك تقرأ لعبد العزيز البشرى ليس غير .

وأغرب من هذا أنه يجمع بين الكلمتين الأوربية والبلدية فى جملة واحدة من سياق عربى رصين ، فاذا هذا كله يأتلف وينسجم كأحسن ما يكون الائتلاف والانسجام . ألم يجمع فى جملة واحدة هذه الكلمة الفرنسية « موريه » وهذه الكلمة البلدية « الألاج » . فاقرأ الجملة العربية الرصينة التى اجتمت فيها هاتان الكلمتان ، فلن ترى فيها نبوًّا ولا قلقاً ولا اضطراباً . هذا على أن أحدنا قد يحتاج إلى أن يُورد الكلمة البلدية أو الأوربية فى سياق الكلام الهين الذى لا يتكلف فيه رَصانة ولا جَزَالة ، فيدور حول هذه الكلمة ويدور ، ولا يأمن مع ذلك أن يتورَّط فى الثِّقَل والاستكراه !

وأخرى تُعيننا على تعرُّف المصدر لما يمتاز به فنّ عبد العزيز ، وهى أنه قوى الحسّ إلى درجة نادرة حقاً . لا يكاد يمرّ به شىء إلاّ التقطه التقاطاً ، ورسمه فى نفسه رسماً . يخالطها مخالطة حتى يصبح كأنه جزء منها . ثم هو لا يكتفى بالتأثر والتقاء ما يَعرِض لنفسه من الأشياء والخواطر ؛ ولكنه سريع التأثر سريع التأثير . فهو إذا أحسّ لا يُـكنّ ما يُحسّه ؛ ولكنه يُعلنه ويُظهره . فهو يتلقى الأشياء مُسرعاً ، ويَعكسها مُسرعاً . وتَعمَل نفسُه الخفية أو ضميرُه المكنون فيما بين ذلك عملَها الغريب الذي يُظهر خواطره وأحكامه وتصويره للأشياء كأروع ما تكون الخواطر والأحكام والتصوير !

من أجل هذا كلِّه كان عبد العزيز مدرسةً وحدَه فى هذا الجيل ، لا تستطيع أن تُلحِقه بهذه البِيئة أو تلك من بِيئاتنا الأدبية ، ولا تستطيع أن تَصِله بهذه المدرسة أو تلك من مدارسنا المنتجة فى الشعر والنثر . وكنت أظن فى أول الأمر أنه بقية لمدرسة قد مَضَى أكثرُ أعضائها . بقية لتلك البِيئة التى كان يَضطرب فيها المويلحى وحافظ والبابلى رحمهم الله . ولكنى رأيتُه يَعرِض لأشياء ما كان أحدٌ من

هؤلاء يستطيع أن يَعرض لها ويلج مواлج ما كان أحد من هؤلاء يستطيع أن يفكر فيها ، ثم يمرق منها كما يمرق السهم من الرمِيَّة . وقد ظفِر بكل ما أراد وبأكثر مما أراد . وما أشك فى أن تلك البِيئة الطريفة اللبقة الموفَّقة ، لو اجتمعت كلها لكتابة فصل عن الطيارة كالذى كتبه عبد العزيز ، أو فصل عن أحمد ندا ، أو فصل عن حسن غَنْدَر ، لما ظفِرت من ذلك ببعض ما ظفِر به . إنما كانت الإِجادة تتاح لأعضاء تلك البِيئة سهلة ميسَّرة ، ولكنها عادية مألوفة لا تبلغ الروعة إلا نادراً . فأما صاحبنا فانه يستطيع أن يبدأ الفصل رائعاً ويَمضى فيه رائعاً . ونحن نستطيع أن نعدّ له فصوله العاديّة . فأما فصوله الممتازة فهى أكثر ما كتب . ماذا أقول ؟ : تستطيع أَن تَسمع له وهو يتحدَّث جادًّا أَو هازلاً ، راضياً أَو ساخِطاً ، فان استطعت أَن تَملِك نفسَك وتردّها عن الإِعجاب به فأنا مخطىء ، ولكنك لن تستطيع ! .

ومن أَجل هــذا أَيضاً لم يكن عبد العزيز مدرسةً وحدَه فحسب ؛ بل كان مدرسةً لا تلاميذ لها . فكما أنك لا تستطيع أَن تُلحِقه بهذه البِيئة الأدبيّة أَو تلك ، فأنت لا تستطيع أَن تُلحق به هذا الكاتب أو ذاك . فنُّه على سُهولته ويسره وقُربه من الناس جميعاً ، أَرفعُ وأَعسرُ وأَشدُّ استعصاءً من أَن يَتعلَّق به المتأثِّرون والمقلِّدون . ولذلك لم يتعلَّق به أَحد ولم يحاول تقلَيده أحد . وظلّ عبد العزيز واحداً فى فنِّه ، وسيظل واحداً فى فنه ، يستمتع بآثاره الناس جميعاً ، ولا يستطيع أحدٌ من هؤلاء الناس أن يَلحَق به أو أن يحاكيه ، أو أن يَزعُم لنفسه القدرةَ على أن ينقل فنَّه إلى الأجيال المقبلة .

سيبقى فنّ عبد العزيز لأنه فوق التقليد الذى يبتذل آثار الأدباء . ولأن شخصية صاحبه فذَّة ليست شائعة ولا يمكن أن تكون شائعة .

أفترانى بعد هذا قد استطعت أن أُعلّل هذه المزيّة التى يمتاز بها هذا الكاتب الفذّ ، أما أنا فلا أدرى ولكنى أعتقد أنى قد اهتديت من ذلك إلى شىء ، ولعل هناك أشياء ليس الاهتداء إليها يسيراً .

أفترانى بعد هذا محتاجاً أن أطوف بك كما فعل صديقنا مطران فى هذا المتحف الذى يقع بين دفتى هذا الجزء . أما أنا فلا أرى ذلك ولا أميل إليه، ولا أريد أن أكون دليلك بعد هذه الفصول الرائعة، لأنى لا أريد أن أعرض نفسى لما يتعرض له الأولاد ، ولا أحبّ أن تقول لى ما أنت وذاك ؟ أرحنى من صوتك الغليظ ، ومن لهجتك العنيفة الفظة وخلّ بينى و بين هذا الفن الرائع والأدب الرفيع .

لك علىّ ذلك يا سيدى فخذ فى قراءة هذه الفصول وأنا زعيم بأنك لن تتركها حتى تفرغ منها . ولعلك لا تفرغ منها إلا لتستأنف النظر فيها فإنى قد جرّبت ذلك من قبلك .

طه حسين

الباب الرابع

﴿ فى الفنّ والمفتنّين ﴾

فى الفن وحده*

يُريدُنى صديقى الأستاذ العالم الأديبُ محرر « الهلال » على أن أقولَ مقالاً فى موضوع الفنّ والجمال ؛ على أننى من جانبى قد قدَّرتُ ، باديءَ الرأى ، أن المدَى المقسومَ لا يتَّسع لهـذين معاً ، فلنكسِر حديثَ اليومِ على (الفنّ) ، ولنُرجئ القولَ فى الجمال ، فله إن شاء اللهُ إذا امتدَّ العمرُ مجال .

ما الفن ؟

ولقد كان أول ما انبعث فيه ذهنى هو التماسُ أُفقِ هذا الفنِّ وتَرَسُّم حدودِه ، وماذا يراد به اليوم فى مُتَعارَف الناس ؟

فى الحق أننى لم أُصِبْ فى كلّ ما وقع لى من كلام المتقدّمين والمتأخّرين من أصحاب العربية إلى زمن قريب تخصيصاً لهذه الكلمة بذلك المعنى الذى يُتَناول اليومَ بكلمة (Art) . فلم أر بدأً من مراجعة مُعجَمات اللغة العربية تحقيقاً لأصل الوضع اللغوى لكلمة (فنّ) ، ووجوه تصرُّفها فى مختلف المعانى بالاشتقاق والتجوُّز وغير ذلك من أسباب الدّلالات . وقد اعتمدت فى طلب هذه الغاية من متون المعجَمات لسانَ العرب ، وصِحاحَ الجوهرىِّ ، والقاموسَ المحيط ، وأساسَ البلاغة ، فخرج لى من كل أولئك ما أنا مُورِده عليك فى إيجاز ولكن فيه الغَناء .

---

* نشرت فى مجلة الهلال فى يوم أول نوفمبر سنة ١٩٣٥

الفن فى اللغة

الفنّ واحد الفنون ، وهى الأنواع . والفنّ الحال . والفنّ الضَّرب من الشئ .
والجمع أفنان وفنون ، يقال : رعينا فنونَ النَّبات . وأصبنا فنونَ الأموال .
والرجل يَفتَنُّ الكلام : أى يَشْتقُّ فى فنّ بعدَ فنّ . والتَّفنُّن فِعلك .
ورجل مِفَنٌّ (بكسر ففتح) : يأتى بالعجائب . وذو فنون من الكلام .
وافْتَنَّ الرجلُ فى حديثه : إذا جاء بالأفانين . افتَنَّ الرجل فى كلامِه وخصومتِه :
إذا تَوَسَّع وتصرَّف . وافتنّ أخذ فى فنون من القول .

والفَنَّان (بتشديد النون الأولى) : الحِمار الوَحشىّ .

وتُطْلقُ هذه الكلمةُ أيضاً فى بعض تصرُّفاتها على معانٍ أُخَرَ لا مَحَلّ للإشارة
إليها فى هذا المقام لأنها لا تَتصل بما نحن فيه من قريب .

*
* *

وبعد . فأنت تَرى أن كلمةَ « فنّ » إنما تدلّ بالوضع اللُّغوى على النَّوع ،
والحال . ويدلّ الفعلُ منها « فَتَّن » الكلامَ على الاشتقاق فى فنّ بعد فنّ ،
أى التصرُّف فيه نوعاً بعد نوع .

ومهما يكن من شىء ، فان دلالةَ هذه المادة ، فى هذا المعنى ، تكاد تكون
مقصورةً على التصرُّف فى فُنون الكلام . وللعرب فى هذا عذرُهُم إذ كان جُلُّ
همِّهم إلى « فنّ » الكلام . على أنها قد امتدَّت مع الزمن حتى تناولَت كذلك
بعضَ معانٍ أُخَر ، وسيأتى فى ذلك الكلام .

ثم لقد رأيتَ أن العرب لم يُطلِقوا كلمةَ « الفَنَّان » إلاَّ على الحِمار الوحشىّ[1] .
على أن إطلاقَها على المعنى الذى يُطْلِقها بعضُهُم عليه اليوم (Artiste) ليس مما

(١) فى القاموس المحيط فنان كشداد : الحمار الوحشى له فنون من العَدْو

يُعْيِي على وَسَائِل العربية . لولا أنَّ استعارة اسم الحمار للانسان مطلقاً ، فضلا عن الانسان الحاذق الصَّنَع ، قبيح !

ولقد سَلَف عليك أنه يقال رجل « مِفَنّ » (بكسر ففتح) : يأتى بالعجائب . ولا شك فى أن هذا أصحُّ تعبيرٍ وأدقُّه للمعنى المراد ، لولا أن اللَّفظةَ جِدُّ قريبةٍ من لفظة تَنفِر الآذانُ منها أشدَّ النُّفور . إذن لم تبقَ حيلةٌ إلاَّ أن نَصِيرَ فى أداءِ هذا المعنَى إلى اتِّخاذِ كلمةِ « مُفْتَنّ » أو « مُتَفَنِّن » ، وهما صحيحتان على كل حال .

كيف تطورت كلمة الفن والى ماذا صارت اليوم ؟

قلت لك إن كلمةَ « الفنّ » قد تصرَّفت فى بعض معانٍ أُخَر غيرِ تلك المعانى التى أُطلقت عليها بأصل الوضعِ اللُّغويِّ ؛ ذلك بأنه لم تَكد الدولةُ العربية تَنبعثُ فى الحضارةِ حتى أرسَلَت كلمةَ « الفنّ » للتعبير عما يقابل كلمة « العِلم » ، فما كان قِوامُه إرسالَ القضايا الكليــةِ التى يُتعرَّف بها أحكام ما يَندرِج تحتَها من الجزئيات ، فذلك علم . وما كان قِوامُه العملَ الجارى طوعاً للأصولِ والأحكامِ المقسومةِ ، فذلك فنّ . فيقال عِلم الأصول ، وعلم الفقه ، وعلم النَّحو ، وعلم الصَّرف ، ولا يقال فى شىء من ذلك فنّ . ويقال للخَطابة ، وقَرْض الشعر ، والموسيقى فنّ ولا يقال علم .

فقد بَانَ لك أن العلم مادَّتُه الفِكر والنَّظَر ، وأن الفنّ مادتُه العمل والأثر .

ولقد يَتَبهَّم الفرقُ الدقيقُ بين العلم والفنّ على بعض الناس حين يجدون بين أهل اللسان مَن يُعبِّر عن الموسيقى مثلاً بعلم الموسيقى مرة ، وبفنّ الموسيقى مرَّة أخرى ، وعن البلاغة بعلوم البلاغة تارةً ، وبفنّ البلاغة تارةً أخرى ، وهكذا :

والواقعُ أن الموضوع الواحد قد يكون علماً وفناً معاً . ولكنه إنما يكون هكذا من ناحية ، ويكون كذلك مِن ناحية أخرى . فنحن إذا طلبنا الموسيقى مثلاً من جهة القَضَايا العامّةِ من نحو تقسيم النَّغَم إلى أصلية وفرعية ، وأن هذه النغمة لا يُفضَى منها إلى تلك إلاّ بطريق كذا ، وأن هذه لا تَقع فى جواب تلك إلاّ بشرط كذا الخ ، فلا شك أن « الموسيقى » على هذا علمٌ لا فنّ . فإذا غَنَّانا المغنِّى بالفعل فتصرَّف فى فنون النغم طوعاً لتلك الأحكام ، فلا ريب فى أن « الموسيقى » على هذا فنٌّ لا عِلم .

وكذلك قُلْ فى علومِ البلاغة ، فما قَرَّرت من أحكام الفَصل والوَصل ، والإيجازِ والإطنابِ والمساواة ، والاستعارةِ والتَّشبيه ، والجِناس والتَّوْرِيةِ والتقسيم الخ ، فتلك علومُ البلاغة ، حتى إذا أَرسلت القلم بالكلام البليغ ، فذلك فنّ البلاغة .

لَتَفَنَّنْتَ فى الكتابةِ حتى ۝ عَطَّلَ الناسُ فَنَّ عبدِ الحميدِ[1]

وكذلك القولُ فى الهندسة ، وفى كل ما تجرِى عليه أحكامُ القضايا النظريّة ، بحيث يمكن أن يكون له أَثَرٌ محسوسٌ فى خارج الأعيانِ كما يقولون .

على أن العامَّة فى مصر ، بوجهٍ خاصّ ، قد تَبَسَّطوا بعد ذلك فى هذا الباب حتى دَعَوا كلَّ مِهنةٍ فَنًّا ، وحتى أصبحوا يَكْنُون أصحابَ (الكيُوف) بأولاد الفنّ . ولعلَّ الوجهَ فى هذه النُّكتةِ أن ما كان يَتَناوله الصُّناع إلى الجيل الماضى من (فنون) المخدِّرات ، كان يُعينُهم ، ولو إلى حين ، على طول الصَّبر فى سبيل التَّأَنُّق والتَّجْويدِ والإتقان !

وكيفما كانت الحال ، فان اللغةَ فى اطِّرادِها وتَوسُّعها لم تكن تَأْبَى إدراجَ هذه

---

(١) البيت للبحترى . و (عبد الحميد) هو عبد الحميد بن يحيى الكاتب المشهور

الحِرَفِ فى جريدة (الفُنُون) ، لأنها وإن لم تُقعَّد لها القواعدُ وتُعقَد لها القضايا فى الكتب ، إلاَّ أن أصحابها قد تَغَنَّوا عن ذلك بطول العلاج والتمرين ، وما كشفت لهم التَّجَاريبُ على طولِ السنين .

وقد جَرَّدَ المتأدِّبون المصريون من أبناء هذا الجيلِ كلمةَ (الفُنون) للفنونِ الجميلةِ خاصَّة ، فجعلوها بذلك ترجمةً لكلمة (Beaux Arts) فى لغة الفرنسيين ، وعلى ذلك أصبحت كلمة (الفَنَّان) ، استغفر الله بل (المُفتنّ) أو (المتفنِّن) ترجمةً لكلمة (Artiste) ، ويَعنُون بها صاحبَ الفنِّ الجميل .

ولا يذهب عنك ، فى الغاية ، أن وصفَ بعض الفنون (بالجميل) لا ينافى ، بل إنه ليقتضِى ، أن هناك فنوناً أُخَر ، وإن كان لايوصف شىء منها (بالجميل) . وكذلك بَقِيَ اصطلاحُ الجمهرَة على المراد من (الفنّ) قائماً فى الجملة ، وإن كان بعضُ المتأدِّبين اليومَ يأبى إلاّ أن يَقصِرها ، كما أسلفنا ، على (الفنّ) الجميل .

استمرار الفنون وتطورها :

وبعد إذ فرغنا من تاريخ هذه الكلمة من أولِ مَنْجَمِها فى مُتواضَع العرب الأولين ، وتصرّفها فى وجوهِ المعانى حتى مَصِيرِها اليوم — بعد هذا يحسُن بنا أن نُلِمَّ إلمـامةً يسيرةً بنشأَة الفنون وتطوّرها واضطرابها بين مختلف الأوضاع والأشكال .

لا شكّ فى أن مَنشَأَ الفنون على وجه عامّ إنما هو الغريزة . فالحاجةُ هى التى تَدفع الانسانَ إلى أن يَبتكِر الفنّ ابتكاراً . أو أن يَنقلَه نقلا ويقلِّدَ فيه تقليداً ، سواء أكان ذلك عن الحيوان أم عن الطبيعةِ نفسِها ، بحيث يكون هذا النقلُ والتقليدُ على الوجه الذى يُوائمه ويُواتى أسبابَه .

وأريد « بالحاجة » ما يَعمُّ الضروريات والكماليات جميعاً. فحاجةُ الانسان الى الثَّواء فى المأمن هى التى هَدته إلى بناء الدور، وحاجته إلى عبور الأنهار هى التى هَدته إلى إقامة الجسُور. ومن ثم نَجم فنُّ الهندسة. وقل مثلَ هذا فى سائرِ الفنون التى تدعو إليها ضرورات الحياةِ. كما أن استراحتهُ إلى تنغيم الطيورِ وتسجيعِها، وتغريدها وترجيعِها، وما يجد لذلك من طرب ويملكه من أريَحية، قد بعَثه هو الآخر على التنغيم والترنيم. وكذلك نشأ فن الموسيقى. وقُل مثلَ هذا فى كل فن جميل.

وبعد، فأنت خبيرٌ بأن الفنونَ كلَّها وإن نشأَتْ بسيطةً غايةً فى البساطة، ضئيلةً غاية فى الضآلة، بحيث لا تُواتى إلا أدنَى الحاجة، فانها على الزمن لا تفتأ تتَّسع وتتركَّب، وتتشكَّل وتتلوَّن، طوْعاً لسُنَّةِ الاطِّراد فى تفقُّد سائر مطالب الحاجةِ أولاً، ثم التدرُّج فى التماس الأحسن ثانياً، ثم التأنُّق فى ابتغاء الكمال ثالثاً. ولا يزال الانسان يجِدّ فى السعى لبلوغ هذا الكمال؛ ولكنه غيرُ بالغه مهما تراخى الزمان بحال!

ولقد تعلم أن الفنون فى تطوُّرها وتلوُّنها وتهذُّبها وارتقائها، والأساليب التى يجرى فيها كلُّ أولئك، خاضعةٌ للزمان والمكان، والجوّ ومألوف العادات، ومأثور التقاليد، وحظّ القوم من التعليم والتّثقيف. ذلك شأن الفنون كلِّها، ضروريِّها وكماليِّها فيه بمنزلةٍ سواء.

*
* *

هذا ما هدانى إليه الفكر فى أمر (الفنّ). فاذا كان القلم قد زَلّ فى بعض الرأى، فأرجو أن يَدلّنى العالِمون على وجه الصّواب.

فى الفن *

لا أحاولُ أن أُعالج فى هذا الباب بحثًا علميًا يقوم على نَظْم الأدلّة ومدافعة الشُّبَه . إنما أريد أن أَعرِض ما سَنَح لى فيه من الخواطِرِ وما تنظَّر[1] من الأفكار .

إنك لَتَرى المرأةَ التامَّةَ أو الفتاةَ الكَعاب فيتداخلك العُجْب بها فتروح تَهتِف بجمالها . وإنك لَتَرى طاقةَ الزَّهر قد ائتلفَت وتناسقَت أنوارُها[2] فتروح تَهتِف بجمالها . وإنك لَتَسمع الصوت فيَلَذّ لك جوهرُه ، ويُطربك إيقاعه ، وتحلو لنفسك نَبرته ولطف تنغيمه ، فتروح تَهتِف بجماله . وإنك لَتَرى البيتَ يَروقك مَنظَره ، ويُعجبك حسنُ نظامه ، فتروح تَهتِف بجماله . وكذلك القولُ فى كل ما يَخلُبك ويروعك مما يقَع لحِسّك . ولاشكّ فى أن ما يَعتريك عند هذا كلّه من الانفعالِ إنما هو من أثر الجمالِ فى نفسِك . ولو قد أَقبلْتَ على نفسِك تيك تسائلها : ما الجمال ؟ ما استرحت منها إلى جواب !

أما الجمالُ فموجودٌ حقًا . وإن محاولة التَّدليلِ على وجوده لَضَرْبٌ من العبَث . وهو مُدرَكٌ حقًا ، لأننا نُحسُّه ونشعر به كلّما تجلى علينا فى معنًى من معانيه .

نعم ، نحن نُحسّ الجمالَ فى الأنسان ، ونُحسّه فى الحيوان ، وفى النجوم الآلِقة ، وفى الآجام الباسقة . وفى اللُّجّ القامس[3] ، وفى الجبل الشامس[4] . وفى الغدير الناعس . وفى الزَّهرة تَطلَّعتْ من كِمّها ، وعاذت بغُصنِها عِياذَ الطِّفلة بثَدى أُمِّها . كما نُحِسّ الجمالَ من حَلْق المغنّى ، ويد العازف ، وريشة المصوّر ، وشِعر الشاعرِ ، ورسم المهندس . وغير أولئك من كل حاذقٍ صَنَاع .

---

* « نشرت فى (البلاغ الأسبوعى) فى ٤ فبراير سنة ١٩٢٧ »

(١) تنظر له : تراءى (٢) الأنوار هنا جمع نَـور بفتح النون : الزهر أو الأبيض منه

(٣) الماء البعيد الغور (٤) النافر

نُحسّ الجمال ونشعر به . وكثرةُ الناس ، على الأقلّ ، ترتّبه فى كلّ مظهر من مظاهره على درجات ، فيقولون : هذه الخريدةُ أجملُ من تلك الخريدة . وهذه الطاقةُ أبهى من تلك الطاقة . وهذا الأناء أظرفُ من ذلك الأناء . وهذا الصوتُ أحلى من ذلك الصوت . وهذا المصوّرُ أبرعُ من ذلك المصوِّر . وهـذا الشاعرُ أروعُ من ذلك الشاعر الخ .

ولو قد سألتَهم القاعدةَ التى رسَمت لهم حدودَ الجمال ، وعرّفتهم جميعَ منازله ، حتى فضّلوا بعض مظاهره على بعضٍ لأَعياهم الجواب . ذلك بأنهم لا يرجعون فى حُكمِهم ولا فى تقديرِهم إلى قواعدَ محدودةٍ معيَّنة ، كما يَرجعون بجزئيَّات النَّحو والمنطقِ مثلاً إلى قواعدَ محدودةٍ معيَّنة ، فيقولون هذا التعبيرُ يَصحّ على لغة التَّميميين دون الحجازيين ، أو أنه إنما يَجرى على لُغَيَّة ، أو أنه شاذّ ، أو أنه لَحنٌ صريح . وأن هذه القضية منقوضة ، أو أن هذا القياس مُختَلّ لأن صُغرَى مقدّماته لا تَندرِج فى كُبراها — بل إنهم إنما يرجعون فى قضيةِ الجمال وترتيبِه فى كلّ سببٍ من أسبابِهِ ، و إيثارِ بعض مظاهِره على بعض ، إلى ما يروقهم ويَخلبهم ويَتمشّى فى نفوسِهم من الطَّرب والإعجاب .

وهنا لا نجد بُدًّا من أن نعودَ فنقولَ ما الجمال ؟ . لا أحسب أحداً من الناسِ وُفِّق إلى إدراك كُنه الجمال لحدِّه بذاتيَّاته حداً ، على تعبير المناطِقة ، وإن كانوا عرّفوه بآثاره . ولعل أدنَى تعريفاتِ الجمالِ إلى الصواب : أنه كلُّ ما يَستريح إليه الذَّوق ويُثير الاعجابَ فى النَّفْس .

ولقد حاول الصُّدُورُ الأوّلون أن يَضبطوا حُدودَ الذَّوق ، ويَدلُّوا على ما يُرضيه وما يَنشُز عليه ، فوضعوا فيما وضعوا فى هذا الباب فنَّ الموسيقى ، وعلوم البلاغة[1] .

---

(١) كانت كثرة العلماء إلى زمن قريب يخرجون البلاغة عن الفنون الجميلة . على أن الكثيرين أصبحوا يعدونها منها .

وهنا ينبغى أن يفهم النَّشْءُ حقَّ الفهم أن استمداد مثلِ هذه الفنون ليس من الأمورِ الواقعة ، ولا هو من أحكامِ العَقل ، كاستمدادِ علوم الكيمياء والطبيعة ، والحساب والمنطق مثلاً . إنما مادّتُها الذّوق السليم ، وتعرُّف ما يرضيه ، وتَقَصِّي ما يُطربه . وعلى هذا أجرَوا قواعدهم ، وفى حدوده أَطلَقوا أمثلَتهم وشواهدَهم .

وأحبُّ ، بعد هذا ، أن تعرِف فرقًا جليلاً بين شأن العلومِ وشأن الفنون . فانك بمدارسة العلوم والتمرين فيها ، تستطيع أن تكون ، بقدر مَّا ، منتِجاً ، أى تكون كيميائيًّا أوطبيعيًا أوحاسباً . أما فى الفنون فانك ، فى الأكثر ، تستطيع أن تكون بصيراً بالفنّ ومميِّزاً بين جيِّدِ الصَّنعةِ ورديئها ، كما تستطيع أن تَرفع جيّدَها فى التقدير دَرَجاتٍ على دَرَجات ، وتَحُطّ رديئَها دَرَجاتٍ دُونَ دَرَجات . أما أن فنَّ الموسيقى يؤهلك لأن تكون مغنّيًا بارعًا أو عازفًا رائعًا ، وأن علوم البلاغة تستطيع أن تُخرِج منك كاتبًا لَبِقًا أو شاعراً فَحلا ، فذلك ما تتَحسَّر دونه تلك الفُنون !

ذلك أن البراعة فى هذه الفنون الجميلة إنما ترجع أولاً إلى الاستعداد والطبيعة وتهيُّؤ المَلَكة . على أن التعليم والتهذيب إنما يصقِلان الطبيعةَ صَقلاً ولا يخلُقانها خلقًا . وإنك وإن غيرك ممن جرَوا من أُصولِ الصنعةِ على عِرْق . لَتقضون بالتفوّق والتّبريز لهذا المغنِّى على ذلك المغنِّى إذ أَنتم كلكم جازمون بأن هذا المسبوقَ أَبلغُ خبرةً وأَغزرُ علمًا ، كما قد تحكمُون بأن هذا الشّاعر أَبلغُ من هذا الشاعر وأَحلى كلامًا ، وأَبرعُ مَنزَعًا ، وأَروعُ مَقطَعًا ، إذ أَنتم كلكم قاطعون بأن هذا المبروعَ أَوسعُ باللغة علمًا ، وأكثرُ لعلوم البلاغة تحصيلاً وأَصدقُ فهمًا !

والوجهُ فى هذا أَن العلوم التى تستند قضاياها إلى العقل أَو إلى الواقع كالحساب والمنطق والطبيعة ، إنما يكون التبريز فيها ، فى العادة ، على قدر ما حَصَّل المرء من قواعدها ، وتفهَّم من قضاياها ومسائلها . أَما الفنون التى تستند قضاياها إلى الذّوق ،

فالبراعةُ فيها إنما تَجرِى على بَراعة الذَّوق نفسِه ، لا على العلم بالقضايا الاصطلاحيّة التى تَحرَّى بها علماء الفنِّ ضبطَ ما يُرضى هذا الذّوق وما يَنشُز عليه . و إنك لا تجد فى الدنيا رجلاً واحداً دَرَس فنَّ الطبقة وضروب النَّغم ، وضبط حدودها ، وعرف ما يستقيم على الصَّبا وما يتَّسق من النتاغيم للعراق . ثم أقبل يَمُطّ حلقَه متأثِّراً هذه القواعدَ الفنيّة ، فانتظَم مغنياً حاذقاً يُشيع الطَّربَ و يبعث الأَريَحية فى النّاس !

وكذلك قُل فى سائر هذه الفنون . و إنك لَتَجد آلافاً من الناس أعلمَ من مثل شوقى بمَتن اللغة و بأوزان الشِّعر وما يَلحقه من زحاف وعِلل ، وأفقه فى علوم البلاغة وسائر أسباب الكلام ، وإذا شوقى يَسْجَع بأعلى الشِّعر ، و إذا أولئك لا يَبعثون إلاّ الفسلَ المليخَ[1] من المقال .

و إنك لَتَجد كثيرين من الضرُّاب أعلمَ من محمد العقاد بالموسيقى ، وأحفظَ لأُصولِها ، وأضبطَ لقواعدِها ، فاذا أَطلَقوا فى (القانون) أيديَهم لم يُحرِّكوا منك ساكناً ، حتى إذا أَرسل العقادُ فيه بَنانَهُ ، أَخذ منك العَجَب ، وتَمشَّى فيك الطَّرب . ولربما ارتفع بنفسك وأدخل عليك من الأَرْيحيَّة ما يخيِّل إليك أنك أصبحت على المؤمنين أميراً !

والواقع أن العبقرية فى الفنّ لم تُعرَف علَّتُها ولا سبيلُها للناسِ ولا للعبقريين أنفسِهم . ولقد تسأل العامّةَ وأشباهَ العامّة عن فلان المغنى أو القارىء : بماذا كان أبرعَ أهل فنِّه حتى ذهب له ما لم يذهب لهم من صِيتٍ وذِكْر ، وليس بأنداهم صوتاً ولا بأعرقهم فناً ؟ فيجيبونك من فورهم « فتوح من الله ! » . ولقد تسألهم عن العقاد بماذا تفرّد (بالقانون) دَهراً طويلاً لم يتعلّق بغُباره أحد ؟ فيجيبونك (حلاوة إصبع) يا سيدى !

---

(١) الفَسل بفتح فسكون : الضعيف . والمليخ : الفاسد الزنخ

ولقد تسأل الخاصّةَ عن الشاعر فلان أو الكاتب فلان ، وبماذا بَرَعا وبَذّا ؟ فيُجيبونك : « إنها الموهبة ! » . ولا أرى بين مذهب العامّةِ ومذهب الخاصّةِ فى هذا فَرقًا كبيراً ولا صغيراً ، فكلاهما يَدلّ على تمامِ العَجز عن إدراكِ ذلك الشىء الذى تَتهيَّأ به العبقريةُ للمرء فى فنٍّ من الفُنون !

والآن يمكننا أن نحدّد الفرقَ بين البَراعة فى الفنّ والبَراعة فى العلم : فالتبريزُ فى العلم أساسُه تحصيلُ قضاياه وحُسن تفهُّمِها . والاستعدادُ والذَّوقُ شرطانِ فيه . أما التبريز فى الفنّ ، فأساسُه الذَّوقُ والاستعداد ، وتحصيلُ قضاياه وحسنُ تفهُّمِها شرطٌ فيه .

ومما يجلو لك هذا المعنى ويُنير سبيلهُ بين يديك ، أنك لا تستطيع أن تَحكُم بصحّة القضيّة الرياضيّة ، أو المنطقية ، أو بفساد النظرية الطبيعية ، إلاّ إذا كان لك إلمامٌ بالعلم وبصيرةٌ فيه . على أنك تقرأ شعرَ الشاعرِ فيروعك ويُعجبُك ، وتَسمَع غِناء المغنّى فيهزّك ويُطربُك ، وتَرى صورةَ المصوّر فتروقُك وتَخلبُك ، فى حينِ أنك لم تُحصّل من قضايا تلك الفُنون كثيراً ولا قليلاً ! ذلك بأن مَرجع الحكم فيها ، كما قلنا ، إلى الذّوق أولاً . والذَّوقُ غريزةٌ لا يَخلقُها الدَّرسُ ولا التعليم . فاذا كان للتعليم فى هذا الباب فضل ، فهو مجرَّد التهذيب والصَّقل ، على ما سلفَ عليك من الكلام .

ولا يفوتك أن الفنّ لا يَدُلّ على موضع الجمال ، اللهم إلاّ الغافلين ومن تقاصرَت أذواقُهم إلى حدٍّ بعيدٍ ، ولكنه يُسمِّى مظاهرَه بأسمائها التى وقَعَ بها الاصطلاح ، كما يَدلُّ على مذاهب المفتَنّ فى ألوانِ تصرُّفِهِ . ولقد يكون بهذا أقدرَ من غيره على إدراكِ مبلغ الحِذقِ فى كيفيّة التّصرُّفِ وطريقةِ الأداء . على أنك مع هذا لو جِئتَ برجُلين ذَيِّقَين ، أحدُهما خبيرٌ بفنِّ الموسيقى والآخرُ غير خبير ،

فإنهما كليهما ليَطرَبان لجيِّد التوقيع ، وإن عَرَف أولهما أن اللَّحْنَ جارٍ فى نغمة الرمَّل مثلاً ، وجهل ثانيهما إلى ماذا يُنسَب اللحن من مذاهب الأنغام ! لأن إدراك الجمال والانفعالَ به لا يحتاجان ، كما قلنا ، إلى تعليم ولا تلقين .

وهنا شيء يتَّصل بهذا الباب ما ينبغى لنا أن نتجاوزه وألاّ ندلّ عليه . ذلك أن كلّ ما تُخرجه عبقريَّةُ العالم من طريفِ القضايا ومستحدَثِ النظريَّات فى العلوم ، لا يعدُو أن يكون مجرَّدَ استكشافٍ لأمرٍ موجودٍ فى ذاته ، وكلُّ الخَطبِ فيه أنه كان مجهولاً حتى تَهدَّتْ عبقريَّةُ العالمِ إليه ، ودلَّهُ ذهنُهُ أو تجاريبُهُ عليه .

أما ما تَتَضِح به عَبقريَّةُ المفتَنّ من ذلك ، فانشاء وخلقٌ من عدَم ، ومن هنا نُدرِك لماذا كانت الفُنونُ أَشدّ تطوراً من العلوم ، وأبلغَ منها قَبولاً للتَّغيير والتَّحوير ؟ ذلك لأن مَرَدّها ، كما علمتَ ، إلى الذَّوق ، والذَّوقُ أسرَع تكيُّفاً بحكم الزَّمان والمكان والعادات والأَحداث .



وبعد . ففى نفسى أن أتحدَّث عما صَنَع العالَمُ قديمهُ وجديدُه للفَنِّ تعرُّفاً للجمال ، وضبطاً لمذاهبه ، وتربيةً لملَكاته . ولكن لقد طال الكلامُ اليوم ، فلندعْ هذا إلى فُرصةٍ أخرى إن شاء الله تعالى .

فى علوم البلاغـة

سيداتى ، سادتى* :

طَوَينا فى الأزهر بضعَ سنين ، مقصوراً جهدُنا كلُّه على درس الفقهِ والنَّحو . ثم استَشرفْنا ، على العادة ، لدرسِ شىءٍ من علومِ البلاغةِ فى أبسطِ كتبها المعروفةِ يومئذٍ لأهل الأزهر . ولم يرُعنى فى تلك الأيام إلا أن هَجَم على نفسى سؤالٌ شَغلَنى وأهمَّنى ، حتى كان فى بعض الحين يملِك علىّ مذاهبَ تفكيرى ! وإنى لَأَخشى أن أُبادىَ به أشياخى أو لِداتى فى الطلب ، لئلا أُرمَى بالجهل المطبَق بما يَعلم الناس جميعًا ، بدليل أن أحداً لم يراجِع فيه من بين الطلاب جميعًا !

هذا السؤال هو أنه ما دامت للبلاغةِ علومٌ مقرّرة ، ومعارفُ واضحة ، وقواعدُ مفصَّلةٌ مقسومة ، وقضايا محدودةٌ مرسومة ، فقد أصبح من السهل اليسير على كل من يُجيد علمها ، ويَحذِقُ فهمها ، أن يجىء بالبليغ من القول إذا نظم أو نثر ، بل لَتهيَّأ له أن يجىء بأبلغ الكلام ، بل بما ينتهى منه إلى حدود الإعجاز ! وما له لا يصنع ، وقواعدُ البلاغةِ تشيرُ بأوضحِ الإشارة إليه ، وتدلّ بأفصحِ العبارةِ عليه ؟

ماذا على المرء إذا أرسل الكلامَ أن يُخرجهُ مُطابقًا لمقتَضَى الحال ، ويُجرِيَه على أحكامِ الفصل والوصل ، ولا ينحرف به عن مقتَضياتِ الإيجازِ والإطنابِ والمساواة ؟ وهذه أحوالُ التشبيهِ بينَ يديه ، فما يَمنعه أن يصوغَ الكلام على غِرارِها ، ويترسَّمَ فيه أجلى آثارِها ؟ وهكذا . . .

---

* ألقيت هذه المحاضرة فى الجامعة الأميركية بالقاهرة . ونشرتها مجلة الهـلال فى يناير سنة ١٩٣٦ ، وجعلت عنوانها : (ثورة على علوم البلاغة)

ولكن الواقع . . . الواقع القاسى يَأبَى مع الأسفِ إلا أن يُزعجنى عن الاستراحةِ إلى هذا الفِكر القويم ، والمنطق السليم ! فهؤلاء متقدمو الطُّلاب الذين دَرَسوا علومَ البلاغةِ فى أفحلِ كتبِها المَقسومة وأعلاها مكانًا ، لا حظَّ لأكثرِهم الكثيرِ فى فصاحة ولا فى بيان ! بل هؤلاء أشياخهم الذين استهلكوا الدهرَ الأطولَ فى درسِ هذه الكتبِ وتحقيق قضاياها ومسائِلها ، حتى فَرَوا أبوابها فَرْيا ، وبَرَوا فصولَها بَرْيا . هؤلاء كثيرٌ منهم لا غَنَاء لهم فى فَصَاحةِ لسان ، ولا فى نَصَاحةِ بيان !

هذا طالبٌ كبيرٌ يجاورنى فى خِزَانةِ حوائجى فى الأزهر . وهو يتلقى علمَ الأُصول فى كتابِ « جمع الجوامع » ، أى أنه فَرَغَ من درسِ كتابِ « السّعد » ، أى أنه خَتَم علومَ البلاغة ، ولم تَبقَ له بشىء منها أيّةُ حاجة . لقد جمعنا هذا الطالبُ المنتهِى ليُسمعَنا قصيدةً رائعةً مِن نَظمه ، يَهجو بها أهلَ بلدةِ (كوم زمران) المجاورة لبلده . فأسرعنا إلى الاستواءِ بينَ يديه وقد أرهَفْنا الآذان ، وحَدَدنا الأذهان ، وعَلَّقنا الانفاس ، حِرصًا على المتاع بما لا يَظفَر بمثلِهِ عامَّةُ الناس !

ولست أَروِى لكم ، أيّها السادة ، من هذه القصيدةِ الرائعةِ حقًّا ، والجديرةِ بمن أَتَمَّ دروس (السّعد) وحواشيه حقًّا ، إلا هذه الستةَ الأبيات .

أما مطلع القصيدة فهو بمشيئة الله تعالى :

دَع كوم زمران كى تَنجو من العِلَلِ　　وتَستريحَ أَخى من كثرةِ الزَّللِ

ومنهـا :

إن جاءهم ضيفهُم قَبلَ العشاء إذن　　تراهمُ يا فَتَى فى غايةِ المَلَلِ
فالبُخلُ يُشتقُّ منهم ما على أحدٍ　　منهم ثيابٌ سِوى البـالى من الحُللِ
ما فيهمُ عاقلٌ يا ابنَ الكرام فقـد　　جُنُّوا جميعًا وقاكَ اللهُ من خَبلِ

ومنهـا :

لا يَحضرُون دروسَ الفقهِ إنهـمُ　　واللهِ لو تَدْرِينْ فى غايةِ الكَسل

أما تمامُ التمام ، ومِسكُ الختام . فهو :

سِتُّون بيتَ قريضٍ لا تزيد سِوَى   بيتٍ به قد سألتُ العفوَ عن زَللى

***

سيداتى . سادتى :

إذا لم يكن لهذه القصيدةِ من نظمِ ذلك الشيخِ كلُّ الفَضل ، فلا شك فى أن لها أبلغَ الفضلِ فى أن نبَّهتنى إلى أن درسَ علومِ البلاغة — على هـذه الصورة على الأقلّ — ليس من شأنِهِ أن يعلِّم البلاغةَ أو يَطبَع على ناصح البيان . ولعلّ لها بعدَ ذلك شأناً آخَر !

البلاغة

من البيِّن الذى لا يحتاج إلى أىِّ جلاء أن مقاويلَ العرب إنما كانت تجود ببليغ القولِ فِطَرهم ، وتَنتضِح ببارع الكلامِ سلائقهم . لا يَصدُرون فى شىء من هذا عن علم تعلَّموه ، ولا عن درس تفهَّموه ، ولا قواعدَ يَتحرَّون أحكامَهاَ ، ولا أقيسةٍ يَتقرَّون حدودَها وأعلامَها . إنما مَردُّهم فى كل ذلك إلى الفِطْنة الفَطِنَة والذَّوق المُرهَف السليم . حتى موسيقى الأشكال والهيا كل ، وأعنى أوزانَ الشّعر ومقاطِعَه — لقد كانت هى الأخرى موصولةً بطباعهم ، فلم يكونوا فى أىِّ حاجةٍ إلى قانون يَهديهم موقعَ النَّبْرة من السِّلك المنظوم(١) .

وما يُقال فى الخطيب والشاعر ، يُقال فى سائرِ النَّقَدَة وهم كثرة العرَب الغامِرة ، إن لم يكونوا كلهم متذوِّقين ناقدين .

---

(١) وهذا ولا شك شأن كل من يجرى من أسباب البلاغة على عرق إلى الآن وإلى غاية الزمان .

وبهذا المقياسِ الفِطْرى كانت تُقدَر أقدارُ الشُّعراء والخطباء ، فيُنْزَلُ كلٌّ مَنزِلَتَهُ فى غير صِراع ولا حِرَاب[1] ، من الصدور أو المتون أو الأعقاب .

هذه الفِطنَة النافذة ، وهذا الحِسُّ المرْهَف ، وهذا الذَّوق التامّ ، لقد أغنت جَمهَرَة العرب عن المطالعة بفنونِ نَقْد الكلام ، والتنبيه إلى ما فى مطاويه من المحاسن والعيوب ، حتى لكأنَّ هذه الخِلالَ الشائعةَ فيهم كانت عندهم من أفصح أساليبِ الخِطاب ! .

ولستُ أزعم أن العرب كانوا كلُّهم أصحابَ بيان ، وأن شعراءهم إنما كانوا يُرسِلون الشّعرَ من عَفو الخاطر . لا ! بل إن من أعلامهم لَمَن كان يَجتمع للقريض ويتكلّف تجويدَ النظم . ولقد يُجهَد ببعضِهم كثيراً فى تحريرِ الكلامِ وضبطه ، والكرّ عليه بالجَندَرة والصَّقل والتهذيب .

ولقد ظَلّ شأنُ البلاغةِ العربيَّةِ كذلك إلى غاية العصر الأُموى . فاذا كان قد نَجمَ فى هذا الباب جديد ، فان بعض البُصراءِ بفُنون الكلام قد انبعثوا لِنَقدِ بعضِ ما يُجلى عليهم من الشِّعر ، وجَعَلوا يَدلُّون بوجه عامّ على ما لعله يُخفِى من عيوب . ولقد يقارنون بينه وبين شىء من جنسه من أشعار السابقين ، ويفطِنون إلى ما يُضمر من دِقَّة معنًى وإحسان أداء . ومهما يكن من شىء فان ذلك الضَرب من النَّقد لم يكن جاريًا على أى نَهجٍ علمى — إذا صح هذا التعبير — إنما هو الذَّوقُ والفِطنةُ والحِسُّ العامّ .

وبالرغم من أَن بعض العلماء تقدموا فى أعقاب هذا العصر ، وفى صدر العصر العباسى الذى وَلِيَه ، لجمع الحديث واستخراج الأحكام الفقهية ، وعَقدِ القواعدِ للنَّحوِ والصَّرف . بل لقد تَعمَّد الخليلُ ابنُ أحمد المتوفَّى سنة (١٧٠) ضروبَ

(١) الحراب هنا : الحرب

الشِّعر وتقصّى أوزانَهُ ومقاييسَه ، فوضع علمَ العَروض — بالرغم من هـذا كلِّهِ فان أحداً من العلماء لم يتكلَّف وضعَ قاعدةٍ علميةٍ واضحةِ المعارفِ بيِّنةِ الحُدُودِ لشيء من فُنُون البلاغة ، يُرَدُّ إلى حُـكمِها ما يَندرِج تحتَها من الجزئيّات .

كيف عقدت للبلاغة قواعد وجردت لها علوم ؟

سيداتى . سادتى :

إذن فكيف ومتى ضُبِطَت للبلاغةِ قواعدُ وجُرِّدَت لها علوم ؟

يقول ابن خلدون : « إن السببَ فى إطلاق (البيان) على الأصنافِ الثلاثةِ أنه أولُ ما تَـكلَّم فيه الأقدمون ، ثم تلاحقت مسائلُ الفنِّ واحدةً بعد أُخرى . وكتب فيها جَعفرُ بنُ يَحيَى ، والجاحظ ، وقُدَامةُ وأمثالهم إملاءاتٍ غـيرَ وافيةٍ فيها . ثم لم تزل مسائلُ الفنِّ تَـكملُ شيئاً فشيئاً إلى أن مَحَّص السكّاكى زُبدَته وهذَّب مسائله » الخ . وهذا الكلامُ يَحتاج إلى قَدْرٍ كبيرٍ من الإيضاحِ والتَّفصيل .

أَمّا أَنَّ البيانَ كان أَسبَقَ الفنونِ الثلاثةِ إلى التَّدوين ، فذلك أن الإمام اللغويَّ الجليلَ القَدْر أبا عبيدة المتوفَّى سنة (٢٠٩) قد وضع رسالةً فى البحث عن (المجاز فى غريب القرآن) . ولا شك فى أن غرضَه إنما كان دينياً محضاً ، فان تبَيُّن الحقيقةِ من المجاز مما تتأثّر به بالضرورةِ أحكامُ الشرعِ الكريم . فاذا صح أن تَقَصِّى هذه المجازات تَقَصِّياً جزئياً دونَ العنايةِ بنظمها فى قواعدَ كلِّيةٍ تُستخرَج منها الأَحكامُ العامّة — إذا صح أن يُدعَى هذا تَدويناً فى علمِ البيان ، فلا نزاعَ فى أن رسالة أبى عبيدةَ هذه هى أولُ ما دوِّن لا فى علم البيان فحسب ، بل فى علومِ البلاغةِ على الإطلاق .

بعد هذا نعودُ إلى جَعفرِ بنِ يَحيى والجاحظ . أَمَّا جعفر فلم يَسقُط إلينا من كتَبَ فى هـذا البابِ كثيرٌ ولا قليل . وأَمَّا الجاحظُ المتوفى سنة (٢٥٥) فلقد

جرَى قلمهُ فى كتابهِ (البيان والتَّبيين) أكثر ما جرَى بأسباب بَتْراء، وإرشادات عامةٍ لمن يَتصدَّون لنسجِ الكلام، ونُقُولٍ فى تعاريفِ البلاغةِ عن الأقوام الآخَرين. على أنه قد يقع اجتهادهُ فى بعض ما يَكتب على أمور يَعتبرها العلماء المدوِّنون بعد ذلك — إمَّا بنصِّها أو بعدَ تهذيبِها وتسويتِها — من قواعدِ علومِ البلاغة التى لا يَطوفُ بها ريبٌ ولا يلحَقها نِزاع.

يقول الجاحظ مثلاً: «... ومن ألفاظِ العَرَب الفاظٌ تَتَنافر، وإن كانت مجموعةً فى بيتِ شِعرٍ لم يَستطع المنشدُ إنشادَها إلاّ ببعضِ استكراه، فمن ذلك قول الشاعر:

وقَــبرُ حَرْبٍ بمكانٍ قفر ... وليس قُرْبَ قبرِ حَربٍ قَبر

ولا شك أنه بهذا يُعدُّ واضعَ شرطٍ من شروط الفصاحة، وهو السَّلامةُ من تنافر الكلمات. وقد استَشهَد مُدوِّنو البلاغةِ على هــذا الضرب من التنافر بالبيتِ نفسِه.

ويقول فى مقامٍ آخر: «... عن الحسَن يرفعه، أن المهاجرين قالوا يا رسولَ الله: إن الأنصار فَضَلُونا بأنهم آوَوا ونَصَروا وفَعَلوا وفَعَلوا. قال النبى صلى الله عليه وسلم: «أتعرفون ذاك لهم؟» قالوا: نعم. قال: «فإنّ ذاك». يريد أن ذاك شكرٌ ومكافأة

وهذا أيضاً من بلاغة الإيجاز بالحذف.

وهنالك أمثلةٌ يسيرةٌ أُخرَى مما نَضَح به قلمُ الجاحظِ صادراً فيها عن اجتهاده أو ناقلاً عن غيره. وكل ذلك لا غَنَاء فيه إذا نحن تحدَّثنا فى شأن علومِ البلاغة عن التَّدوين والتَّصنيف.

*
* *

بعد هذا جَعَل أميرُ المؤمنين عبدُ اللهِ بنُ المعتزّ المتوفَّى سـنة (٢٩٦) يَتفقَّد

ألوانَ البديعِ التي أصابها في الكتابِ العزيز، وفي كلامِ من سبقَهُ ومن عاشره من أعلامِ البيان، فأحصى منها بضعةَ عشرَ نوعاً ضمَّنها رسالةً لطيفة، نشرَها مطبوعةً من عهد قريبٍ أحدُ كبارِ المستشرقين.

قدامة بن جعفر

ثم يجيء أبو الفرج قُدامةُ بنُ جعفرَ المتوفَّى سنة (٣٣٧) على أرجحِ الأقوال، فيُصنِّف فيما يصنف كتابيه «نقد الشِّعر» و «نقد النَّثر»

ولقد يُغنيني عن الإطالةِ في الإبانةِ عن أثرِ هذا الرجلِ في وضع الأُسُسِ الأُولَى لقواعدِ علومِ البلاغةِ، ومحاولةِ إجراء هذه الأُسس على نَهْجٍ علميّ — إذا صح هذا التعبير — لقد يغنيني عن هذا تلك الرسالةُ البديعةُ التي وضعها في الفرنسية صديقي الدكتور طه حسين، وأداها في العربية صديقي الأستاذ عبد الحميد العبَّادي، وصَدَّر بها كتابَ «نقد النثر»

وقد صرَّح الدكتور طه في رسالته هذه بأن قدامةَ إنما وضع ما وضع من أُسُسِ علومِ البلاغةِ العربيّةِ متهدِّياً بكُتب أرسطاطاليس. وهذا حق لا شُبهةَ فيه، ولا يتخالج الشكُّ فيه من يقرأ كتابَ «نقد النثر»، بل إن المؤلفَ نفسَه لَيصرِّح في بعضِ المواطنِ من كتابه بأن أرسطاطاليس قال في هذا الموضع كذا ونصّ على كَيْت

على أن مِن أظهرِ ما يَخرُج به متصفِّحُ هذا الكتاب، أن الرجلَ في تدوينهِ لعلومِ البلاغة، أو على الصحيح في محاولتهِ تدوينَ هذه العلوم، إنما كان، برغم ما بين يديه من قضايا أرسطو، كالسارى في بَيْداء مَجْهَل. فهو لا يفتأ يلتمس الأعلام ويَتحرَّى المسالكَ والدُّروب. أو هو كالطائر المهاجر يَسقُط حيث يلوح له الحَبُّ، أو تترقرق لعينه صَفحةُ الماء. فما إن تَسنَح له الجزئية يَحسبُها مما يتَّصل بما

هو بسبيله إلا تراه قد هَجَم عليها ، ومثَّل لها بآية من آيِ القرآنِ الحكيم . وتارةً يَتمثَّل بالبيتِ أو بالبيتين من الشِّعر ، مترفقًا شديدَ الترفُّق فى وجوهِ التعليلِ والتأويل وهو إنما يتصيَّد أسبابَ البلاغةِ نِثاراً حتى إنه لم يَفْصِل بين فنونها الثلاثة ، فلقد يأتى بالمسألة من مسائل البديع فى إثْر القضية من قضايا المعانى أو البيان .

ثم لقد يَميل فى بعض الطريق إلى بحثٍ فلسفى . أو يأخذ فى شىء من المنطقِ أو الأُصولِ أو النّحوِ أو الصَّرف . أو يَعدِل بالحديث إلى قوانين الجدَل ، وهى التى دُعِيَت بعدُ بآدابِ البحثِ والمناظرة . وللرجُلِ حَقٌ العذر فى هـذا فانه لم يَعْدُ سُنةَ من نَشَّأُوا العلوم ، وخاصةً منها ما كان مَرَدُّه إلى الأذواق . وهذا ما نُعبِّر عنه اليومَ بالفنِّ الجميل

وكيفما كانت الحال ، فان هذا قُدَامةَ حتى فى القليل من المعانى التى وقع عليها من فُنون البيان ، لم يَضَع لشىء منها قاعدةً كليَّة . إنما جُهدُه كلُّهُ كما أسلفنا أن يَلتمِس لما يتمثَّلُ له من الجزئيات وجوهَ العِلَل التى تَشرُف بها رُتبةُ الكلام

عبد القاهر الجرجانى

ومن العَجَب أن يَثِبَ ابنُ خلدون فى تسجيل نشأةِ علومِ البلاغةِ من قُدامةَ إلى السكّاكى ، ولا يَقف وقفةً — ولو قصيرةً — برجلٍ له أثرُه وله خطرُه . بل لقد عَقد له بعضُهم فيما نحن بسبيله أبلغَ الآثار وأعظم الأخطار . وذلكم الرجلُ هو الإمام الجليلُ عبد القاهر الجرجانى المتوفَّى سنة (٤٧١)

أَلَّف الجرجانىُّ فى علومِ البلاغةِ كتابين ، هما (أسرار البلاغة) و (دلائل الإعجاز) . ولقد جَعَل أَجلَّ هَمِّه فى الكتاب الأول إلى (البيان) ، فتكلَّم فى التشبيه وأطال ، وتكثَّر من إيرادِ الشواهدِ والأمثال . وقَسَّم المجازَ إلى لُغَوىّ وغيرِ لُغَوىّ ، وأسبَغ القولَ فى فُنون الاستعارات . وأَصابَ فى أثناء ذلك ألوانًا

يسيرةً من (البديع) كالسجع ، والتجنيس ، وحسن التعليل . أما ما أصابَ من مسائلِ المعـانى فان جميعَه إنما كان من حَظّ كتابه الآخر (دلائل الاعجاز) ، اللهم إلاّ سَنَحات قد تَلوح أحياناً فى آفاقِ الكلام .

وعبدُ القاهرِ يَعمِد إلى المسألةِ من مسائلِ العِلم فيُضفِى بين يديهـا المقدّماتِ ، ويُسبغ المقالَ فى التعليلِ لها أيَّما إسباغ . ولا يزال يَتيامنُ بالقول ويَتَياسر، ويَضرب فى مجازات الكلام جيئةً وذُهوبا، ولايبرح يُفصِّل المعانىَ تفصيلاً ، ويُلوِّن الحججَ تلويناً ، حتى إذا ظَن أنه أوفَى من ذلك على الغاية ووقع بقارئه على الصَّميم ، راح يُورد الشاهدَ فى إثر الشاهِد ، جاهداً فى شَحْذِ فطنتِك وإرهافِ ذَوقك ، لِيتهيَّأَ له أن يتدسَّس بِك إلى أطواءِ الكلام ، فتجُسَّ ما أَجَنَّت من الدقائقِ جسًّا ، وتَستَشعِر ما أَضمَرَت من المحاسن ذَوقاً مُحسًّا . وكل أولئك يَصنعَه فى عبارةٍ جَزْلةٍ فَخْمة ، ويجلوه فى دِيباجـةٍ مُشرقة اللَّفظ ، متلاحمةِ النَّسج . ولا شكَّ أن عبدَ القاهر بعبارتهِ هذه إنما كان أَدنَى إلى تعليمِ البلاغة منه بآثار ما يَخرُج له من بحثه وتحقيقه . لولا أنه يتكلَّف السجع ويجتمع له فى كثيرٍ مما يُجرِى من البيان .

وكيفما كان الأمر ، فانه كقُدامةَ لم يُعنَ بضبطِ ما اتَّسق له من نتائج البحوث فى قواعدَ كليةٍ تَنتَظم ما تحتَها من الجزئياتِ على الأُسلوب المعروف . نعم إنه لقد مَهَّد لهذا ويَسّره لمن دَوّن بعدَه من العلماءِ فى هذه الفُنون .

ومما تَحسُنُ الإشارةُ إليه فى هذا المعنى أن التأليفَ فى علوم البلاغة ، إلى هذه الغاية ، لم يَعدُ فى الجلة ألواناً من أساليب النَّقد ، طلباً لشَحذِ الأَذواقِ وإرهافِ الأَحساس ، والاجتهادِ فى التَّفطين إلى ما دَقَّ وخَفيَ من وُجوه المحاسنِ والعيوبِ فى الكلام . وليته لم يتجاوز هذا القَدْر . إذن لكان لهذه العلومِ من الحظّ ومن الأَثر غيرُ ما لَهَا الآن !

السكاكى والقزوينى

سيداتى . سادتى :

بعد هذا جاء العلامةُ المحقِّقُ أبو يعقوبَ يوسفُ السَّكّاكِىّ المتوفّى سنة (٦٢٦) ، فاستَخلَص جملةَ أحكامِ البلاغةِ التى تهدّى إليها مَن تقدَّمه من الباحثين ، وضمّ كلَّ جنسٍ إلى جنسه ، وجَمَع كلَّ شكلٍ إلى شَكْلِه . وجعل ينظِم ما تهيّأ له من ذلك فى قواعدَ واضحةِ الرُّسوم ، مضبوطةِ الحُدود ، حتى تكونَ جامعةً مانعة ، على اصطلاحِ جَمهَرة العلماء . وساق لكل قاعدةٍ ما اجتَمَع له من الأمثلةِ والشَّواهد . ووصل كلَّ ذلك بكتابهِ (مِفتاح العلوم) .

ولاَ ينبغِى أن نظن أن السَّكّاكِىَّ فى مجهوده هذا إنما كان صائغًا فَحَسب ؛ بل إنه كثيراً ما يكون لاجتهادِه فى توجيهِ الأحكامِ وفى جَوهرِ المادّةِ العلميةِ الأثرُ البعيد

إذن لقد استطاع السَّكّاكىُّ أن يُحيلَ أحاديثَ البلاغةِ من مادّة أدبٍ ونقدٍ واحتفالٍ لتفطينِ الأفهام وشَحذِ الأذواق ، حتى تستطيع النفوذَ إلى دقائِق البلاغات — لقد استطاع السَّكّاكى أن يُحيلَ أحاديثَ البلاغةِ علوماً إنما تخاطب الأفهام ، لتدُلَّها على مُبرَم الأحكام !

ثم جاء العلاَّمةُ الخطيبُ القَزْوينى محمدُ بنُ عبدِ الرَّحمن المتوفَّى سنة (٧٣٩) ، فَضَغط ما استَخرَج السَّكّاكى ضغطًا شديداً ، وعَصَره عَصْراً (بليغًا) ، حتى أصبح ما يطالعُك من قواعدِ كتابهِ أشبهَ بالأحكام العَسكريّةِ فى شِدّةِ السَّطوةِ والجفَاء !

وعلى كل حال فانه على قدرِ ما تمّ لعلوم البلاغة — بمختصَر الخطيب القزوينى — من التَّحرير والضَّبط والدِّقَّةِ فى تجليَةِ الأحكامِ والقواعد ، وشِدَّةِ التَّحَرى فى

إيراد الأمثلة والشَّواهد ، فلقد ذهب من الجهة التعليمية رُواؤُها ، وجَفَّ ماؤها ، واقتصَر خِطابُها على العقل والحافظة، وكانت من قَبلُ تخاطب الأحساسَ والأذواق !

وإذا كانت علومُ البلاغةِ (الرسمية) قد خُتِمت بمُختَصر الخطيبِ القَزْوينى ، فتكون قد استهلَكت من أول تَنشيئها إلى غاية نُضْجِها وإدراكها أربعةَ قرون سَوِيًا

ولا شكَّ أن من الكتب التى استغرقَت جَليلاً من همِّ الدَّارسين والباحثين والشارحين والمعلِّقين هو هذا الكتاب ، فلقد شَرَحه وعلَّق عليه من لا يُحصَون من العلماء كَثرة . وأهمُّ شروحه وأعظمُها كان استدراجًا لعنايةِ أصحابِ التَّحقيق ، هو المختَصَر لسَعدِ الدِّين مَسعودِ بن عُمرَ التَّفتازانى المتوفَّى سنة (٧٩٢) ، والمطوَّل له كذلك . وأشهرُ الحواشى على هذا المطوَّل وأشيَعها بين أهل العِلمِ تداولاً ، حاشيةُ السيدِ الشريفِ علىِّ بن محمدٍ الجُرجانى المتوفَّى سنة (٨١٦) . وشرحا السعدِ وحاشية الجُرجانى لقد كانت من عهدٍ بعيدٍ هى المادة العظمى لتَروِية علومِ البلاغةِ لمتقدِّمى الطلاَّب فى الأَزهر الشريف

فوقَ التَّعقيدِ الشديدِ فى عباراتِ هـذه الكتب ، أيها السادة ، والمبالغةِ فى إبهامها وإغماضِها ، فان مِلاكَ البحث فيها إنما هو الجدَل اللَّفظى ، والاعتِسافُ فى بحوثٍ فلسفيَّة لا غَناء لها فى صَنْعةِ البيان . بل إننى لَأزعم أنه لو كان هناك من يريد التخلُّصَ من فَصَاحةِ اللسان ونَصَاحةِ البيان ، فليس عليـه أكثرُ من أن يَدرسَ هذه الكتبَ حَقَّ درسِها . ويديمَ النظرَ فيها ، ويقلِّبَ فى عباراتها لسانَهُ وفكرَه ، ليكون له كلُّ ما يحبُّ إن شاء الله !

لتكن هذه الكتبُ مما يَفسَح فى الملَـكاتِ العامّة ، ويَطبَع الطالبَ على الصَّبرِ على البحثِ والتَّحقيق ، ويُعوِّده ألاَّ يُسيغ قضيةً من القضايا إلاَّ بعد أن يُحكِّـكها

بألوانِ الاختبار والامتحان — ليكن لها كلُّ هذا ، وليكن لها غيرُ هذا أيضًا — ولكنها لا يمكن أن تُلقِن علومَ البلاغةِ على أىّ حال ، فضلاً عن أن تُذيق الطالبَ البلاغةَ نفسَها ، أو تريحه ريحَها ، اللهم إلا أن تكون بلاغةً من طِراز :

دَعْ كومَ زِمران كى تنجو من العِلَلِ   وتستريحَ أخى من كثرةِ الزَّلَلِ !

البلاغة فن

سيداتى . سادتى :

لقد حدثتكم فى صَدرِ هذا الخطابِ عن عقليّة فتًى ناشىءٍ لم يَتهيّأْ له بعدُ أن يُدركَ الفرقَ بين العلومِ والفنون . ولم يكن يَعرِف أن الفنَّ ابنُ الطَّبع والغريزةِ والمَلَكَة . وإنما تدعو إلى إنشائِه ومعالجتِه الحاجةُ تَبعثها ضرورةٌ أو تبعث إليها مجرّد الرغبةِ فى التَّرفيه والتَّلذيذ . أما العلمُ فمهمّتُه بعد ذلك الملاحظةُ والتقييدُ والتسجيل .

فالبلاغةُ باعتبارِها فنًا هى أثرُ المَلَكَة ومَظهَر قدرتِها من نظمِ شعرٍ رائعٍ أو إرسالِ نَثر بديع . أمّا البلاغةُ باعتبارها عِلمًا فهى عُصارةُ ما خَرّج بالاستقراء للإِحْسَاس والأذواق من دواعى الحُسنِ والقُبحِ فى فُنونِ الكلام . وما يقال فى البلاغةِ من هذه الناحيةِ لا شك يَجرى حكمُه على سائرِ الفُنون والعلوم . والعالِم بالفنِّ غيرُ المُفتنِّ على كل حال . وإنما بينهما العُموم والخُصُوص الوَجهى على تعبيرِ أَصحابِ المنطق ، فيجوز أن يكون المرءُ بليغًا وهو غيرُ عالم بقواعدِ البلاغة ، ويجوز العكس . كما يجوز أن يَجمَع بين الخَلّتين معًا . وهذه الشواهد ماثلة فى الكثيرين ممن عاصرنا ومن لم نعاصر من العلماء والكتّاب والشّعراء .

إذن ليس العِلمُ ، أيها السادة ، هو الذى يَخلُق الفنَّ ويَطبَع مَلَكَةَ المرءِ عليه . إنما الفنون كما زَعَمنا ، وخاصّةً هذه الفنون الجميلة ، وفن البلاغة منها — وإن نازع

بعضهم فى هذا — إنما هى من أثرِ تَهَيُّؤِ الفِطرة ، أو ما اصطلحوا على تسميته بالموهِبة فى هذه الأيام . فاذا كان للعلم من هذه الناحية أثر ، ففى توضيحِ المناهجِ وهدايةِ السُّبل ، وتبصير من يعالج الفن بما استجادت جَمهرةُ أصحابِ الأفهام والأذواق ، أو ما أنكرت من آثار جماعات المفتنّين ، سواء من السابقين أو من المعاصرين .

ومما يَنبغى أن يلاحَظَ فى هذا المقامِ أن أفحلَ من عاصرنا من الشّعراء لم يكن أكثرهم من العلم بقواعدِ البلاغةِ على حظٍّ جليلٍ ولا ضئيل . إنما هو الطَّبع والتهيُّؤ ، وكثرة الحِفظ ، وترديدُ النظر فى آثار البلغاء المجلّين !

الفن يتطور

سيداتى . سادتى :

إذا كان الفنُّ التقليدىُّ إنما يجرِى فى حُدودِ العِلم ، أى أنه يَنبغى أن يُطابقَ ما اجتمع عليه رأىُ أصحابِ الأفهامِ والأذواقِ فى الفنونِ الجميلةِ بوجهٍ خاصّ ، فلا يَنبغى أن يفوتنا أن العلم لا يَستحدِثُ فى الفنِّ جديداً ، ولا يَعدِل به من نَهجٍ إلى نَهج . ولكن الفنّ هو الذى يُغيّر العلمَ ويَدخل على قضاياه بالتّشكيلِ والتّلوين ، ما دام يَشرَع ويتطوّر ويَستحدِث ، إذ كلُّ همّ العِلم هو كما أسلفنا إلى الملاحظةِ والتّسجيلِ والتّدوين .

ولا شكّ أن أظهرَ ما يظهر فيه التطوُّر بالاتّساعِ والدِّقة هو الفنُّ الجميل ، لأن مَردَّه فى الغايةِ إلى الأذواق ، والأذواقُ كما تعلمون شديدةُ التأثُّر بالكثيرِ من أسبابِ الحياة . ومن أفعلِها مبلغُ حظّ الجماعاتِ من الحَضارة والتّثقيف ، ولون تلكم الحضارةِ وهذا التّثقيف .

نعم ، إن للفُنونِ الجميلةِ عند كلِّ أمةٍ تقاليدَ تكاد تتَّصل جُذورُها بالطِّباع والفِطَر . ولكن ذلك لا يمنع من أن يَتَناول الزمانُ كثيراً من مَظاهرها وصُورها بالتَّشكيلِ والتَّلوين .

* * *

أرجو أن تَدعَونى بعد هـذا أزعم أن البلاغةَ العربيَّةَ باعتبارِها فنّاً أولاً ، وباعتبارِها فنّاً جميلاً ثانياً ، مما يجوز عليه التغيير والتَّلوين ، ومما يَتقبَّل النموَّ وشدّة النُّفوذ ، بحكم اطِّراد التقدُّمِ فى أسباب الحضارة ، واتساع الأفهام ، ورَهافة الأذواق باتساعِ آفاقِ العُلوم والفُنون .

وإذا كان مَشْقُ البلاغةِ العربيَّةِ هو بلا شكٍّ ما أُثِرَ إلينا عن عَربِ الجاهليةِ والصُّدورِ الأُولى فى الإسلام ، فان مما لا مِراءَ فيه أنه قد استُحدِثَت بعد ذلك ولا تزال تُستَحدث بلاغاتٌ لم تَشْكُلْها علومُ البلاغةِ المأثورةُ بالتَّقييد والتَّدوين ، ولم تَعقِد لها قاعدةً بين قواعدِ البيانِ والتبيين .

بل إن هناك صوراً مما استجاد متقدمو النَّقَدَةِ وواضعو علومِ البلاغة ، وساقوها شواهدَ على بَراعة الكلام . هذه الصُّوَر مهما كان من استراحة أذواق السابقين إليها ، فانها مما يَنفِر منه ذوقُ العَصر الحديث ، ويأباه الحِسُّ القائم كلَّ الإباء !

ومن هذا الباب ما مَثَّلوا لحسْن التعليل بقول الشاعر :

لَوْ لم تَـكنْ نِيَّـةُ الجَوْزَاءِ خِدمَتَه ... لما رَأَيتَ عليهـا عِقْدَ مُنتَطِقِ

وقول الشاعر :

لم تَحْكِ نائِلَكَ السَّحابُ وإنَّما ... حُمَّت بهِ فَصَبيبُها الرُّحَضَاءُ

أو قول الشاعر :

ما بِهِ قَتلُ أَعاديهِ ولكِنْ ... يَتَّقِي إخلافَ ما تَرجُو الذِّئابُ

فمن ادَّعى أنه يُسيغ مثلَ هذا الكلامِ اليوم، وأن ذَوقَه يستريح به ، فانى إلى غيره أوجِّه الحديث .

هنالك شىءٌ آخَر له خَطَرُه الشَّديد، وله أثَرُه البعيد : ذلكم أن تقدُّم الحضارةِ واتِّساع آفاقِ العلوم ، قد فَطَّن النَّقَدَةَ ومتذوِّقى الأَدبِ إلى ألوانٍ من البلاغة فى مأثورِ العربيّة ، لا أجرُؤ على أن أقول إنه لم يَفطُنلها ، وإنما أقول إنه لم يَحتفِل لها متقدِّمو نَقَدة الكلامِ أىَّ احتفال . ومن أظهر ما أغفلوا الحديثَ عنه فى هذا البابِ بلاغةُ الصُّورة ، و بلاغة القَصَص وما يتضمن من بارع الجدَل ورائع الحِوار.

انظروا ، أيها السادة ، كيف يَجلُو اللهُ تعالى علينا بعض خَلْقِهِ فى كتابِهِ الحكيم :

« إنَّ فِى خَلْقِ السَّمَاواتِ وَالأَرضِ ، واخْتلافِ اللَّيلِ والنَّهارِ ، والفُلْكِ التى تَجْرِى فِى البَحْرِ بِما يَنفَعُ النَّاسَ ، وما أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّماءِ مِنْ مَاء فَأَحْيَا بِهِ الأَرضَ بَعدَ مَوْتِها وبَثَّ فِيها مِنْ كلِّ دَابَّةٍ ، وتَصْرِيفِ الرِّياحِ ، والسَّحَابِ المُسَخَّرِ بَينَ السَّمَاءِ والأَرضِ لآياتٍ لِقَومٍ يَعقلون »

انظروا ، أَيها السادة ، كيف يُصوِّر لنا القرآنُ أَهلَ الكهفِ فِى مَنَامهم الطَّويل :

« وتَرَى الشَّمسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ اليَمِينِ . وإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُم ذَاتَ الشِّمَالِ ، وهُمْ فِى فَجْوةٍ منه ، ذَلِكَ مِنْ آياتِ اللهِ . مَنْ يَهدِ اللهُ فَهوَ المُهْتَدِ ، ومَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لهُ وَلِيًّا مُرْشِداً . وتَحسَبُهمْ أَيقَاظًا وهُمْ رُقُودٌ ، و نُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ اليَمِينِ وذَاتَ الشِّمَالِ وكَلْبُهُمْ باسِطٌ ذِرَاعَيه بالوَصِيدِ . لَو اطَّلَعْتَ عَلَيهِمْ لَوَلَّيْت منهم فِراراً ولَمُلِئْتَ منهم رُعباً »

الله الله ! ما شاء الله ! ولا قوةَ إلا بالله !

حدِّثونى بعيشِكم : أىّ مصوِّرٍ مهما فَحُلت عبقريّته واستمكَنَت سطْوةُ فنّه، يستطيع أن يجاوِزَ مثلَ هذه الصُّورةِ للعيُون ؛ فكيف وقد جلاّها عليها القرآنُ عن طريقِ الآذان !

حدثونى بعيشكم : إلى أيّةِ قاعدةٍ من قواعدِ البلاغةِ (الرسمية) نَرُدُّ هذه (اللوحةَ) الفنيّةَ الرائعةَ لِنُدرِكَ بها عللَ كلّ هذا الاحسانِ والابداع ؟ أترى هذه الصورة قد انتهت كلّ هذا المنتهَى لأن فيها ألواناً من الطِّباق فى اليمين والشمال ، وفى طلوعِ الشمْسِ وغُروبِها ، ويَقَظة الجماعةِ ورُقودهم ؟ لا لا يا سادة ! اللّهم إن الخَطْبَ لأجلُّ من هذا بكثيرٍ وفوقَ الكثير !

وبعد ، فلو قد ذَهَبَ ذاهبٌ فى سَردِ أمثال هذه الشواهدِ من كتاب الله تعالى وحديث الرّسولِ صلى الله عليه وسلم ، وما أُثِرَ عن فُحُولِ البلاغةِ من الخطباء والكتابِ والشعراء ، لاستَهلكَ فى ذلك الزمنَ الطَّويل .

وهنا شىء لا أُحِبُّ أن أتجاوزَ هذا المقامَ دونَ أن أُشيرَ إليه : ذلكم أن من عِلَلِ الحسْنِ فى الفُنون الجميلةِ ما يَدِقّ حتى تُعيِي التَّرجَمةُ عنه على اللِّسانِ والقلمِ جميعاً ، وإن تَعَلَّقَتْ به الفِطَن وأصابَتْهُ الأذواق .

ومما يتَّصل بهذا الباب ما رُوِىَ من أن بعضَ الخلفاء العبَّاسيِّين قال لإسحاقَ الموصليّ ذاتَ يَوم : « صِفْ لى جَيِّدَ الغِناء » فقال : « يا أميرَ المؤمنينَ إن من الأشياء أشياء تُصيبُها المعرفة ، وتَعجزُ عن أدائِها الصِّفَة ! »[1]

ولست استدِلّ على هذا بأبينَ من صنيع عبدِ القاهِر الجُرجانى فى كتابه « دلائل الاعجاز » ، فانا كثيراً ما نراه يُحاول بكلّ ما أوتى من بَسْطَةِ علم ، ونُفوذ

---

(١) الصفة هنا : الوصف

فِـكر ، وسَطْوةِ قلم ، أن يقع على إحدَى دقائِق الحُسنِ فى الآيةِ من الـكتاب ، فلا يُصيب الصَّميمَ وإن أجهدته كَثرةُ اللَّفِّ والدَّوَرَانِ . على أنه إذا عَجزَ عن جَلْوِ الحقيقةِ بالنَّص ، فانه مُحَصِّلُها كاملةً فى نفسِ قارئِه ، وواصلُها بذَوقه ، إذا كان ممَّن يَجرُون من الصِّناعة على عِرْق ، وذلك بالبراعةِ فى التَّنبيه والتَّفطين

سيداتى . سادتى :

لعلّ من أظهر ما نُحسُّه من ضعفِ النَّقدِ الأَدبى - أو بعبارةٍ أَبْين ، من قصُورِ علومِ البلاغةِ العربيَّةِ فى هذا العصر — أن سَلَفَنا وجَّهوا كلَّ عنايتهم إلى النَّقد الجُزئى . أعنى نَقدَ الـكلمةِ فى الجملة ، أو نَقدَ الجملةِ فى العِبارة . فاذا كان الـكلامُ نَظماً جَرَى النَّقد للبيتِ مستقلاً ، وأحياناً للبيت من حيثُ اتصالُه بما قَبلَه أو بما بَعدَه ، أى النَّقد (بالقطَّاعى) على تعبيرِ التُّجَّار . أما نَقدُ الـكلامِ مُجتمِعَ الشَّمل ، وتناولُه من حيثُ استواءِ الصُّورة ، واتِّصالُ المعانى ، واتِّساقُ الأقطار ، وتَلاَحُمُ الأجزاء ، فذلك ما لم يكن له من نَقَدَةِ البلاغةِ حظٌّ جليل !

وليس يغيب عنا فى هذا المقام أن هذه الحضارة القائمة قد جَلَت علينا من صُوَرِ البلاغةِ صورتين لم تَلبثَا أن ساهمتا فى أَدبنا العربىِّ بنصيبٍ جليل . وأعنى بهما فنَّ القَصص ، والتَّصويرَ البيانى ، على حين أننا لا نرَى لهما مكاناً واضحاً من عنايةِ علومِ البلاغةِ المأثورة ومضاربِ النَّقدِ القديم !

*
* *

سيداتى . سادتى :

لست ثائراً فأَدعوَ إلى إلغاء علوم البلاغة العربية بَتاتاً ، كما ألغتها أممٌ فى الغرب بَتاتاً ، ولكننى أدعو إلى تليينها وتمرينها ، حتى تصبح أَشبهَ بالأُسلوبِ النَّقدىِّ

القائِم على التّفطين والتذويق ، بحيث تَتطوّر مع تطوُّرِ الأفهام والأذواق . وعلى أن يوصَل تعليمُها فى المدارسِ والمعاهدِ بدرس الأدبِ نفسِه . فالواقعُ أنه ما نَضِجَت مَوهِبةُ شاعرٍ ولا كاتبٍ قط بدَرس علومِ البلاغة ؛ ولكن بطولِ ترديدِ النظرَ وتقليبِ الذّهن فىالمأثورِ من روائع الآداب ، إلى الارتياضِ بكثرة العلاج والتمرين . فإذا انفسَحَت مع هذا ملكةُ الكاتبِ أو الشّاعر ، ورَهُفَت فِطنتهُ بِترسُّم مذاهبِ النّقد الفَنى ، فقد تمَّت نعمةُ الله عليه ! . هذا رأيى فى الجملة ، وأقول « فى الجملة » لأن هناك أسباباً من القولِ يضيق عن شرحِها هذا المَقام . وبعد فإذا أبينا إلاّ الحِرصَ على بقاء هذه العلوم على تلكم الصورةِ التى دَفَعها إلينا السابقون ، فلا شكَّ فى أن لها فى دارِ الآثارِ العربيةِ المكانَ الفسيح ! !

فى الفنّ والمفتنّين*

لا شك فى أن الفنّ لا يَستوِى للمرءِ بمجرّد التحصيل والتعليم والتمرين ، ولكنه إنما يَستوى بهذه إذا كانت للمرءِ طبيعة ، وكانت له مَوهِبة . وعلى قَدر هذه الموهبة يكون حظُّه من الفنّ . ولقد تصل به ، ولو كان فى شباب السنّ ، إلى النبوغ والعبقرية . وذلك أن الفن ، على ما يظهر لى ، قائم فى النفس . وانما أعنِى نفسَ المفتنّ . وما التعليمُ والتحصيلُ إلا وسيلة إلى نفضه إلى عالم الأعيان الخارجية (على حد تعبير أصحاب المنطق) ، ولاختصارِ الطريق إليه بالاستفادة بتجاريب السابقين ، وطول ما فكَّروا وتدبَّروا ، وتَهدَّت إليه على الزمان أذواقُهم ، فانتضحت به قرائحُهم . وما التَّدريب إلا لتوثيق الصلة بين ما تَعتلج به النفس ، و بين الفكر أو اليد أو اللسان .

وهؤلاء النابغون فى الفنون ، لو حققتَ النظر ، ليسوا من جنسٍ واحد ؛ بل إنهم لَيُرَدُّون إلى جنسين مختلفين ، أو على الأصحّ إلى ثلاثة أجناس : فأحدها مبتكِرٌ مخترع ، يَخلُق الفكرةَ خلقًا ، ويَبتدِعها ابتداعًا ، ويُخرجها للناس على غير سابق مثال . أما الثانى فلا يَبتدِع ولا يَبتكِر ؛ ولكنه صائغٌ ماهرٌ يقَع على فكرة غيره ، ويسطو ببدع سواه ، فيخرجه أحسن مُخرَج ، ويصوره أبدع تصوير . وأما الثالث فالذى اجتمعت له الخلَّتان جميعًا . وهؤلاء فى أصحاب الفنّ هم الأندرون.

ولعلك تظن مع هذا أن المبتكِرين أفضلُ وأجدى على الفنّ دائمًا من الصَّاغة الناظمين ! . والذى لا ريب عندى فيه أنهما كليهما يتساهمان فى الجدوَى على الفنّ . أما إذا لم يكن بدٌّ من فاضل فيهما ومفضول ، فان أرجح الكِفّتين قد يكون لهؤلاء الصَّاغة الماهرين ، وإليك البيان :

---

* نشرت بجريدة المساء فى يوم ٣ ديسمبر سنة ١٩٣٠

اعلم ، وفَّقنى الله ووفَّقك إلى السَّداد ، أن ذلك العَبقرىَّ المبتكِرَ من العَدم ، والمبدعَ على غير مثال ، قد لا يكون لتفكيره شىء مما يَصنع ، ولا لعقله دَخْلٌ فى شىء مما يُبدِع . إنما هو الطبع والغريزة يَنضَحان بهذا . ولقد يفعلانه فى سرٍّ من عقله ، وفى غفلةٍ من تقديره . فشأنه فى هذا شأن القُمْرىّ يشدو أبدعَ الشدو ، ويُرجِّع أحلى الترجيع ، ما يُريغُ لحنًا ، ولا يعتمد تنغيمًا . وكالوردة ينفرج عنها كمُّها ، ما بها أن يملأ أنفَك طيبُ شذاها ، ولا أن يَبهرَ عينيك جمالُ مَرآها !

وإنى لأزعمُ لك ، أبلغ من هذا ، أن كثيراً من هؤلاء المبتدِعين قلَّ أن يَشعُروا بما صَنَعوا ، وقلَّ أن يَقدِروا حق ما أَبدعوا . إنما هم قناةٌ بين ما استودع اللهُ تعالى من سرٍّ خَلَقه نفوسَهم ، و بين ألسِنتهم أو أيديهم .

نعم ، إنهم إنما يَنتَضِحون بما يُخرِجون بمحضِ الإلهام ، أو بتلك الحاسّة السادسة التى لم يَكشفها العلمُ إلى اليوم . تلك الحاسةُ التى تهتدِى وحدها ، وفى سرٍّ من حركةِ العقل ، إلى كثيرٍ من حقائق العلم ، وإلى كثير من دقائق الفنّ ! . هذه الحاسّةُ التى تهدى طبيبًا واحداً بين عشرة أطباء يختلفون فى تشخيصِ مرضٍ واحدٍ اشتَبهت أعراضُه بأعراض عشرة أدواء . فيقَع هو على حقيقةِ العلة دونَهم جميعًا ، إذ هو نفسُه لا يَدرى كيف اهتدَى ولا كيف أصاب !

أما الصائغُ الماهر ، فلستُ أعني به بالضرورة ذلك الذى يسطو بفكرة غيره فيصوغها فى لفظٍ آخَر ، أو يُجلِّيها بنفسها فى صورةٍ أخرى ، واقعةً من الفنّ حيثُ وقعت ، فهذا لصٌّ لا فضلَ له أبلغ من سُرَّاق الليل وعيَّارى النَّهار .

وفى هذا المقام يَحضُرنى كلامٌ قرأتُه من زمان بعيد فى شرح الشَّرِيشى على مقامات الحريرى فى السرقات الشِّعرية . وانى لأذكر أنه قسمها أو لعله نقل تقسيمها عن غيره ، إلى عشرين : عشرٍ محمودةٍ مُستجادَة . وعشرٍ مذمومةٍ

مُستقبَحة . و إنى لأذكر أنه مثَّل لبعض الأولى بقول الشاعر :

مَن راقَبَ الناسَ ماتَ غماً وفازَ باللذَّة الجَسُورُ

يَسرِق هذا من قول الآخر :

مَن راقَبَ الناسَ لم يَظفَر بحاجته وفازَ بالطَّيِّباتِ الفاتِكُ اللَّهِجُ

أو ما فى معنى ذلك ، فلعلِّى نَسِيتُ بعض ألفاظ البيت ، ولعله كما أوردتُه .

على أننى لا أَعنِى ببراعةِ الصِّياغةِ هذا القدْر ؛ فإن الصَّائغ مهما يُجوِّد الصَّنعةَ ويُحكم النَّسج ، فإنما ينادى على نفسه بالسرقة ، ويُشهد على اختلاس ما ليس له . إذ المعنَى ثابتٌ للمبتدع مَهما أسفَّ فى نَظمه ، وضعُف فى صياغته . بل لا أعني كذلك منزلةً فَوْقَ هذه ، وهى التى لا يَنقُل الصاغَةُ الفِكرةَ فيها نقلاً ، و إنما يَلحَظونها من بعضِ جوانبها أثناء صياغتهم لمعنًى آخرَ . وهذا ما يُعبِّر عنه نَقَدة الشِّعر بقولهم : إن الشاعر فى هذا قد لَمَحَ قولَ فلان . فان المفتنَّ مهما كان له فى هذه الحال من الفضل فى جَودة النظم وقوة السَّبك ، واستخدام فكرة غيره فى أداءِ غرَضٍ آخَر — لا يزال عِيالاً ، ولو بقدر مّا ، على صاحبه المبتدِع . فى حين لا يزال هذا النَّبعَ المستقَى ، والمِثالَ المحتذَى .

و إنما أَعنِى بالبراعةِ فى الصِّياغةِ ما هو أعلى وأدقُّ من هذين الصَّنيعَين . فالمفتنُّ الصَّنَعُ ، حتى الذى لم يُؤْتَ مَلَكةَ الابتكار ، ولم يُرْزق القوَّةَ على الإنشاء ، ترى له من شدة الفِطنةِ ودقةِ الحسِّ ما يتلقَّط به المعنى الغريب ، ويُصيب به النَّبْرَة الدَّقيقة ، ويَشكُّ به الفكرةَ الطريفةَ ، فى شعرٍ أو نثر ، أو موسيقى ، أو تصويرٍ أو نحت ، أو غير أولئك من ألوان الفنون — إنه ليتلقَّطها بذهنِه الدقيق إذ قد لَمَحَ فيها سانحاً من طريفٍ بديع ، لعلَّهُ لم يَعهَده من قبلُ ولم يَعهَده الناس . و إن كان شخصُه لم يَتبيَّن بعدُ كلَّ التبيُّن ، وصورتُهُ لم تستوِ حقَّ الاستواء ،

فلا يَزال به يُحــكِّــكُه بحسّه المرهَف ، ويَمخُضُه فى ذَوقِهِ الرَّحِب مَخضاً . وكلَّما فعلَ ازدادَ فى نفسِه تبيّناً ووضوحاً ، وهكذا حتى يَتمَثّلَ لها خَلقاً سوِيّاً . فسُرعانَ ما يَجلوه على الناسِ كما جَلته عليه نَفسُه ، ما يَصِل بينَه وبينَ أصلِه عندَهم نَسَب ، ولا يَرتبطُه بمَنجَمِه الذى خَرَج منه أىُّ سَبَب . فلا يَحسَبونه ، مهما جُهِد بهم من حَدِّ الذِّهنِ وتَرديد النَّظَرِ إلاَّ خلقاً جَديداً ، أنشأته من القدَمِ قدرةُ هذا المفتَنِّ الصَّناع ! .

وكثيراً ما يعمِد هذا الحاذِقُ الصَّنَعُ فيما يَفطُن إليه من هذه الدَّقائِقِ الكامنة إلى مَطلِها والبَسط فى خَلقِها بالتَّوليد والاشتقاق ، وبتداعى المعانى ، حتى يبلغَ بها فى ذلك غايةَ المَدَى ، وأنتَ تحسَبُهُ كذلك مبتكراً مُنشئاً ، وتظُنُّهُ مستحدِثاً مُبدِعاً ، إذ هو يعلَم كيفَ فُتح عليه فى كلّ هذا ، ومَن الذى أَلهمَه إيّاه ! .

وبعد ، فاذا كان قد تعاظَمكَ ، بادئَ الرأى ، ما زعمتُ فى صَدرِ هذا الحديثِ من أن أرجَحَ الكِفَّتين قد تكون لهؤلاءِ الصَّاغَةِ الماهرين ، فلعلّك الآنَ قد تطامَنْتَ واستراحَ إيمانُك إلى هذا الكلامِ بعد إذ بان لك فضلُ هؤلاءِ أولاً فى الوقوع على تلك الدقائقِ المستورةِ المغمورة ، ما يكاد يَفطُن إليها أَحد ، ولا يكاد يقدِرها حتى هؤلاءِ الذين نَبغَت بها فى بعض الأحيان سلائقُهُم عفواً بلا قصدٍ ولا سابِقِ تدبير . وثانياً فى تجليتِها على الناسِ فى صورةٍ واضِحةِ الخَلق ، تُرهفُ شعورَهم ، وتُمتع أذواقَهم ، وتلذّذ أَحساسَهم ، وتبعث فيهم ما شاء الله من أَريحيّــةٍ ومَرَاح ! .

*
* *

ولقد كان المرحوم محمد افندى عثمان المغنّى مبدِعاً بارعاً ، وكان المرحوم عبده افندى الحمولى صائغاً رائعاً . فكان أولهما يُنشئ الصوت (الدور) انشاءً[1] ،

---

(١) قرأت فى كتاب (الأغانى) : يقال فى هذا الصوت دَور كثير أى صنعة . ولعل كلمة (الدور) أطلقت من هذه الناحية على هذا الضرب المعروف من ضروب الغناء الآن

ويُلحِّنه على غيرِ مِثال ، فيخرج قويًا بديعًا ، لأن عثمان صائغٌ كما هو مبتكر . ثم يَتلقَّفه عبده فما يزال يُهلهله ، ويُسَوِّى من صورتهِ ، ويُمِرّه على ذوقهِ الدّقيق ، فيعدّل من أطرافه ، ويُشيع فيه نفسه ، ويُولِّد فيه من النَّغم فنونًا حتى يخرج أقوَى وأبدعَ وأفتن . ثم يقال هذا الصوتُ لعثمانَ فيه لحن ، ولعبده فيه لحنٌ آخر !

ولشدّما كان ذلك يُحفِظ عثمانَ على صاحبه ، ويَغيظه أشدَّ الغيظ ، فيروح يُغلظ له القول ، ويباديه بما هو أقسى من العتْب ، ويتّهمه بالسّطوِ بصنعته ، وعبده يُطامِن من هِياجه ، ويُلطِّف من حدّه . ولا يزال به يدلِّله ويرفِّه عنه بالكلم الطيِّب حتى يَسكن ويرضى . وكان الحامولى ، رحمه الله ، من دُهاة الرجال !

وليس معنى هذا أن عبده لم يكن مبتكرًا ألبتة ؛ فإن له لابتكاراتٍ عجيبة ؛ ولكنه كان صوّغًا أكثر مما كان منشئًا .

وإذا كان فنُّ التنغيم بآى القرآن الكريم قد بلغ اليومَ أَوْجه ، فلا شك فى أن نهضته الحاضرة مدينة للمرحوم الشيخ حنفى برعى . فهو الذى استنّ هذه الطريقةَ الحديثة ، فكانت جَمهَرةُ القارئين له فيها تبعًا .

ولقد نشأ الشيخ أحمد ندا ، أشهر القارئين اليوم ، يُلحِّن على أسلوب المرحوم الشيخ حنفى برعى ، ويسلك نفسَ طريقته ، ويقلِّده فى إيقاعه ، ويحاكيه فى ترتيله ، فان الشيخ حنفى كان أعلى سنًّا وأقدم فنًّا . ثم ما زال الشيخ ندا يزيد بالتّلوين والصّياغة وقوّة الافتنان ، إلى أن استوت له شخصيةٌ خاصة ، إن هو استقل بها عن شخصية أستاذه ، فما برحت عليها مَسحة منها إلى اليوم .

على أن واجب الإنصاف يقضى علينا ، فى هذا المقام ، أن تقرر أنه إذا كان أسلوبُ الترتيل الحديث من ابتكار الشيخ برعى ، فان الشيخ ندا بما ولد وما افتنّ قد زاد ثروةَ هذا الفن أضعافًا . ولا أحسب أن تاريخ أهل التنغيم « مغنِّين

ومنشدين وقارئين » أحصى لأحد ما أحصى لأحمد ندا من سلخ أكثر من خمسين عاماً مرتِّلاً قوى الصوت ، رائع الايقاع ، تلوح له (الحركة) فى عنان السماء ، فلا يَنخذِل عنها ، ولا يَتزايل عزمُه من دونها ، بل إنه ليَجمع نفْسَه ، ويُحلِّق إليها بصوته القويّ المَرِنّ ، فلا يزال بها حتى يَصيدَها ، ويُفرغها على السمع فى لباقةٍ وقوة إبداع !

ولقد فاتنى أن أذكر لك أن الشيخ برعى كثيراً ما كان يُرى واقفًا برَجل من هؤلاء الذين يسألون فى الطرق بقراءة القرآن . ذلك أنه تُعجبه منه نغمة ، أو تهُزه نبرة ، وسَرعان ما يتلقفها ، فيهذبها و يصقلها ، و يُطلِقها فى سهرته سويةً بديعةً تُضاف إلى فنه الكريم !

ولقد أخذ المرحوم الشيخ أبو العلا نفسَه بفنّ عبده الحامولى . وكان يَتغنى أغانيه ، ويُقلِّده فى جميع تناغيمه ، حتى لم يكد يرِث صنعةَ عبده سواه . على أن أبا العلا كان لبقاً بارعاً ، واسعَ العلم بالفنّ ، محيطاً به من جميع أقطاره ، بقدر ما يتهيأُ لمصريّ من فهم أصول الغناء العربيّ . وكان إلى هذا على حظٍّ من الذّوق عظيم . ولكنه لم يُرزَق من حلاوةِ الصوت وكرم جوهرِه ما يُواتى كلَّ تلك المواهب ، فلم يَبرع ، وان جاد فى غِنائه ؛ ولكنه برع البراعةَ كلَّها فى تلحينه .

وإذا لاحظْت أن الذَّوق المصرى لا يستريح إلا إذا انتهت النغمةُ بتكريش الصَّوت ، والزَّرّ على الحَلق ، أو ما يدعوه أصحاب الغناء (بالعفق) ، قدرت براعة أبى العلا وجراءته فى الإقدام على تلحين هذه القوافى الصخرية من نحو :

وحقِّكَ أنت المنَى والطلَب   وأنت المرادُ وأنت الأَرَب

وَلِى فيكَ يا هاجرى صَبوةٌ   تحيَّرَ فى وصْفها كلُّ صبّ

ونحـــو :

واللهِ لا أستطيعُ صَدَّكْ ولا أُطيقُ الحيـاةَ بَعدَكْ

ولا شك فى أن الآنسة أم كُلثوم تعدّ اليوم من أفخر المغنيات والمغنين ، لا بجمال الصّوت وحده ؛ بل بسلامة الذّوق وجَودة الصنعة أيضاً . ولا أدرى لو لم تقع فى أول نشأتها فى طريق أستاذها أبى العلا ، أو لم يقع هو فى طريقها ، كيف كان يكون شأنُها فى الغناء ؟

فأبو العلا ، رحمه الله ، هو باعثُ فنّ عبده بتلحينه هذه القصائدَ والمقطوعاتِ التى تُصلصِل بها الآن حلوقُ أكثرِ المغنّين . إلى أنه خدم فنَّى الأدب والغناء جميعاً بما لَحَّن كثيراً من متخيَّر الشعرِ القديم والجديد ، على حين لم يُلحِّن أستاذُه عبده فى هذا الباب غيرَ قصيدة أبى فِراس (أراكَ عَصِيَّ الدَّمعِ شِيمتُكَ الصَّبْرُ) ، فان كان له سواها فما أحسَبه بالشيء الكثير .

ولقد مَضى صنيعُ الشيخ أبى العلا سُنَّةً دَرَج عليها الأستاذ المفتنُّ المبتدع محمد عبد الوهاب فى بدائع أمير الشعراء . وسيدْرُج عليها غيرُه فى نهضة الأدب الحديثة إن شاء الله ! .

تذييـــــل

عبده الحمولى

فى ٢٣ ابريل سنة ١٩٣٤ نشرت مجلة (الرسالة) للكاتب مقالاً طويلاً ختمه بحادث شهدَه بنفسه من عبده الحمولى . ولقد رأينا إثباته فى هذا المقام :

لم يكن يَتهيأ لفتًى حَدَثٍ مثلى أن يَسمع عبده الحمولى فى سُهولة ويُسر . فلقدكان ، فى العادة ، لا يُغنِّى إلاَّ فى بُيوت الطبقة (الأرستقراطية) ، ودونَ أبوابها لؤمُ الحجَّاب ، وعِصِىُّ الأَحراس . فما من سبيل إلاّ فى الغَفلة من أعينهم ، أو الرِّشوة فى أيديهم ، أو فى التَّسَلل أعجازَ الليل بعد مُنصرَف السادة المدعوِّين . وعلى بعض هذا أَذِن الله أَن أسمعَ مَلكَ المغنينَ بضعَ عشرةَ مرّة .

وبعد فعبدُه ، وتاريخُ عبده ، وفنُّ عبده ، وصنعةُ عبده ، وبدعُ عبده . كل أولئك غنىٌّ عن التعريف والتبيين . ولكننى أُبادر فأقرر أن صوت هذا الرجل على جَلالتِهِ وحَلاوتهِ ، ووفائهِ بكلِّ مطالب النَّغم فى جميع الطبقات ، لم يكن بالموضع الذى يَتمثَّل لأوهام من لم يَسمعوه من أهل هذا الجيل . بل إن من القائمين مَن لعلَّه يَجهَره فى هذا المعنى من الجمال . ولكن لا يذهب عنك أن من وراءِ هذا الحسَّ المرهفَ ، والذَّوقَ الدَّقيقَ ، والفنَّ الواسعَ ، والكفايةَ الكافية ، والقدرةَ القادرةَ على التَّصرُّف فى فنون النَّغم ، فى يُسرٍ ولباقةٍ وقوةِ ابتكار ، ورعايةٍ لوجوه المقامات المختلفة . والتوفيق إلى كل ما يَغمِز على الكبد . ألاَ لقد جمعَ الله أحسنَ هذا كلَّه لعبده الحمولى ، فلم ينتهِ أحَدٌ فيه ممن سمعنا منتهاه ، إذا استثنيتَ صاحبَه المرحوم محمد عثمان ، على اختلافٍ بين فنَّى الرجلين غيرِ قليل .



المرحوم عبده افندی الحمولی

(مستعارة من الاستاذ قسطندى رزق)

وإنى لأذكر أننى سمعته مرةً عند مطالع الفجر، وكان ذلك فى دار المرحوم السبكى بك فى شارع الطرقة الشرقى . ولعله كان قد مسَّه طائفٌ من الشَّجا، فكاد يُحيلُ العُرسَ مَنَاحةً من كُثْر ما تَبَادرَ لنغمه الشجىّ من دموع الناس !

أما الحادثةُ التى أوثرها بالرواية، فلقد كانت فى دار رجُلٍ من خُؤولتنا أولَمَ لتزويج ابنه . ودارُه تقع فى حىّ الناصرية . وكان صديقاً حمِياً للمرحومَين عبده افندى الحمولى، والشيخ يوسف المنيلاوى، وكان أثيراً عندهما كريمَ المحلّ منهما . وقد دعاهما كليهما ليغنِّيا معًا فى عُرس ابنه، فلبَّيا الدعوةَ خفيفَين .

وأنت بعدُ خبيرٌ بأن (أفراح) أولاد البَلد لا يُحجَب عنها الناس، ولا يدفعهم من دونها شُرَطٌ ولا أَحراس . وكذلك اكتظ السُّرادِق بالمئات، إن لم أقل بالآلاف من أصنافِ خَلْق الله .

ويستوى عبده إلى (التخت)، ويتدلّى فى المَيْدان يحمى ظهرَه الشيخ يوسف وأحمد حسنين، ونصر الحصَّاوى، عليهم رحمة الله، وشيخُ المغنّين الآنَ الأستاذ محمد افندى السبع، نعَّمهُ الله بأطيب الحياة، ومعهم السيد أَحمد الليثى بعوده (أو الجركشى لا أذكر)، وأمين افندى بُزَرى بنايه، وإبراهيم افندى سهلون بكمانه، ومحمد افندى العقَّاد بقانونه . فغنَّوا وعزَفوا ما شاء الله أن يُغنُّوا ويَعزِفوا، حتى أَتَوا على ما يُدعى (بالوصلة) الأولى . ولست أذكر ما تَغنَّوا فيه من الأصوات (الأدوار) . ثم استراحوا برهةً من الزمن عادوا بَعدها إلى شأنهم . وما بَرِحَ عبده، رحمةُ الله عليه، يَضطرب بين (الليل والعين)، ثم ينقلب إلى المواليا فيرجِّع فواصله ترجيعًا . حتى إذا فعل فى هذا كلِّه الأفاعيل، وصنع ما لا تَرتقى إلى صِفَته الأقاويل، أقبل يغنِّى، والجماعةُ معه، (الدور) المشهور وهو من نغمة العراق[١] :

(١) ينسب نظم هذا الدور إلى المرحوم اسماعيل باشا صبرى . ولكل من عبده وعثمان فيه لحن

« لسان الدّمع أَفصَح من بيانى وانتَ فى الفؤاد لا بُد تعـلم »
« هَويتك والهوى لَجْلكْ هوانى ولكنْ كل ده ما كانش يلزم »

إلى آخر ما يُدعَى فى عُرف أصحاب الغناء (بالمذهَب) . ثم أمسكَ القومُ لحظةً خرَج بعدها عبده منفرداً ، وقفّى العقّادُ على أثره بقانونه . وقال الجبّار : « أدينى صابر على نارى » !!!

لست بمستطيع يا معشر القرّاء أن أقول لكم كيف قالها الرّجل ولا كيف صنَع ؟ لأننى أنا نفسى لا أدرى ، ولا أحسب أحداً من الخلق دَرَى ، كيف قال الرّجل ولا كيف صنَع ؟ ! ولكننى أستطيع أن أقول لكم إن طائفاً عنيفاً جداً من الكهرُبا سَرَى فى هـذا الحشدِ كلِّه لم يَسلَم عليه أحَد : جَمَد الناسُ جميعًا ، وتعلّقت أنفاسُهم ، وشَلَّ كلُّ مناطٍ للحركةِ فيهم ، فما تُحِسّ منهم إلا أبصاراً شاخصة ، وأفواهاً مفغورة . لو اطاعتَ عليهم لخِلتَكَ فى مُتحَف يجمع دُمًى منحوتةً لا أناسىَّ يَترقرق فيها ماء الحياة ! حتى القائمون بالخِدمة ، لقد مَسَّهم هذا الطائفُ فجَمَدوا وثَبتوا ! وحتى رِدافُ[1] عبده ، لقد جرى عليهم من هذا ما جرى على سائر الناس ! ! !

ولقد ظلَّت هـذه الحالُ زُهاء عشرين ثانية ، أَعنى قَرَابةَ ثُلثِ الدّقيقة . وينفجِر البركانُ الأعظم يتطايرُ عنه الحَمَم ، وترى الخلق يموج بعضُهم فى بعض ، لا يدرى والله أحدٌ أين مَذْهَبه . ولا تسلْ كيف قُدّت الحناجرُ من الشهيق ، ولا كيف بُرِيَت الأكُفُّ بالتصفيق . وخرج الأمرُ ساعةً عن عُرسِ مقام إلى مُستشفَى مجانين ، رُفِعَت فيه الحوائلُ وفُتِّحَت الأبواب ، ونُحّيَ عنه أحراسه من الشُّرَط والحُجّاب !!!

---

(١) رداف جمع رديف : المراد بهم معارفوه .

تطوّر الموسيقى المصرية

فى العَصر الحاضر*

سيداتى . سادتى :

لستُ أثقل عليكم الليلةَ بنحوِ سيبويهِ ولا بلُغةِ أبى عُبَيدة ، لأننى لا أحدّثكم هذه المرّةَ بلسانِ أعرابىّ بشَمْلة . بل لقد أتدلَّى بالحديثِ إلى العاميَّةِ الخالصة ما اقتَضاها المَقام . وللعاميَّةِ أيضًا بلاغتُها ودِقَّةُ تصويرِها ، وخاصَّةً فى مثل بعضِ المقامات التى سأَعرِضُ لها بالحديثِ اليوم .

سأتكلّم فى هذه الأَغانى الشائعةِ الآن . ولا يظنَّنَّ أحدٌ أننى بهذا أنحرِف عن الحديثِ فى الأدب ، فالقولُ فى الاغانى إنما هو قولٌ فى صَميم الأدب . ولا تَنسَوا أن أغزرَ كتابٍ وأجمَعهُ وأكفاه صُنِّف فى الأدبِ العربىّ ، فأتَى على عُصارتهِ وعُيونِ روائعهِ من أولِ العلم ببلاغاتِ الجاهليةِ إلى غايةِ ثلاثةِ قُرُونٍ فى الإسلام ، إنما كان موضوعه الأغانى ، بل اسمه الأغانى ! .

وقبلَ أن أُمعِنَ فى موضوعى أخيِّر من عندهم منكم فَتياتٌ إحدى اثنتين : إما أن يَقفو (الرديو) بَتاتًا حتى يَنقضى الزّمنُ المقسومُ لحديثى ، وإما أن يَصرفوا عنه فَتياتِهم . على أنكم تستطيعون أن تَطمئِنوا من هذه الناحيةِ إلى ما قُبيلَ مُختتَم الحديث . وعلى أننى أستطيع أن أؤكّد لكم جميعًا أن فَتياتِكم جميعًا قد سمِعنَ هذا الذى سَأتمثّل به ، وسمِعنَ ما هو أنكَر منه وأكرَه . ولقد سَمِعنَهُ مُحسَّنًا مبهَّجًا لآذانهنَّ الكريمةِ بالتوقيع والتَّطريب ؛ بَينا أنا لا أعرِض منه ما أَعرِض إلاّ فى مَقام التّقبيح والتّهجين . فأنتم الآن بالخيار ، وقد أَعذَرت ، فاللهم اشهَد وأنت خيرُ الشَّاهدين !

---

* محاضرة ألقيت من محطة الأذاعة الحكومية فى مساء ١٦ يونية سنة ١٩٣٤ ، ثم نشرت فى جريدة (الجهاد) بعد ذلك :

وبعد ، فأرجو ألاّ يتهاوَن أحدٌ منكم شأنَ الأغانى ، على اختلاف ضروبها وألوانها . فالأغانى كما هى عَرَضٌ من أعراض الأمّة ، وتَرجُمانٌ صادقُ الأداء عن حالهــا وعقليتها ، ومَبعَثِ مواجعها وآلامِها ، ومُتناجَى آمالها فى الحياةِ وأحلامها ، فان لها كذلك لأثراً بعيداً فى بناء النّشْءِ وتربيتهم ، وفى تَسويةِ الأذواقِ العامّة . بل إن لها وَراءَ ذلك لَأثراً أبعدَ مَدًى يومَ تكون الجُلَّى ، ويومَ تُستنفَر الجَمهرَةُ للعظائم !

على أن أثر الأغانى ، فى هذا الباب ، لا يحتاجُ منى إلى بيان . فلقد طالمــا قال فيه أفاضلُ الأدباء وبيّنوا ، وأفاضوا فأجملوا وأحسنوا . وصَدَق المتقدِّمون حين قالوا : إن توضيحَ الواضحات من بعضِ المُشكلات . ولله أبو الطيِّب المتنبى حين يقول :

وليسَ يَصِحُّ فى الأذهانِ شىءٌ   إذا احتاجَ النّهارُ إلى دَليلِ !

*
* *

سيداتى ، سادتى :

لعلّ من الخَيرِ أن نَستعرِضَ حالَ الغِناء وما اعتراهُ من ألوانِ التطوُّرِ من قَبلِ ثلاثينَ سنةً خَلَتْ إلى الآن . وكيفما كانت الحال ، فان الغِناء المصرىّ قد صَرَف جُلّ همّه ، إن لم يكن صَرَف همَّهُ كلَّه إلى ترديدِ أحاديثِ الصَّبابةِ والهوَى ، وشِدَّةِ البَين وطولِ النَّوَى ، وألمِ الفِراقِ وحُرقةِ الجَوَى . والهُتافِ بالمحبوبِ فى حالَىْ إقبالهِ وإعراضِه ، وجِماحِه وارتياضِه . وإظهارِ الفَرَح بجميل لقائهِ ، والشكوَى من صَدِّه وطولِ جَفائهِ . ونحوِ هذا من فُنونِ المعانى التى ما بَرِحَ الغِناء المصرىُّ يَتصرّفُ فيهــا إلى الآن . أما العِنايةُ باصابةِ المعانى الساميةِ التى تَتَّصل بتربيَةِ

الأخلاق ، أو بتزكيةِ الأذواق ، أو بوصفِ الحالاتِ الاجتماعيَّة ، أو الإشادةِ بالوطنيَّاتِ جُملة ، فهذه لقد ألقاها الغناء المصرىُّ دَبْرَ الآذان ، إذا استثنينا أُنشودةً وطنيّةً ضئيلةً كان يَترنَّم بها صِغارُ التلاميذ عند مُنصَرَفهم آخِرَ النّهارِ من مدارِسهم ، والتى مطلعُها :

مِصرُ النَّعيمُ هىَ الوَطَن   وهى الحِمى وهى السَّكَن
وهىَ الفَريدَةُ فى الزَّمَن   فجَميعُ ما فيها حَسَن

ولست أَدرِى إن كانت أقلامُ الشُّعراءِ أو المتشاعرين أَرسلَت فى ذلكم العَصرِ غيرَ هذه الانشودةِ أم لم تُرسل ؟ وعلى كل حالٍ فما فى شىء من مثل هذا جليلُ غَناء !

والآن نَمضى إلى استعراضِ حال الغِناءِ فى مصرَ من قَبل ثلاثين سَنةً خلَت ، وما دخل عليه من التطوُّرات إلى هذه الغاية ، على أن يكون هذا فى إيجاز بيان :

لقد كان من عادةِ جماعاتِ المغنِّين ، قَلَّ من يَنحرِف منهم عن هذا ، أن يستفتِحوا (وَصلاتِهم) بالموَشَّحَة ، ثم ينفرِد رئيسُهم بمناداةِ الليلِ والعَين . ثم يَتَناول بعضَ المَوَالِى فيروح يُرجِّعه . ويَطوف به على فُنونٍ من النَّغَم . ثم يُردُّه على عَقِبهِ ويُفضِى منه إلى (الدور) ، يَشترِكُ الجماعةُ معه فى (مَذهبه) ، وينفرد هو بالتَّغَنِّى فى (غُصنه) ، إلاَّ أن يحتاج منهم إلى المعونةِ فى الترجيعِ والتَّرديد .

ولقد يُنشِد القصيدةَ فى أعقاب الليل ، ولقد يتغنَّى ، وكان هذا نادراً جداً ، فى المقطوعةِ التى يتكرّر على جميعِ وحَداتِها نفسُ اللَّحن ، وهى المعروفة الآن (بالطقطوقة) . ولا يزال المغنونَ التّقليديُّون يَصنَعون هذا كلَّه إلى اليوم .

وإنه لَيعزّ علىَّ أن أَنعِى ، أو إنى أكاد أنعى إليكم فنًّا جليلاً من فُنونِ الغِناء ، ألاَ وهو الموشَّحة . ولولا بقيةٌ لا تزال تستفتِح بالقديمِ المأثور منها أبوابَ الغِناء ،

لادرِجَت فى مَطَاوى التاريخ . ذلكم النوع الذى يحتاج فى تلحينه إلى أبرعِ البراعةِ ، وأحكَمِ الفنّ ، وأقوَى الصّنعة . وأين منّا ما لحّن عثمان[1] وأضرابهُ من نحو :

كَلّلى يا سُحبْ تيجَا ‌ ‌ ‌ نَ الرُّبَى بالحُلِى
واجْعلِى سِـــوَارَكِ مُنْعَطَفَ الجَــدولِ

أتَانى زَمانِى بما أرتِضى ‌ ‌ ‌ فَبِاللهِ يا دهرُ لا تنقضِ

مَلاَ الكاسَات وسَقَانى ‌ ‌ ‌ نَحيل الخَصْرِ والقَـدّ

وغير ذلك كثير .

ولا واللهِ ما أَرمى ملحّنى العصر بالقُصورِ عن مُعالجةِ مثلِ هذا ، بل لقد تهيألى أن أسمع موَشّحاتٍ قيمةً من تلحين بعض المعاصرين . ولكن ما كان الأمرُ إلى ملحّنٍ يقدِر أولا يقدِر ، إن مَرَدَّ الأمرِ كلّه إلى هوى الجمهُور . وإن شِئنا تعبيراً أدق ، قلنا إن ذلك إنما يرجع إلى هذا التّطور الذى يَتناول أسبابَ الحياة جَميعاً .

سيداتى ، سادتى :

أما نَصيبُ (الدّور) من هذا التطوّر ، فهو على أنه ما زال يَنظمُهُ الناظمون ، ويُلحّنه الملحّنون ، ويُغنّى فى قديمه وحديثهِ المغنُّون — إننى أراه ، على هذا كلّهِ ، قد أَنشأ يَتقلّص وَيذوِى غُصنُهُ ، ويهونُ خَطبُهُ ، ويُدبِر حظُّه . ولقد جَعل (المونولوج) يُدافعه شيئًا فشيئا . ويَحتلّ مكانه رُوَيداً رويدا . ولا أَحسبُ أن الزمن سيطول حتى يُصبح شأنُ (الدّور) كشأن الموَشّحة ، إن دَخلا فى الغِناءِ والتّطريب ، فعلى أنهما فنّانِ تقليديّان فحسب ، صُنعَ من يَبنى فى هذا العصر

(١) هو المرحوم محمد افندى عثمان المغنى . وهو أقدر الملحنين وأبرعهم كافة فى العصر الحديث وأكثر ما يردده المغنون الى اليوم من القديم ، انما هو من تلحينه .

دارَه أو بعضَ دارِه على طِرازٍ عربيّ أو فِرعَونيّ مثلا . وأكبرُ الحظ فى مثل هذا إنما هو التمليحُ والأغراب !

وهذا (المونولوج) ضَربٌ من النَّظْم لا أحسبُه كان معروفاً فى الغِناء القديم ، أو على الأقل إنه لم يكن شائعاً فيه . و يلحق بهذا (المونولوج) (الديالوج) وهو ما يَتطارح الغناء فيه اثنان ، و (التِّريالوج) وهو ما يتعاورُ الغناء فيه ثلاثة. وواضح أن هذا الأُسلوبَ الغِنائىَّ مما نضَح به علينا الغَربُ فى هذا العَصر الحديث .

*
* *

سيداتى . سادتى :

هنالك ضروبٌ أخرَى من التطوُّر فى أسبابِ الغِناء المصرىِّ أُلخِّص أهمَّها تلخيصاً رفيقاً :

١ — لقد كانت (الأدوار) والموالى ، فى الجملة ، أقوَى عبارة ، وأدقَّ صياغَة ، وأحكمَ نَسجاً . وما لها لا تكون ، والذى يَتولَّى نَظمَها هم السابقون الأوالى من أمثال الشيخ على الليثى ، و إسماعيل باشا صبرى ، والشيخ الدرويش ، ومصطفى بك نجيب ، ومحمود أفندى واصف ، ولِداتُهم من أئمة الأدب وأعيان البيان ؟ .

ولست بهذا أذهب ، لا سَمَحَ الله ، إلى القول بأن أُدباءنا اليومَ قاصرون عن الإِتيانِ بمثل هذا أو بما هو خَيرٌ منه . بل الواقعُ أن هذه الفنون أصبحت فى تَقلُّصِها و إدبارِها ، فلم يَبقَ لهـا من جَلالةِ الشأنِ ما يَستدرجُ أعيانَ البيان لمعاناتها وعلاجِها ! .

٢ — شُيوع المَرارةِ والألم فى أناظِيم الغِناء الحديثة ، حتى لا نكاد نسمع منها إلاّ الأَنين والزفير ، والصُّراخَ والعويل . ولا تكاد ترى فيها ، لو تمثّلتْ لك

خلقاً يُرى ، إلاّ الدمعَ السائل ، واللَّوْنَ الحائل ، ولَدْمَ الصُّدور ، وشَدَّ الشعور ، والتّقوُّضَ على الأعتاب ، وتمريغَ الخُدودِ فى التُّراب ، وغير أولئك من ألوانِ الذِّلّةِ والهَوانِ والعذاب ؟

نعم ، إن حديثَ العِشقِ والصَّبابةِ لا يَنبغى أن يخلوَ من هذا ، فهو جارٍ فى طبيعةِ العُشّاق . ولكن موالاةَ الحُزن ومتابعةَ الأَسى الدَّهرَ الأَطولَ مما يتجاوز مَدَى الاحتمال !

على أنه قد كان إلى جانب (الأدوار) الشاكيةِ الباكية ، ولكن فى رِفقٍ وحُسنِ تأميل مثل : لسان الدَّمع أفصح من بيانى — فى البُعد يا ما كنت أنوح — كادنى الهوى وصبحت عليل — أقول لقد كان إلى جانب هذه الأَدوار أدوارٌ يَشيع فيها الفرَح وتَقطُر منها البهجة من نحو : اليوم صفا داعِى الطرب — متّع حياتك بالأحباب ، أنسك ظَهر — يا وصْل شرّف يا جَفا رُح عَنا ، خَلى الحبايب بالحياة تتهنّا — أفراح وصالك تدعى الناس ، للائتناس ، والخير على قدوم الواردين — يا طالع السَّعد افرح لى ، دا الحِبّ رَحْ يوفى بوصله . وغير ذلك كثير .

ولقد يكون مَرجعُ هذا إلى ما يَطوف بالعالم هذه السّنين من طوائفِ الهمّ والكَرب والضيق . ولكن ذلك لا يُعفى الناظمين على أى حال . فهم إن تَرْجموا بهذا عن الحال العامّة ، فعليهم إلى جانب ذلك أن يُرفِّهوا عن الناس بعضَ الشئ ، ويَتراءَوا لهم ولو بصُبابات من المُنى ، فالناسُ فى جَهدهم هذا أحوجُ ما يكونون إلى التّرْفيهِ والتأميل ! .

٣ — وهو الأدخَلُ فى الموسيقى والأَوصَلُ بها ، أَلاَ وهو التطوُّر الشديد فى التلحين . ولستُ أدَّعى العلمَ بالموسيقى ، بالقَدْرِ الذى يأذن لى بأن أُفيض القولَ

فى هذا البابِ منها ، فذلك من شأن من تَحرَّروا لهذا وحَذَقوه . ولكن لا أظن أننى أَفتئِتُ على الفنّ إذا زعمتُ أن الغناء المصرىّ إنما كان يتصرَّف فى قَدرٍ محدودٍ من فنون النغم ؛ على أنه كان يتصرَّف فيها فى براعةٍ وقوةٍ وسَلامةٍ تكاد تُشعِر المصرىّ أن هذا الغناء الذى يرِد على سمعِه ، إنما هو صَدَى ما يَجرى فى طبعه ، وأنه لو كان خُلِّىَ إلى نفسه لقال هذا الذى سمِع . وهذا الذى يَدعونه السهلَ الممتنع .

أما فى العهد الأخير فقد أغارت الموسيقى المصريةُ على الموسيقات الأُخرى ، فسَبَتْ كثيراً من أنغامها ، فاتسعت بذلك رُقعتُها ، وكَثُرتْ دروبُها ، وتشعَّبتْ طروقُها . و إذا كانت الآذانُ أو بعضُ الآذانِ لم تسترح إليها إلى الآن ، فلعلّ ذلك لأنها ما برحت فى طَورِ الترويض والتذليل . ولا أَفسَح فى جوانب القول ، فاننى أكره أن أذكىَ الفتنةَ بين أنصارِ القديم وأصحاب الجديد !

وهنالك بعضُ التطوُّرات الأُخرى أرجئُ الكلامَ فيه إلى الشّقّ الأخير . وهو المقصودُ فى الواقع من كل هذا الحديث .

سيداتى ، سادتى :

بقى الحديثُ فى تلكم المقطوعاتِ التى شاعت فى هذا العصرِ شُيوعًا هائلاً ، وأمست تُردَّد بكثرةٍ عظيمةٍ حتى على ألسنةِ كبارِ المغنّينَ والمغنّيات ما مُهِّدَت لهم مجالسُ الغِناء . ولا شكَّ فى أنكم عرفتم أننى أَعنى بها ما يُدعَى فى العُرف العامّ (بالطقاطيق) .

واسمحوا لى أن أقول لكم إننى ، من الجهة القومية ، أصبحتُ أحتفِل للكلامِ فى (الطقاطيق) أكثر من احتفالى لأىِّ ضربٍ آخرَ من ضُروبِ الغِناء !

نعم ، لقد أصبحتْ منى بهـذا الموضـع لأنها فى الواقع الأُغنيَّةُ الشَّعبيَّةُ التى تُردِّدُها حُلوقُ الجميعِ فى هذه الأيّام : يردّدُها الرجالُ فى مجالِسهم ، كما تردّدُها السيداتُ فى خدورِهنّ ، ويردّدها الشبّانُ والشابّات ، والفِتيانُ والفَتَيات ، والأطفالُ والطّفلات ، كلُّهم يردّدُها على اختلافِ المنازلِ وتفاوُتِ الثقافات ! فاللهم إذا كان لشىء من فُنونِ الغِناء أثرٌ شَديدٌ أو ضعيف ، قريبٌ أو بعيد فى تكوين الأخلاق ، وتربيةِ الأذواق ، والدلالة على ثقافةِ أُمةٍ واتجاهِ مُيولها ، فهو ولا شك لهذه (الطقطوقة) أكثر من أىّ شىء آخر .

وإننى أرجوكم أولاً أن تُقلّبوا النظرَ فى هذه (الطقاطيق) التى تُطَرون بها كلّ بَكرةٍ وكلّ عَشِىّ . إذن فلستم واجدين فى أكثرِها الكثيرِ إلاّ كلّ رذلٍ وسمِجٍ وسخيفٍ وباردٍ من الكلام !

حدثونى بعَيشِكم : أىُّ غَرَضٍ من مِثل هذا الذى تسمعون كلّ يومٍ وكلّ ساعة . وأىُّ مَعنًى فيه ، وأىُّ مَغزًى له ؟

وهنا أرفع شارة (الخَطَر) ، ليأخذَ من شاء الحذَر :

اللهم إن كان يُطلَب بهذا الهُراء من القولِ معنًى أو يُسْتشرَف به إلى مَغزًى ، فهو تصويرُ عقليةِ هذه الأُمةِ الكريمةِ أَقبحَ الصُّور وأنكرها . بل إن من بين هذه الأُغْنيَّاتِ لما يَسعَى جاهِداً إلى إشاعةِ الفاحشةِ فيها !

لقد كانت (الطقاطيق) تُغَنَّى فى القديم . وكان أكثر من يَصطنِعها ويُردّدها جماعات (العوالِم) فى أعراس الطبقة الوُسطَى وما دونَهـا . على أنها كانت ظريفةً خفيفةً على السمع ، عَفّةً بريئةً من فُحشِ القول . فان هى شذّت فى القليلِ النادرِ جداً . فشذوذُها لا يصل بها إلى هذا الذى يدعونه الأدبَ المكشوفَ على أىّ حال ! على أن أَعلامَ المغنِّينَ كانوا يُردّدون فى قليلٍ من الأحيانِ

المقطوعاتِ التى تتّسق فى ألفاظها ومعانيها لأخطارِهم وجلالةِ محلّهم . وإذا كان قد غنّى فى بعضِ تلك (الطقاطيق) النسائية ، فان ذلك منه إنما كان على جهة التّطرُّفِ والتّمليح !

*
* *

سيداتى ، سادتى :

اسمحوا لى بأن أبيّن الفرقَ بين أغانى الرجالِ جملة ، وأغانى النساء جملة . وهذا الفرقُ وإن دَقّ وصغُر فان له أثرَه البعيد : فأغانى هؤلاء يُغتفَر فيها من الطّراوة والرّخاوة ما لا يُغتفَر فى أغانى الرجال، سواء أكانت تلك الطّراوةُ والرّخاوةُ فى اللفظ أم كانت فى طريقة الأداء . ولهذا ساغ للسيدات أن يغنّين جميع أغانى الرجال ، فى حين لا يسوغ لهؤلاء أن يتغنّوا بكلّ ما يتغنّى به السيدات . لأنه إذا جاز للمرأة أن تشتدّ وتَعنُف ، ولقد يكون ذلك جميلاً منها فى بعضِ الأحيان — فقبيحٌ كلُّ قبيحٍ بالرجُل أن يَسترخى ويتكسّر ويتفكّك ويتزايل ، والعياذ بالله تعالى ! .

وإن أَعجَبْ لشىء فى هذا البلد ، فعجبى لأن الكثرةَ الكثيرة من مُغنّياتِ الطبقةِ الأولى يغنين غِناء قوياً مستمسكاً لا أثرَ فى نبراته لتميُّع ولا لاسترخاء . وتأبَى حلوقُهنّ إلاّ أن تُرسلَ الخالصَ الجوهرىَّ من حُرّ الكلام ، فى حين نسمَع رجالاً ، رجالاً عِدَّةً مجتمعين ، أَعنى فِرقةً بأسرها . مَن لم يُشعِل الشيبُ منهم رأسَه ، فلا أقلّ من أن له أولاداً مميّزين ، لعل فيهم من ارتقى إلى المدارس الثانويةِ بَلْهَ العالية — هؤلاء الرجالُ لا يتأثّمون من أن يُغنُّوا على أَملاء الناس : (لابسة الدّواق ليلة الزّفة ، فرحانة بالدخلة ... وخايفة الخ ...) . يا للفضيحة ... ويا لانخذال الطباع ! ...

وبعد ، فهل هذا كلامٌ يليق بالرجال ؟ لا والله ولا يليق بالنساء !

ولا يكفى هذا ، بل يُؤبَى إلاَّ أن يُطبَع فى (اسطوانات) تَذيع فى الشرق والغرب ، ويَصيح بها (الرديو) فى كل مكان !

لقد أفهم ، يا سيداتى وسادتى ، أن تُغنِّى سيدةٌ فى السيدات : (مبروك عليك عريسك الخِفّه ، يا عروسه يا زاينه الزفة) مثلاً . لكننى لا أتصوّر ، ولا أُطيق أن أتصوّر ، أن يَتمثّل للمِذياع سبعةٌ أو ثمانيةٌ من شبابنا الناهض ، فيتغنَّون فى تكسُّر صوت واسترخاء نَبرة ، مبالغةً فى المحاكاة والتقليـد : (مبروك عليك عريسك الحِيلة .... تهنوا وتمتعوا الليله ....) يا ساتر ! يا ساتر ! يا دافعَ البلاء ! اللهم ارفع مقتَك وغَضبك عنا ! . ثم لا يتحرّج الفحلُ منهم أن يزغرد كما تزغرد مساعداتُ المغنّية . وذلك منهم كذَلك لإحكام المحاكاة والتقليد !!! .

*
* *

سيداتى ، سادتى :

ليس والله أَفتكَ بالأخلاق ولا أعصفَ بالآدابِ من شُيوع مثلِ تلكم الأغانى الخبيثة المائعة ، وخاصةً على ألسنة الرجال . وإنها لحقيقةٌ بأن تُشيع فى فِتيانكم انخذالَ النفْس ، وتزايُلَ الخُلق ، واسترخاء الطَّبع ، وتدُكَّ مكان الرجولة فيهم دكاً . وإننى بايراد هذه المترادفات إنما أُحاول أن أؤدى ما تؤديه اللفظةُ المقسومةُ لهذا المعنى ؛ ولكننى أَرفَق بأَسماعكم ، وأشدُّ إجلالاً لكم من أن أُحمِّلها جناحَ الأثير ، فتسلكَ جميعَ الدُّور ، وتَقتحمَ الخُدورَ على ربّات الخُدور ! .

وليست الجنايةُ فى ترجيع مثل هذه الأَغانى مقصورةً على فِتيانِكم رجال الغَد ، بل إنها لواقعةٌ أيضاً على فَتياتِكم أمّهاتِ المستقبَل . فتياتكم اللائى يَفرِض عليهن

الوطن ، إذا ما شَبَبْن وأصبحنَ ربّاتِ بيُوت ، أن يُنَشِّئْن الطِّفل ، أعنى وديعته بين أيديهنّ ، على الفضيلة ، وأن لا يَتعاظَمهنّ جُهدٌ فى إعدادِه ليكون ، إذا شَبَّ وكَبِر ، رَجلاً تامّ الرجولة .

* * *

سيداتى ، سادتى :

إن لبلادكم آمالاً عِراضاً فى جميع نواحى الحياة . وهيهاتَ أن تَنالَ أَيسرَها مطلبًا إلاَّ على أيدى رجالٍ صِحاحِ البُنَى ، مِتانِ الأخلاق ، شِـدادِ النفوس صِلابِ الطِّباع .

والأمرُ الآن إليكَ أيها الشعب ، فقل كلمتَك ، وامضِ فى شأنِك حكمَك . واللهُ موفقُك وهاديك سواء السبيل .

فى الأغانى المصرية*

لقد شاعت فى هذه السنينَ مقاطيعُ الغناء المعروفة (بالطقاطيق) ، وهى من فاترِ القول وساقطِ الكلام . لا يَرِنّ فى أُذنك فيها لفظ ، ولا يَتشرّف على نفسك منها معنى . فأمّا ما يَجرى منها على ألسنة الفِتيان ، فكلّه خَوَر وتكسُّر وآستخذاء هيهاتَ أن يَنتهِضَ معها للفتى عزم ، أو يشتدّ له طبع . وأمّا ما يتصَلصَل منها فى حُلوق البنات ، فكلُّه خَنًى وعُهر ، وكلُّه استرسالٌ فى الفتنةِ إلى آخر المَدَى ، وكلُّه تدريبٌ على عِصيانِ الآباءِ فى طاعة الهوى ! (أنا لما استلطَف ما يهمّنى بابا) ! وكلُّه لا يَرفع الأمَّ عن مكان القيادة ، بما يَقتضيها أن تَفسَح فى جوانبِ الحِيَل لتجمَع بنتها بهواها ، وتبلغها أخسَّ مناها : (هاتى لى حِبّى يا نينه الليله) !

وهناك ما هو أَوصَلُ من هذا بالتعهّر وأعرق فى أبواب الفحش ، مما إن صُنتُ عينَك عن قراءته ، فلا سبيل إلى أن أصون أُذنَك عن استماعه فى الملاهى ، وفى الشوارع ، وفى أجواف المقاهى ، وفى أَكسارِ الدور ، ترجّعه بنتُ الشريف على نبرات (البيانو) ، وتوقّعه بنتُ الوضيع على نقرات الدّفّ .

وهذا ، لَعمرُ الله ، شرٌّ كثير . وأىُّ شرٍّ أبلغُ من أن يُطبَع الأبناء على ضَعفِ الهمّة ، وخِذلانِ النفْس ، وخَنَث الطّبع . وأن تُطالَع أنفسُ البناتِ ، فى شباب السِّنّ ، بهذه المعانى الخسيسة ، وتُستدرَجَ أحلامُهنّ إلى تلك الأَغراضِ الوضيعة . إلى ما يَجرِى على ألسنتهنَّ من تهاوُنٍ لأَقدارِ الآباء ، وعَبثٍ بوقارِ الأُمهات ! .

ولقد كانت دورُ (السينما) تَعرِض من حِيَل اللُّصوصِ والقَتَلةِ ، وأسباب غدرهم وفتكهم ما بَعَث الحكومةَ على مراقبةِ ألواحِها ضناً بأحلام الفِتيان ، وعِصمةً

* نشرت فى جريدة « السياسة » تحت عنوان « ليالى رمضان » سنة ١٩٢٦

لاخلاقِهم من أن يَشيع فيها الفسادُ بحكم المحاكاةِ والتقليد . وهى على كلّ حال دورٌ مقصورةٌ لا يَغشاها إلاَّ القليلُ بالقِياسِ إلى سائر الناس . إلى أنها لا تقوم إلاًّ فى المدنِ وحواضِرِ البلاد — فكيف بهذه الأغانى وهى تَطير إلى الناس من كل جانب ، وتَملك عليهم أقطارَهم من جميعِ المذاهب ، وتسلُك الأكواخَ وتقتحِم القصور ، ولا يَسلَم على أذاها حتى المكفوفاتُ فى الخدور . فأنَّى دارت الآذان ، سَمعتْ صَلصلتَها من كل حلق وجَلجلتَها على كل لسان ! .

وإن شَطَطاً تكليفُ الحكومةِ أن تنشُر فى الشوارِع والدورِ شُرَطَها وعَسَسها ليقبِضُوا على أصحاب هذه التلاحين ، كما يَقبِضون على المتّجرين فى الكوكايين . ويُصادِروا كلّ ما فى الأَفواهِ من هذه (الطقاطيق) ، كما يصادرون ما فى الجيوب من تلك المساحيق — فذلك مما لا يَتّسع له الذَّرع . والمَخلَصُ أن يَنهَض جماعةٌ من أئمة الأدب وأعلامِ الموسيقى ، فيدافعوا هذا الوباء ، ويُداووا بالتى كانت هى الدّاء ، فينظِم أولئك ما يخفّ على السمعِ من معانٍ شريفة ، فى ألفاظٍ حُلوةٍ لطيفة ، تَبعثُ الهِمم ، وترفع الأُنوفَ إلى موضِع الشَّمم . ويُخرجها هؤلاء فى تَلاحينَ تُثير الطربَ وتهزّ الأَريحيةَ هزّا ! .

* * *

وبعد ، فتا لله ، لو كان لى بعضُ ثروة (فلان) باشا لأَجريتُ على هذه الجماعة من مالى ما يُغنيها ويَتضمَّن لها طولَ الحياة . فاذا شَقّ هذا على النفْس ، فحسبهُ أن يَفتح الباب ، ويبدأ قائمةَ الاكتتاب . فاذا شَقّ هذا على النفْس أيضاً ، فانى أرجوه أن يدعوَ إليه كلاًّ من رُصَفائِه (فلان) باشا ، و (فلان) بك ، والسيد (فلان) ، فيقرأوا (العِدّية) ، على هذه النية . فما برِحت المشروعاتُ القوميةُ تقومُ ببركةِ أسمائِهم ، وتَنجحُ بحسنِ توسُّلِهم ودعائِهم . اللهم آمين ! ! ! .

التجديد والمجددون*

سيداتى ، سادتى :

أتحدَّث إليكم الليلةَ فى التَّجديد والمجدِّدين ، فاننا الآن فى شِبه ثَورة ، بل فى ثَورة بالقديم من الآدابِ والفُنُون : فهناك ثَورةٌ فى البيان ، مَنظومِه ومَنثُورِه ، وهناكَ ثَورةٌ فى الموسيقى ، وهناك ثَوراتٌ فى غيرِهما من الفُنون . وكلٌّ أولئك إنما يُعبَّر عنه بالتَّجديد ، ويُعبَّر عن المُضْطلِعين به بالمجَدِّدين . وإنى لَأَخشَى فى التعبير بكلمة (الثَّورة) أن أكون من المتجوِّزين ! وقبل أن أخوض فى لُجَّةِ الموضوع ، أرجو أن تَأذنوا لى فى أن أعرِضَ عليكم نَمُوذجًا مما سَلَفَ لى من الرأى فى هذا الباب ، وأرجو أن يكون كافيًا فى استراحة إيمانِكم إلى أننى لستُ من الجامدين المتشبِّثين بلزوم القديم . بل إننى لَأَطمعُ فى أن يُقنعكم بأننى من أشدّ أنصار التَّجديد والمجدِّدين ، ولكن على صورةٍ أُحبّ أن يَتفطَّن إليها بعضُ هؤلاء المجدِّدين !

قلتُ من رسالةٍ فى الذكرَى الثانية لوفاةِ أميرِ الشعراءِ المرحوم أحمد شوقى بك :

« إذا كان من آياتِ الحياةِ فى الكائناتِ تطوُّرُها ونُموُّها وتجدُّدُها ، فالأدب . ولا شك ، من هذه الكائنات التى لا تُكتَب لها الحياةُ إلا على التطوُّرِ والنُّموّ والتَّجديد ، وإلا كان ميتًا ، أو أشلَّ على أيسر الحالين !

« ولكننى أُحبّ أن أَلفتَ النظرَ فى هذا المقام إلى مسألة قد تَدِقّ على أفهام الكثيرِ أو القليل . وتلك أن هناك فرقًا بينَ التربيـةِ والتجديد ، وبينَ المسخ والتَّغيير . ولستُ أجد مثلاً أسوقُه فى هذا البابِ خيراً من حياةِ الطِّفل وحياةِ النَّبات : كلاهما يَنمُو ويربو ، وكلاهما يَطول ويَزكُو ، حتى يبلغ الحدَّ المقسومَ لكماله .

* محاضرة ألقيت من محطة الاذاعة المصرية فى مساء السبت ١٥ من فبراير سنة ١٩٣٦ ونشرت فى مجلة الهلال فى عدد مارس من السنة نفسها

وقد تتغيَّر بعضُ مَعَارفه ، وقد تَحُول بعضُ أَعراضه ، ولكنه فى الغاية هو هو لا شىء آخر ، فحسَن الوليد ، هو حسَن الطِّفل ، وهو حسن الفَتَى ، وحسن الشابّ ، وهو حسن الكَهل وحسن الشيخ . وتلك الفسيلةُ الصغيرة ، هى النَّخلة الباسقة . كلٌّ نمَا ورَبَا بما دخل عليه من الغِذَاء ، وما اختلف عليه من الشّمسِ والهواء .

« لقد أَصابَ كلٌّ منهما ما أَصابَ من أَسبابِ التَّزكيةِ والإِرْباء ، فاحتَجَز منها ما واءَمَه وما تعلَّقت به حاجته ، ونَفَى عنه ما لا خيرَ له فيه ، ولا حاجةَ به إليه ، ثم أساغ ما أمسكَ وهَضَمه ، فاستحال فى جسم الفتى مثلاً دمًا يَجرى فى عِرْقهِ ، ولحمًا وعظمًا يَزيدانِ فى خَلْقهِ » .

« ولا شك فى أن لأدبنا العربىِّ عناصِرَ وله مُقوِّمات ، وله شخصية بارزة مُعيَّنة ، فمن شاء فيه تجديداً — وحَتْمُ الحَتْمِ على القادرينَ أن يُجدِّدوا — فليتقدَّم ، ولكن من هذه السبيل » .

*
* *

سيداتى ، سادتى :

لَعلى أطلتُ عليكم فى دفاعى عن نفسى وإثباتِ براءتى من الجُمود والجامدين ، ولكن مما يَشفَع لى عندكم فى ذلك أن هـذا الدفاع قد صَرَّح لكم فى الوقتِ نفسِه عن رَأيى فى التجديدِ والمجدِّدين . وهذا ، ولا شك ، وثيقُ الصِّلة بالموضوع الذى عَقَدنا له هذا الحديث .

عرَفتم إذن أننى لستُ ، والحمد لله ، من الجامدين العاضِّين بالنَّاجذِ على كل ما هو قديمٌ لأنه قديم ، وعرَفتم كذلك أننى أَرَى وجوبَ التجديدِ لأن طبيعةَ الحياةِ تَقتضيه . بل إن التطوُّرَ والتجدُّدَ من علامات الحياة ، على ألاّ يكون هذا التَّطويرُ والتَّجديدُ ضَربًا من المَسخِ والتَّشويه !

وبعـد ، فالمقام ما بَرِح مُحتاجًا إلى شيء من البَسْط والتَّفصيل . فَلنَمْضِ ، على اسمِ الله ، فى مُعالجةِ هذا البيان بقدرِ ما يَتَّسِع له الوقتُ المقسُوم .

تعلمون ، أيهـا السادة ، أن العلومَ ، على وجه عامّ ، إنما تَسْتَمِدّ قضاياها من العقلِ والتَّجارِب. أمَّا الفنونُ الجميلةُ على وجهٍ خاصّ ، فان استِمدادَها فى الجملة من الذَّوْق ، فهى من الذَّوقِ تَنْشأ وإلى الذَّوق تَعود والذوق شىء ليس فى الكتب .

وإذا كانت العقولُ الصحيحةُ قَلَّ أن تختلِف بإزاءِ الحقائقِ الواقعة باختلاف الأشخاصِ أو البيئاتِ والعُصُور ، فان الاثنين مثلاً ضِعْفُ الواحِد ، وزوايا المثلث تُساوى قائمتين . وهذا فى كل زمانٍ وفى كل مكان . إذا كان هذا هكذا ، فان الفنون التى مَرَدُّها إلى الذَّوْق ، أعنى الفنونَ الجميلة ، تَفترق افتراقًا قد يكون يَسيراً وقد يكون شَديداً . طَوعًا لاختلافِ الأشخاص والعُصُور والبِيئات . فما يُعجِب قومًا ويُلذِّذهم ويُشِيع الطَّربَ فيهم ، لقد يَنشُز على أذواقِ آخرين ويُدخِل الضَّجَرَ عليهم ، بل لقد يزعجهم ويُغثِى نفوسَهم .

ذلكم بأن حاجةَ الأذواق ليست من آثار مَنطِق العقل ، ولا هى وليدة الحقائقِ الواقعةِ حتى تَشترِكَ الخلائقُ على اختلاف أصنافهم وأعصُرِهم فى تَقبُّلها والتسليم بها . بل إنها لَوَليدةُ البِيئةِ والتاريخ ومَأثورِ العادةِ والإِلْفِ الطويل . ولا شكَّ فى أن من عناصرها المهمةِ كذلك حظَّ الأمـةِ من العلمِ والثَّقافة ، ولونَ هذه الثقافة ، ومَبْلغَ الأمة كذلك من دِقَّة الحِسِّ ورَهافةِ الشُّعور .

من هُنا كان لكل أُمةٍ أدبُها ، وكان لكل أمةٍ موسيقاها ، وكان لها غيرُ هذين من ألوانِ الزُّخرُفِ والتَّصوير ، وغيرِ الزُّخرف والتصوير ، من كل ما يَدخُل فى معنى الفنِّ الجميل . فليس من حقِّ جماعةٍ أن تقول لأُخرى : إن هذا الأدبَ الذى تَصطنعين لا يُتَرجِم حقَّ التَّرجمةِ عن شُعورِكِ ، ولا يُواتى مَنازِعَ عواطِفِكِ،

أو إن هذا اللونَ الذى تتّخذين من الموسيقى لا يُوائم ذَوْقَك . ولا يُلذّ ذلك و يُدخِل الطَّرَب عليك . ذلكم بأن مَظاهرَ هذه الفنون إنما هى أُمورٌ نِسْبِيَّة ، لا تكاد تَتَّصلُ بأحكام العقل أو الواقع، خِلافاً لقضايا العلوم، وقد تَقدَّم فى ذلك الكلامُ .

*
* *

لـكُم بعد هذا أن تَسألونى عن كيفيَّة التجديد إذن وعن مَدَى آثار المُجدِّدين ؟ والواقعُ أنه حين يَعرِضُ هــذا السؤالُ تَعرِضُ للنَّفس مسألةٌ أُخرى : تُرَى آلأذواقُ هى التى تؤثّر فى الفُنون ؟ أم الفنونُ هى التى تؤثّر فى الأذواق ؟

لقد سَبَق القولُ فى أن مَنْشأ الفنونِ الجميلةِ إنما هو الذَّوْقُ أولا ، وهى إنما تُصطَنَع لتنعيم الذَّوقِ وتَلذيذهِ آخراً . فهى منه تَبدأ و إليه تعود . ولكن ليس معنى هذا أن الفنونَ لا أثر لها ألبتةَ فى تكييف الأذواق . بل إنى لَأزعُم أنه قد يكون لها فى بعض الأحيانِ الأثرُ البعيد . إذن فهناك تَفاعُلٌ من الجانبين ، أعنى بين الأذواقِ والفنون . ونحن إذا عَبَّرنا فى هذا المقام بكلمة « الفنون » فمن الواضح أننا إنما نريد أَثرَ المفتنِّين . أو على الصحيح أثرَ العَبقريين من جماعات المفتنِّين .

ومن الجلىّ أن العبقرىَّ هو الذى يرتفع على مجموع قومه ، وأحياناً على أهل عصره فى صِفَةٍ أو فى أكثرَ من صفة ، بحيث يَتهيأ له أن يُدرِكَ فى بعض الأَمر ما لا يُدرِكون . ويَشْعر بما لا يَتعلَّق لهم به حِسٌّ ولا شعور . ولْنَقصِر الحديثَ على عباقرة المفتنّين ، ما دام الحديثُ فى الفن والمتفننين .

المفتنُّ الموهوبُ إنسانٌ أُوتى كمالَ الذَّوق ، ودِقةَ الشُّعور ، ورَهافةَ الحِسّ ، وحِدّةَ العاطفة ، والقدرةَ القادرة على الأَداءِ والتَّصوير . وليس يُشترَط فيه أن يكون واسعَ العِلم غَزيرَ المادَّة ، بل بِحسبِه أن يُحصِّل من قضايا فنه صَدْراً لا يَزِلُّ معه ولا يَضِلّ .

ولقد قلنا إنه يَسبِق بتلك المواهب جَمهرَةَ قومِهِ . ولقد يَسبق أهلَ عصره ، إذ تَهديه فِطنتهُ إلى أشياء لم يَفطُنُوا لها ، وتُذيقه رَهافةُ حِسّهِ ألوانًا من الشعور لم يَتذوّقوها . فينفُضُها بما رُزِق من براعة الأداء كما أحسَّها . ويحاول أن يُذوّقها غيرَه كما تذَوّقها . وكذلك تَزيد ثروةُ الفنون وتُشحَذ الفِطَن ، وتُرهَف الأحاسيس على اطّراد الأيام .

نعم ، لقد ينصب بعض هؤلاء العباقرة للعدول بالفنّ عن مذهبه ، وقد يَقلِبه رأسًا على عَقِب . وتلكم هى الثورةُ بعينها . والثوراتُ كما تعلمون حالاتٌ شاذّةٌ لا يَنبغى أن تَجْرى على مظاهرِها الأحكام العامّة .

وكيفما كان الأمر ، فان ما تجئُ به الثوراتُ إما أن يَختفيَ ويزولَ جُملةً بعد الدَّعة والاستقرار ، وإما أن يَتخلّف منه صَدرٌ تَرى الطبيعةُ أنه صالحٌ للبقاء . وهذا القَدْر ، بالنسبة إلى الفنون ، مهما يكن فى مبتدأ الأمر نابيًا عن بعضِ الأذواق، فان مما لا شكّ فيه أنه مع طولِ الزّمن وكثرة تقليبه على الذِهنِ أو السَّمعِ أو البصر، وانعقادِ الإلف ، تَتكيَّف به الأذواق وتَتلوَّن . ولقد يكون تَكيُّفها به وتلوّنها إلى حدّ بَعيد .

بقِيَتْ مسألةٌ دقيقةٌ أُحبّ أن يُجيلَ الرأىَ فيها سادتُنا المتصدّون للتجديد شعراء كانوا أم كتابًا أم موسيقيين أم مصوّرين . وهذه المسألة أن المرءَ مهما يكن على حَظّ من المواهب ، وخاصّةً فيما يتعلّق بالأذواقِ والعواطف ، فانه ولا بد مُتأثرٌ، بقدر غير يسير، بالبِيئَة التى دَرَج فيها، وبعادات قومه، ومنازع عواطفهم وما أَلِفوا بطولِ الزّمن ، وغير أولئكم مما انحدَر إليهم من التّاريخ البعيد . هو متأثرٌ بكل هذا حتى لَيكاد يتصل بطبعه وغريزته . فالأصلُ فيه أن يُحسّ الأشياء كما يُحسُّها قومه ، وأن يَذوقَ ألوانَ المعانى كما يتذوّقها مَعشَره . وذلكم بحكم ضرورةِ

الاشتراك ، فى الجملة ، فى عناصرِ تكوينِ الذَّوق العام . فهو على هذا إذا ابتَدَع طريفًا ، واستَحدَث فى الفنّ جديداً ، ففنُّ قومه القائمُ هو ولاشك أساسُ ابتداعِه ، ومِلاكُ ابتكارِه واختراعِه .

وهذا إلى أنه إنما يَسعَى فى هذه السبيلِ سَعيَه لِيرَفِّه عن قومه أولاً ، وليَنعِّمهم ويُدخِل الطربَ والسرورَ عليهم . فينبغى له بالضرورة ألاَّ يُسقِط من حسابِه فى تجديده ألوانَ عواطفهم ، وما تستريح إليه من صُوَرِ الجمالِ أذواقُهم .

نعم ، لقد تَفتُر الأذواقُ فى مبتدأ الأمر عن الجديد . ولكنها سَرعان ما تَألَفه وتَتذوَّقه وتَلتذُّه ، ما دام يَمُتُّ إلى فنّ القوم بسبب ، ويُدْلِى إليه بِنَسب . ولا حرج على المفتنِّ ، بل إن من واجبه أنه إذا حَرَّك عواطفَه ، وهَزَّ مشاعرَه شئ من آثارِ فنون الأُمم الأُخرى — أن يبادرَ إلى اقتناصه ، ويُسرِعَ إلى معالجته بالتَّسويةِ والتَّثقيف ، حتى يَتَّسِق لفنّ قومه ، ويُطبَع بطابَعهم ويسوغ فى مَذَاقهم ، حتى لَيترجم عن بعض ما يَعتلج من العواطِفِ فى نفوسهم .

أما أن يَهجُم على القطعة من فنّ غيره فينتزعَها انتزاعًا ، ويَمتلخَها امتلاخًا ، على حينِ لا يَتذوَّقُها هو نفسُه ولا يُسيغها ، ولا هى مما يُمكن أن يُسيغه قومُه أو يَتذوّقوه ، ومع هذا يأبى إلاَّ أن يَستكرهَه استكراهًا على فنِّهم باسم التَّجديد ، فذلكم لَعَمرى هو المَسخُ والتشويه !

سيداتى ، سادتى :

ليس فى هذا اللَّون من (التجديد) إساءةٌ إلى الفنون ، وإساءةٌ إلى الناس بما يُفوِّت عليهم من الاستمتاع بالفنونِ الجميلةِ فحسب . بل إن من شأنه أن يُبلبِل أذواقَ الجمهرة ويشتِّتها تشتيتًا !

اللهم إن براعةَ المفتنّ هي في أن يَطبَع ما يَسنَح له بطابَع فنّه، وينظمَه في سِمْطه، فلا يَشُوه به الفنُّ ولا يَتنكَّر، بل يَظَلّ هو هو . على ما زِيدَ في ثروته، ووُسِّع في آفاقِه، ومُدَّ له في تلطيفِ العواطفِ وإرهاف الأحاسيس . وحسبكم ما صنع المرحوم عبده الحمولي بالموسيقى المصرية ، وما كان له في التَّجديد البارع حقًّا من أثَر بعيد .

وبعد ، فاذا كان عندنا ، بفضلِ الله ، نوابغُ أكفاء للتجديد الصَّحيح في الآدابِ والفُنون، فان فينا، مع الأسف العظيم، من يَعبَثون أشدَّ العبَث بالآدابِ والفنون، ليظفَروا هم الآخرون بلقب «الأبطال المجدّدين» . وما أَرْخصَ الألقاب، إذا كانت لا تُنال إلاَّ بمثل هذا الإغْراب !

إن بعضَ هذا الذى تقَع عليه أسماعُنا وأبصارُنا في الفنونِ والآدابِ ليس تجديداً، ولكنه مَسخٌ وتشويه . وما ظَنُّكم بمَن كلُّ جُهده هو مَحضُ الإغراب ، والإتيان بكلّ نابٍ عن الطِّباع ناشزٍ على الأذواق . وكيف لمن لا يُحسُّ شيئًا بأن يشعِره غيرَه . وقد قال الأقدمون : إن فاقد الشيء لا يُعطيه ؟ !

هؤلاء رأوا أن فلانًا ذهب له صِيتٌ وذِكْرٌ لأنه أتَى في الفنّ بما لم يكن يَعهدُ الناس ، فما لهم هم أيضًا لا يُغرِبون ، واقعًا هذا الإغرابُ حيث وَقَع ، ليَذهبَ لهم كذلك في الفن ذِكْرٌ وصِيت ؟

*
* *

لقد عبَّرتُ في صَدر حديثى بكلمة (الثَّورة) ، وخَشِيتُ أن أكونَ في هذا التَّعبير من المتجوّزين . فالثورة، كما تعلمون، إنما هي الانفجار من أثر فكرة تَغلِي في الصَّدر ، غَلَيانَ الماءِ في القِدْر . ثم إنها إنما تَضطرِم وتَحتدِم في سبيلِ تحقيقِ

غايةٍ معيَّنة . فهل بعضُ هذا الذى نَرَى ونَسمع فى الأدبِ والفنِّ كذلك ؟ أى أن الفكرة قد مَلَكَت على هؤلاءِ جميعَ مذاهبهم ، وغَلَت فى صدورهم فثاروا بالقديم ، وراحوا يقيمون فُنوناً جديدةً واضحةَ المعارف بيِّنةَ الرُّسوم ! أم أن الأمرَ كلَّه لا يَعدُو التَّلفيقَ من هنا ومن هنا تلفيقاً كلُّه تَعسُّفٌ واستكراه ، حتى تبدَّت للفنِّ صورةٌ مُتناكِرةُ الأعضاء ، مُتنافِرةُ الأجزاء . وذلك فى سبيل الإغراب طلباً للظَّفَرِ كما قلنا بِلَقَبِ « البطولة فى التجديد » ؟

إذا كان الأَمر كذلك، فليس ما نحن فيه بثورة ، ولا هو من الثَّورةِ فى كثيرٍ ولا قليل . إنما هو الفَوضَى بأجمعِ معانى الكلمة . فَحَذَارِ أَيُّها الإخوانُ حَذَار ، وإلاَّ لَحِقَ الفنونَ البَوَار ، وحقَّت عليها (بتجديدكم) كَلِمةُ الدَّمار !!!

ديمقراطيَّة الفنـــون !

تُرى أمِن الحقّ الواقِع أن الانسان ، وأَعنِي من الأَناسىّ من يعالجون فن البيان ، قد يُعيِى عليه الفكرُ ويَسْتصعِب عليه الرأىُ فى بعض الأَحيان ، فلا يرَى بدًّا من أن يَعوذ بالقلم يستهْديه ويستنديه ، ويترسَّم آثارَه ، حتى يَقَع على الرأى ، ويبلغ ، ولو فى تقديره هو ، مَناط الصواب ؟

اللهم إنه لَيخيَّل إلىّ أن الأمر هكذا . فلو كان هذا حقًّا لبلغ بادئ الرأى من كلّ من يُطالَع به مبلغَ العَجَب ، إذ المقدَّر أن ذهن الكاتب هو الذى يُصرِّف القلم ، لا أن القلم هو الذى يُصرّفه . وأن الذهنَ هو الذى يوحى إليه ، ويُملى ما يشاء عليه . إذ كلُّ سَداد هـذه القصبَة إنما هو فى الرّسم والرّقم لا أكثرُ ولا أقلّ .

والآنَ أترقَّى بالدَّعوى فأزعم أن الواقع ، فى بعض الأَحيان ، هو كذلك . وهو إذا لم يَجر فى طباع جميع الكاتبين ، فإنه يَجرى فِي طباع بعض الكاتبين .

على أن من الخِلال التى لا يَنشُز عليها أحد ، ولا أظن أن يُمارى فيها أحد ، أن الكاتب مهما يُحِط بموضوعه ، ويتكشَّف له من قضاياه ، ويَتمكّن من ناصية الرأى فيه ، ويظنّ أن ذهنه قد استوفاه ، وتَقرّى جميع أقسامه ومسائله ، حتى يَتمثّل له فى صورةٍ سويَّة متَّسقة الأَعضاء ، متلاحمة الأجزاء ، ليس بينَه وبين أن يجلوها على الطِّرس كذلك إلاَّ أن يَتفصَّد بها عليه اليراع فى غيرِ جهدٍ ولا عناء — أقول إن الكاتب مهما يُخيَّل إليهِ ذلك ، فإنهُ لا يكاد يَجرى بتدوين ما يحضُره من الفكر يراعُهُ ، حتى يَرى هذا الفكر يزيد ويَنقُص ، ويتلوَّن ويَتشكَّل ، وقد يتحرَّف ويَتحوَّل ، وقد يتغيَّر ويتبدَّل ، وقد يَميل عن سياقه المقسوم ،

ويَعدِل ألبتةَ عن مَذهبه المرسوم . فيخرج فى النهاية خَلقاً غيرَ الذى هيأ الكاتبُ وقدَّر ، فى صورةٍ غيرِ التى سوَّى فى ذهنهِ وصوَّر !

هذا هو الواقع ، وما أحسب الأمر فيه حبساً على الكاتبين وحدَهم ، بل لعلَّهُ متناوِلٌ سائرَ من يعانون مختلفَ الفنون .

وهنا أَرجو أن يُفهم من كلامى أننى إنما أريد النَّظمَ ، والأسلوب ، والسياق ، وألواناً من التفصيل ، ونحو ذلك مما تَتجلّى به صُورُ الكلام .

وتعليلُ ذلك ليس بالأمر العسير ، فإن المفتنَّ مهما يظنّ أن موضوعه قد أصبح بعد جَوَلان الفكر ، وطول التدبّر ، تامَّ الخلق ، مكتملَ الصورة ، بحيث لا يحتاج فى نفضِها على القرطاس إلى زيادةٍ أو إلى تهذِيب ، فالواقعُ أن هذه الصورة مهما يبلغ حظها من النَّصاحة والوضوح ، لا تَعدو أن تكون إجماليَّةً يُعوِزها كثيرٌ أو قليلٌ من دِقاق التفاصيل . حتى إذا اجتَمع لنقلها إلى عالَمِ الحقائق الخارجيّة ، على تعبير أصحاب المنطق ، جَعلت تَسنَح له الفِكَر واحدةً بعد أخرى فى صُوَر جزئيات ، وأحياناً فى صُوَر قضايا كلية . وهذه وهذه لقد يَبعثُها بين يدى القلم وصلُ فِكرةٍ بفكرة ، أو التحوُّلُ من غَرَضٍ إلى غرض ، أو الشعورُ بحاجة الكلام إلى البَسط والتَّبيين ، أو الاستطرادُ ، بحكم تداعى المعانى ، بما لم يقع للكاتب من قبلُ فى الحسبان . أو غير أولئك مما تتغير به صُوَر المقال ، ويجاوِه على غيرِ ما تَمثَّل الذِّهنُ له من المِثال .

* * *

هذه عادةُ الكاتبين ما أحسب أنهُ يُستثنَى عليها منهم أحد . وإذا كان هذا غيرَ ما زعمتُ فى صَدر هذا الحديث ، وإذا كان لا يَنتهض دليلاً على صحته كلَّه ، فلا رَيبَ فى أنه قد يَهدى إلى تعليله وجهَ السبيل : ذلك بأن ما يَصحَب جولةَ

القلم من اتِّساع آفاق الفِكر، والنفوذ إلى بعض الدقائق، وسلوك كثير من الجزئيات، والوقوع على ما لم تَتبَسَّط له الفِطنةُ من قبل . وأثر هذا في طبع الكلام، ونزوع سياقه إلى غير منزعه، وتجليته في غير الصورة المقدَّرة له – أقول إن ما يكون من هذا في صُحبة القلم، أعني ساعةَ تشمير الكاتب للصياغة وإجراء البيان، من شأنه، مع الزمن وكثرة المعاودة، أن يُدخِل في وَهمه أن القلم مما يَرفِد ويُمِدُّ ويُعين !

وفي هذا المقام يَحسُن بي أن أذكر أنني أُملِي المقالَ في بعض الحين . وإني لَأقوم على هذا ما دام الكلام هيْناً ليْناً . حتى إذا تَعذَّر عليَّ القولُ وتعصَّى الكلام، أو إذا قدَّرتُ أن المقام يَحتاج إلى حدّ الكلام وسطوة البيان، أو إلى تزيين اللفظ وتَبهيجه، والتأنُّق في صياغته ونظمه، أسرعتُ إلى اختطاف القلم، فاستشعرتُ القوةَ وأحسستُ المدد، وسَرعان ما يواتيني مما أَبغِي من هذا ما لا يواتيني به الجهد في الإملاء ! .

هذا إلى أن الذِّهن، كما أسلفت، قد يَعيا بالإحاطة، ويضيق عن انتظام جميع جزئيات الموضوع جملة . وربما تواثب عليه من طوارق الفكر ما يَشغَله ويفرّق شَمله، ويكفّهُ عن موالاة التصفّح والاسترسال، وخاصةً في ساعات القلَق واختلاج النفْس، وقلة استراحتها إلى الاطمئنان والقرار . أما إذا اجتمع الكاتبْ للبيان، كان مضطراً إلى أن يَجمع شَمله ويعتنِق نفْسَهُ، ويُرهف ذهنَه ويُذكي حسَّه، ويَصل كلَّ الوصلِ ما بينه وبين فكره، ويقطع كلَّ القَطع ما بينه وبين غيره . وتراه كلما اطَّرد في البيان جُليَت عليه الصُّور، وتتابعت المعاني وتلاحقت الفِكرَ، فتيسَّر له، وهي مُتمثِّلةٌ بين يديه أن يَمدّ الذهن لتفقُّدها، وتقرّي ما عسى أن يعزُب من وجوه الرأي عنها، وتبيُّن ما يأتلف منها وما

يَتناكر ، وما يتوافق وما يَتنافر . فهيَّأ له ذلك التَّسويةَ ما شاء من خَلق الفكرة ، وتجليَتها فى صورتها الكاملة ، بقدر ما يَدخل فى طوقه ويَتَّسع له ذرعُه .

لعله قد بان لك ، بعد هذا ، الوجهُ فيما زعمتُ من أن الكاتب قد يُعيِي عليه الفكرُ ويَستصعِب عليه الرأى ، فلا يَرى بدًّا من أن يَعوذ بالقلم يَسترشده ويَستهديه مواقعَ الصواب !

وإذا كنتُ قد أطلتُ فى هذه المقدمة ، فاعلم أن هذا شأنى اليومَ فى علاج هذا المقال .

*
* *

سؤال يتطلع الى جواب :

وبعد ، فان سؤالاً يَترجرج منذُ أيام فى نفسى . وكلَّما هممت بالارتصاد للنظر فى موضوعه ، وإشاعة الذهن فى أَقطاره ، والتماس جواب له تَستريح إليه النفس ، ويَطمئن به صحيحُ المنطق ، تطايَرت عنه شُعَب هــذا الذهن بما يَهجُم عليه من طوارق الفِكْر ، أو يَغمِز من أوجاع المرض ، أو بما يَزحَم المرءَ من همٍّ يعِزّ عليه ، فى بعض الأحوال ، أن يَجد له مَفيضاً ومُتنفَّسا . وإنى لَأَصرف هذا السؤالَ عنى صَرفًا وأدعّه دعًّا ، فلا يَنِى عن مطالعتى من أىِّ أقطار الفكر لانَ له مَدخله . وما برِح كذلك يَعتادنى لا سلطان لى عليه ، ولا طاقة لى بكفِّه والخلاص من طنينه . ولا أنا ، وقد عرفتَ شأنى ، بقادر على الاستراحة إليه والاسترسال معه حتى أبلغ به ولو بعضَ ما يُريد !

إذن لم يَبق بدٌّ من جمع الشَّمل ، وحَدِّ الذِّهن ، وكفِّ الطوارق عن النفس ، واستكراه الفكر على التجرُّد فى هذا المطلب أو يبدو فيه وجهُ الرأى . ولا يكون

هذا ، إذا قُدِّر أن يكون ، إلاّ بانتضاء القلم والتَّشمير للبيان . فعلى هذا نَمضى مُجتدِين القلم ، وأ كبرُ الظنّ أنه لن يجود بجليل !

أما السؤالُ المذكورُ بكلّ هذا فهو : تُرى هل من الخير أن تُشاع الفنونُ فى الناس وتُرسَل بين أيديهم كافَّة ، يَتناولها منهم من شاء ، ويَنقبض عنها من شاء ؟ أو أن الخير فى أن تكون حبساً على طائفةٍ خاصّة ، لا يجوز أن يَقتحم عليهم شأنَهم فيَفرى فيها فَرِيّهم إلاّ لمن دلّت الدلائلُ على كفايته وتهيُّئه للتجويد والاحسان . أو على التعبير العصرى : هل الأفضلُ أن تجرى الفنونُ على سنّة (الديمقراطية) ، أو أن تكون (أرستقراطية) لا يَليها إلاّ طبقةٌ معيَّنةٌ من الناس ؟

لقد يَتعاظم بعضَ القارئين أن يَنبعث مثلُ هـذا السؤال فى هذا الزمن الذى تنتشر فيه (الديمقراطيةُ) وتَتبسّط بكل قواها حتى تكاد تَضغط آفاق العالم جميعاً ، لا يَسلَم عليها ما أقامت الأحقابُ الطِّوالُ من الحدود ، ولا ما رفعت التقاليدُ العاتية من الحواجز والسّدود ! .

واللهم إن ما يَتعاظمنى من شأن هؤلاء لَأعظم . فما كنتُ لأُشير على الطبيعة برأى ، أو أتقدّم إليها بأمر ، أو أسأل خَلقاً من الناس أن يكفُّوها عن غايتها ، أو يَعدِلوا بها عن مَذهبها . وأين أنا والناسُ جميعاً من ذاك ؟ ! إنما وجهُ السؤال إلى المفاضلة بين أن تَصنَع الطبيعة كَيت ، أو أن تعدِل من نفسِها إلى كَيت . فالأمرُ لا يخرج عن أُفق التمنّى على كل حال .

على أن الانسان مهما يكن ضعيفاً بأزاء عُتوِّ الطبيعة وشدَّة سَطوتهـا ، فانه لا يُعوِزه لطفُ الاحتيال على التخفُّف من بعض أذاها ، واستخراجِ الخير من أثناء شرورها ، وتوجيهها فى بعض مذاهبها إلى ما يُجديه ويُرفِّه عنه بقَدر غير يسير . فاذا كان موضوعُ اليوم قد عُقد للمفاضلة بين (ديمقراطية) الفنون و (أرستقراطيتها) ، فما كانت النيّةُ فى علاجه متجاوزةً هذا المقدار .

احتكار الغناء :

وبعـد ، فما حرّك هذا السؤالَ فى نفسى ولا أثاره كلّ هذه الثورة بى إلاّ ما يروعنى هذه السنينَ من الكثرة الهائلة فى عديد من يَتكلّفون الشعر ، والشعر الغنائىّ على وجه خاصّ . والكثرة الهائلة فى عديد من يتكلّفون الغناء للجمهرة ، ومن يَصطنِعون تلحين الأَصوات !

وأ كبرُ الظنّ أن أبناء هذا الجيل لا يَستكثِرون من ذلك ما أستكثِر ، ولا يروعهم منه ما يروعنى . فلقد شهدنا جيلاً قَبل هذا كان نَظمُ المقطوعات الغنائية فيه مقصوراً على نَفرٍ من أعيان البيان أمثال إسماعيل باشا صبرى ، ومصطفى بك نجيب ، ومحمود افندى واصف ، والشيخ الدرويش . وقليل غير هؤلاء . كما كان تَلحينُ الأصوات يكاد يكون كذلك حُكرةً لعُنُق من النّاس ، فلم يكن يُعالجه إلاّ الشيخُ المسلوب ، ومحمد افندى عثمان ، وعبده افندى الحمولى ، وإبراهيم افندى القبّانى ، وداوود افندي حسنى[1] ، فاذا كان وراء هؤلاء من يُكابدون التّلحين ، فهم ولا ريبَ أقلّ من القليل .

ولقد عاش المرحومون الشيخ يوسف المنيلاوى ، والشيخ محمد الشنتورى ، ومحمد افندى سالم ، وعبد الحىّ افندى حلمى ما عاشوا ، لم يُؤثَر عن واحدٍ منهم أنه لحّن طَوالَ حياته صوتاً (دوراً) واحداً ، إذ كلُّهم من الأَعلام المبرّزين بين أصحاب الغِناء !

وتعليلُ هذا ليس مما يَحتاج إلى كَدّ الأَذهان ، فان هذا الجيل الذى شهدنا أطرافَه إنما قام فى أَعقاب عصرٍ كانت المِهَن جميعاً ، وخاصةً فى أُمهات المدن ، تقوم

---

(١) المراد بالتلحين هنا تلحين الغناء المعروف بهـذا الاسم ، على أن هناك تلاحين أخرى للمولد النبوى ، وأناشيد الذكر ، والمسرح ، وغيرها . وهذه كان لهـا ملحنوها من غير أولئك المذكورين .

فيه على ضَربٍ من ضروب الاحتكار ، إذ كان لكلّ أصحاب مهنةٍ عريفٌ يدعونه « شيخ الطائفة » ، فلا يدخل ، فى العادة ، أحدٌ فيها يُعالج منها ما يُعالج أهلُها إلاَّ باقرار هذا « شيخ الطائفة » وإجازته !

ولقد حدثنى المرحوم محمد افندى سالم ، وكان من المعمَّرين ، أنه أدرَكَ أياماً لم يكن يُؤذَن فيها لامرىء باعتلاء منصَّة (تخت) الغِناء رئيساً إلاَّ إذا اجتمعت مشيخةُ أصحاب الفنّ فى حَفل جامع ، حتى إذا استمعوا لغِنائه ، وقدَّروا فيه الكفايةَ للمهنة ، قاموا إليه فحزَّموه ، وقرَّبوا إليه ضِغثاً من البقدونَس فأصاب منه ما شاء ! . وكان ذلك منهم إجازةً له باحتراف المهنة ، وأذاناً بِكفايته لغِناء الجماهير !

*
* *

لا أشك فى أن هذا الكلام سيأخذ نظرَ القارىء لأول وَهلة ، فيبعث فيه الدهَش ، وقد يُثير سَخطَه واشمئزازه جميعاً . فليت شعرى ، كيف يُزَمُّ تصرفُ الناس فى أفشى المباحات ، ويُؤخَذ بمخانقهم فى أشيع ألوان الحريَّات بأقسى من هذا وأنكر وأشنع ! . حتى الغِناء ! . والغِناء ، لو عرفت ، إنما هو أفصح تعبير وأحلاه ، عن أدقّ ما يَعتلج فى النفس وأخفاه . ولعمرى ما كان هذا من شيمة الانسان وحدَه . فلقد سبقه إليه الحيوان ، وإليه سبقتهما الطبيعة جميعاً : هذا القُمرىُّ يَشدو ، وهذا الكروان يغرّد ، وهذا الحمامُ يَسجَع ، وهذا العُصفور يُسقسِق . بل هذه الطبيعةُ التى نُخليها من الحسّ والارادة ، وإن لها هى الأخرى لترجمةً عن شأنها أى ترجمة ، وتعبيراً من الغناء والتصويت أى تعبير . فهذه الرياح تَعزِف ، وهذه الرعود تزمزم وتَقصِف ، وهذه الأمواج تُجرجر ، وهذا النبات ألا يُطربك رفيفُه ، كلما حركه النسيمُ فخَفَّ حفيفُه ؟

أ كلُّ أولئك له أن يغنى كيفما شاء ، ويترجم عن ذات نفسه بالترجيع والجلجلة كلما أراد ، اللهم إلاَّ الانسان ، فما كان ليؤذَن له فيه إلاَّ بإجازة وترخيص ؟

هذا من جهة الحق والنظر، أما من جهة الفعل والأثر، فلا شك فى أن حصر الغناء للجَمهرة فى طائفة قليلة العَدد، يَقتضى حصرَ الاستماع إليه، والطرب عليه فى طائفة قليلة العَدد كذلك بالقياس إلى المجموع. وفى ذلك حرمانُ السَّواد لذةً من أمتع اللَّذات المشروعة، وحيلولةٌ بينه و بين تهذيب ذَوقِهِ، و إرهاف حسِّه، طوعاً لانقطاعه عن الاستماع إلى الغناء ألبتة، أو ترويَة أذنه بغِناء لا يجرى على أىِّ عِرق من هذا الفن الجميل !

ثم إن فى قَصر الخاصَّة وأشباه الخاصة على الاستماع إلى نفر معدود من جماعات المغنِّين، يدورون بأصواتهم فى تلاحينَ قليلةٍ بالضرورة، ما من شأنه إدخال الضجر عليهم، و بعثُ الملل فيهم.

ثم لا تنس أن فى هذا الصنيع خنقاً للمواهب فى مُهودها بما يقام من العواثير دونَ مباشرة الناجمين من أصحابها للمهنة، واستصعابهم لتكاليفها، وما يتداخلهم من الخوف والرهبة إذا تقدموا لمزاولتها.

ثم إن فى إجازة الغناء من جماعة معيَّنة، لها بالضرورة فن خاصّ، وذَوق يَجرى فى دائرة مشتركة، ما من شأنه كذلك أن يَسدّ الطريقَ على كل مستحدَث طريف. و بذلك يظَل الفنُّ محصوراً فى دائرة ضيقة، لا يكاد يتَّسع أو يَرقى على الزمان !

فاذا أدهشك هذا الصنيعُ وفظُع بك، فأنت لعمرى فى مقام النظر، وتقليب الفكْر، ونَظم قضايا المنطق وترسّم أقيسته حقٌّ معذور.

*
* *

فاذا نحن تحوّلنا من دائرة الفِكْر والنَّظر إلى أُفق الواقع الذى يلامس الحسّ و يلابس الذَّوق، فليت شعرى ماذا نجد ؟

ألاَ إنِى لمحِدّثٌ بلسان رجل أدركَ العهدَين، وتذوّق الغِنائَين. فاذا أخطأتْنى

الترجمةُ عن الواقع ، فانني صادقُ الترجمة عما أُحسُّ وما أجد ، وما يُحسّ معى وما يجد كثيرون .

قديم وجديد ! :

ذلك الغِناء الذى كنا نسمع من الحمولى وعثمان وأضرابهما ، وما برح يُردِّده بعضُ المغنين ، هذا الغِناء على أنه يدور فى أنغام محدودة ، وتلاحينَ قليلةِ العدد ، لقد كان يواتِى أذواقَنا ، ويُشيع الطربَ فينا ، ويَفحص عن مطاوى نفوسنا ، ويَبعث فينا من الأَريحيَّة ما يَستخِفّ أرسخنا نفساً وأثبتنا توقُّراً !

لقد كنا نجد فى هذا الغِناء صورةً بيِّنةً مما فى نفوسنا ، حتى لكان يُخيَّل إلينا أنه صادرٌ عنها لا واردٌ عليها . وكأننا نحن الذين لحَّنوه وصاغوه ، فاذا لم يبلغ بنا الشعورُ هــذا الموضع ، خِلنا أنه لو كان أُفضِى إلينا بتلحينه وصياغته لما أخرجناه وصوَّرناه إلاَّ هكذا . بل إن حُسن السَّبك وقوة الصِّياغة لَتَذهبُ بنا إلى الشعور بأن هذا الذى نَسمع إنما هو شىء من صياغة الطبيعة لا أثرَ فيه لصَنعة الانسان ، فهو كذلك خُلق وكذلك كان ، وما كان لامرىء بتغيير فِطرة الطبيعة يَدان !

يَتحوّل الملحِّن بك من نغمة إلى نغمة ، ويَعدِل بك من فنٍّ إلى فنٍّ ، ما تُصيب أذنَك عَثرة ، ولا تُحسّ نَبوة . بل إنك لتجد هذا التنقُّل مما تَقضى به الطبيعةُ أيضاً . وكثيراً ما تَستشرِف له نفسُك قبل أن يَبلغه حَلق المغنِّى ! . لقد كان هذا الغِناء ، فى الجملة ، أشبهَ ما يكون بالجدول المتعطِّف المتأوِّد ، لا يُعكر تأوُّده من صفائه ، ولا يكفّ تعطفهُ من اطِّراد مائه . كان غِناء تحسبه بسيطاً ليُسرِه وسلاستِهِ ، ومواتاتِهِ لطبيعة المصرى . وفى هذا اليُسرِ والسلاسةِ المقدرةُ كلُّها والفنُّ أجمعهُ لو كان يَدرى السامعون !

أما الغِناء الغالبُ فى العَصر ، وأعنى به الجديد ، فلستُ أكتمك أنه أكثرُ شُعوبًا ، وأرحبُ طُروقًا وأوسع دروبًا . تنوعت أعلامهُ ، وتعدَّدت أنغامهُ ، إلاَّ أنه مطبوعٌ بالطابعَ الغربىّ ، لقد تروقنى ، أنا المصرىّ ، منه النّبرة ، ولقد تهزّنى فيه النّغمة . على أنه سَرعانَ ما يَثب بأُذنى الوَثبة الشَّديدة ، ويَطفِر بحسّى الطّفرةَ الهائلة ، فيمتلخ الطربَ فى نفسى من أصله امتلاخًا ، ويُطيِّر ذَوقى كلَّ مُطيَّر ، ويُبعثره كلَّ مُبعثَر ، حتى لَأراه يحتاج منى إلى جهد عنيف فى الجمع والتلفيق ! ! !

وقد يقال : إن نُبوَّ هذا الضّرب من التّصويت على الآذان إنما يَرجع إلى جِدَّته وطرافته . فاذا هو دار على الزمان وتَردَّد على الأسماع ، أَلِفته الأذواق ، واستراحت إليه النفوسُ وطرِبت عليه ، شأنَ كل جديد مستحدَث ، وخاصةً فى هذه الفنون .

وأقول : إن جِدَّته وغرابته على الأسماع قد يكون لهما ، من هذه الناحية ، بعضُ الأثر . ولكن لا يكون لهما وحدَهما كلُّ الأثر . وهذا عبده أفندى الحمولى ، رحمةُ الله عليه ، لقد استحدَث فى الموسيقى المصرية جديداً ، وأدخل عليها ما لا عَهدَ للأذن المصرية به من قَبل ، ومع هذا فلم يَنبُ جديدُه على سمع ، ولا نشز طريفُه على طبع . بل لقد تقبلته الناس ، خاصتُهم وعامتُهم بأحسن القَبول ، وهشَّت له نفوسُهم أيَّما هَشاشة ، وطرِبت به أيَّما طرب !

وقد يُستدرَك على هذا بأن ما جاء به الحمولى ليس غريبًا على الموسيقى المصرية ولا هو عنها ببعيد . فانه لم يعدُ ، فيما استعار ، موسيقى جيرتنا ومن كانت تَسلكنا معهم أوثقُ العلائق من السوريّين ، والحلبيّين ، والأتراك !

وإذا نحن ترخَّصنا فى إساغة مثل هذا الكلام ، كَرَرنا بالاعتراض بما صنع المرحوم الشيخ سيد درويش ، فلقد تبسَّط فى تلاحينه بالموسيقى المصرية إلى حدّ بعيد ، فاستعار لها ما شاء الله من موسيقى السوريّين ، والعراقيّين ، والحلبيّين ،

والأتراك ، وأدخَل عليها صَدراً جليلاً من موسيقى الغربيّين ، فما نَبَتْ بصنيعِه أذن ولا التوى على طبع . بل لقد أرضى وأعجب ، ولذّذ وأطرب ، و بعث فى النفوس من الأرْيحيّة ما لا يكاد يَتعلّق به وصفُ الواصفين !

وفى الحق ان جديد سيد درويش إذا كان لقىَ أولَ مُنحدَره إلى السمع شيأً ، فالذى يَلقَى كلُّ جديد ممـا يُشبه القلقَ بحكم العجب والاستغراب . على أنه ما لبِث أن استراحت له الآذان ، ورضِيَته الأذواق ، وهفَت إليه النفوس ، وتداخلها الطربُ عليه من جميع الأقطار . فى حين أن هذا الذى نسمع اليومَ من جديد الغِناء ، إذا صحّ هذا التعبير ، لا يزداد على التّرديد إلاَّ نشوزًا على الأذواق ، وتعاصياً على الطِّباع !

كلمة الحق :

فاذا طلبتَ كلمةَ الحق قلت لك : إن سيداً كان رجلاً مفتناً حَقَّ مُفتَنّ . رَحبَ الطبع ، دقيقَ الذَّوق ، مرهَفَ الحسّ ، نيِّر النفس ، تسنَح له النَّبرةُ من الموسيقى الأجنبية ، شرقية أو غربية ، فيُدرك أنها مما يمكن أن يوائم طبعَ المصرىّ ، وَيتّسق لذوقه ، وسَرعانَ ما يُعالج بعضَ خَلقها بالتّسوية والتّهذيب ، ثم يُدمجها فى تلاحينه ما تُحِسّ هى ولا تُحَسّ لها وَحشةٌ فى الغِناء المصرىّ ولا استغراب !

أما الغالبُ فى هذا الذى نسمع الآنَ من ذلك (الجديد) ، فليس أكثرَ من تلفيق وترقيع لا يقوم على أساسٍ من الفنّ ، ولا يَجرى على عِرْق من الذوق ، ولا يجلِّى على النفس أيَّةَ صورةٍ من صُوَر الجمال !

اللهم إن جُهد الملحّن من هؤلاء أن يتصيَّد النغمةَ الأجنبية ، فيحشرَها فى موسيقانا حشراً ، ويستكرهَها عليها استكراهاً ، واقعة ما وقعَت من النَّظْم الغِنائى .

بل إني لستُ متزيِّداً ولا غالياً إذا زعمتُ أن بعض هؤلاء إذا استَصعَب عليه الصيدُ من النغم الأجنبيّ ، اعتَمَدَ حَلقَه فلا يزال يُلوِّيه ويُعتِّره حتى يُخرج له شيئاً نافراً نابياً ، يصكّ الأسماعَ صكاً ، ويمخُض النفوسَ مخضاً ، لأنه لا يَفهم من (التجديد) إلاّ أنه الأتيان بالغريب (والسلام) !

والعجيبُ أن أكثرَ هذه التلاحين إنما يبتدئ ويَنتهي بصياح مزعج ، هل سمعت ، حفظك الله ، نُواحَ النائحات المصريات فى أعقاب الجنائز ؟ ! هذه أطرافُ الغناء ، أما أثناؤه فتكسُّر وتخاذل وتزايل ، وأنين وحشرجَة كحشرجة المحتضَر . دع التخنيثَ فى الألفاظ والتَّطرية فى الأناظيم ، فلذلك حديثٌ آخر إن شاء الله !

ديمقراطية الفنون :

قلتُ لك فى بعض هذا الحديث إن فنّ التلحين وصنعَة الغِناء للجَمهَرة إنما كانا محصورين فى طائفة قليلة العدد ، سواء من هؤلاء أو من هؤلاء . وقد وصفتُ لك ، بقَدر ما طاوع القلم ، براعتَهم وقوةَ تلاحينهم . وهل أدل على براعتها وقوتها من ثباتها وترديدها فى هذا العصر عصر (التَّجديد) ، ما يَخلُق لها على التَّرداد قديم ، ولا يبلَى لها على التَّكرار أديم !

فهل لنا ، بعد هذا ، أن نُضيف إسفافَ أكثر هذه التلاحين (العصرية) وفُسولتَها وغثاثتها ، وعدمَ صلاحيتها للقيام ، والبقاء على الأيام ، إلى استباحة فنّ التَّلحين ، حتى أصبح يُعالجه من شاء ، ويَنتحله من الناس من أراد ؟ . وبحسبك أن تَسكُن إلى (الرديو) بضعةَ أيام لتتعاظَمك الكثرةُ الهائلةُ فى عديد الملحِّنين فى هذا الزمان . فانك لا تكاد تسمع أُغنيَّةً من فتًى ناشئ أو من فتاةٍ حَدَثة إلاّ أذَّن المُذيع أنها من تلحينها أو من تلحينه ، أو من تلحين فلان أو فلان أو

فلان ، من أسماء لا عهدَ لك بها من قبل ، ولعلّه لا يكون لك عهدٌ بها بعد الآن ، حتى لقد تخيّــل إليك هذه الكثرةُ أن أهل مصر جميعاً ، رجالهم ونساءهم ، سيصيرون عما قليل ملحّنين !!!

أرستقراطية الفنوله :

وإذا صح أن العلّة فى كل هذه البليّة التى تَجنى على الأذواق ، وتكاد تَحرِمها الاستمتاعَ بالفنّ الرفيع ، إنما هى فى إطلاق فنّى التلحين والغِناء يَرِدهما ويُعالجهما مَن هَبَّ ومَن دَرَج من الناس ! — أفترانا نذهب إلى القول بوجوب تقييدهما ، بحيث يُقصَر علاجُهما على الأكْفاء القادرين ؟

وبعد ، فلقد تعلم أن هذا القصرَ والتقييدَ قبيحٌ لما تقدم لك من الأسباب . على أنه لا حيلة فيه ، ولا سبيل إليه فى عُرف هذا الزمان .

ولكننى أرجو ألاّ يذهب عنك أن الفنَّ نفسَه أرستقراطىّ ، لكن بالطَّبع لا بالجَعل : ذلك بأن الفنّ ، كما تعلم ، ابنُ الموهبة ، والمواهبُ ليست من الحق المشاع لجميع الناس . إنما هى حبسٌ على أولئك الذين يَصطفيهم اللهُ لها من الأَفذاذ الأَندرين من الناس . وهى وحدَها التى تُنادِى على صاحبها وتدعو إليه ، وتُعلن فى الأَملاء عن ِكفايته وسداده ووجوب استثاره . وتنفُض عن صحيح الفنّ الزُّيوف ، وتدعُّ عن بابه الواغِل[1] والدَّخيل . فالفنُّ بطبعه حبس على أوليائه مهما كثُر مُدَّعوه . وعظُم مُنتحِلوه . ومهما بَرعَت وسائلُهم فى التَّزييف والتدليس على الغافلين ! . وكذلك سُلِّم بالكِفايات الحقِّ لأصحابها على طول الزمان .

وإذا كان يَهولنا اليومَ كثرةُ مُنتحِلى فنّ التلحين وصنعة الغِناء مما لا وزن لهم ولا ِكفاية ، مع كثرة من يُصغى إليهم ويُطربهم ، ويَخلَع كلَّ فَخْم من الألقاب

(١) الواغل : الداخل فى شراب القوم وليس منهم

عليهم ، فليس ذلك من أثر (الديمقراطية) الفنيّة كما يُظَن عند ابتداء النَّظر . بل إن ذلك واقعٌ لأننا نعيش الآن عَيشًا غير طبيعى ، و بعبارة أصرح ، لأننا فى ثورة اجتماعية تناولَت أسبابَنا جميعًا . فما نرى من هذا إنما هو من الفوضى لا من الديمقراطية . والفوضى ، كما تعلم ، هى استثناءٌ وشذوذٌ ما له فى الحياة الطبيعية قرار .

ولقد قلتُ فى أثناء هذا الحديث إن الإنسان لا يدَ له بتغيير ظواهر الطبيعة . ولكنه بلُطف الحيلة يستطيع أن يُخفِّف من أذاها ، ويَستخرج الخير من خلال شرورها . وكذلك يستطيع النَّقَدة ، بالسنتهم وأقلامهم ، أن يَدلُّوا سوادَ الناس على مكان الحسَن ومكان القبيح من هذا الذى نحن فيه ، رِفقًا بأذواقهم ورحمةً بهذا الفنّ الجميل !

المفتنّ أبو نواس*

تُرى هل بلغ أبو نُواسٍ ما بلغ فى شعراء العربية ، وذَهب له ما ذهب من ذِكر وصيت لأنه قال فى مدح الرشيد :

وأخفتَ أهلَ الشِّركِ حتى إنه لَتخافُك النطفُ التى لم تُخلق ؟

أو تراه أصاب هذا الحظّ كلّه لأنه قال فى مدح ابنه الأمين :

وإذا المطىُّ بنا بلغنَ محمداً فظهورُهنّ على الرجال حَرَامُ ؟

أو تراه حقاً (ابن قوله)[1] فى مدحته للعباس بن عبيد الله بن أبى جعفر المنصور :

لا تُسدِينّ إلىّ عارفةً حتى أقومَ بشكر ما سَلفا ؟

أو لعله قد دوّى باسمه السَّهلُ والجبل لأنه قال كيت وكيت ، فأتى فى المديح والهجاء والرثاء ، ووصف الجياد والنَّجاء ، بألوان من المبالغات كثيراً ما كانت سبيلَ السَّيرورة ، ومَبعثَ النَّباهة وسُطوع الصيت ؟

اللهم لا ! . وإذا ظُن أن من متقدّمى الشعراء من رَفع بعضُ النَّقدَة بمثل هذا أقياسَهم وأقدارَهم ، فثبت به ذِكرُهم على الأيام ، فان أبا نُواس لم يَخلُد به ، ولا كان قطُّ مَديناً له ، وإن كان قد جاء منه بما لم يَنته فيه كثيرٌ من أعلام البيان مُنتهاه ! .

الواقع أن أبا نواس كان من أولئك الأفذاذ الذين يشُح الزمان بهم فلا يَنتضِح بأمثالهم إلاّ نِطافاً فى أثناء الحِقَب الطوال . ولعل كلمة (فلان نسيج وَحدِه) التى ينفُضها أبناء العرب على المرء إذا عزَّ أَكْفاؤه ، لا تبلغ موضعَها الحقَّ من الجدِ

* نشرت فى مجلة (الهلال) فى عدد أصدرته خاصاً بأبى نواس فى أول أغسطس سنة ١٩٣٦

(١) يقول نقدة الشعر (ابن قوله كذا) ، أى أنه اشتهر به ، وسار فى الشعر ذكره .

والصِّدق والإشراق قَدرَ ما تبلغ إذا أُضيفت إلى هذا الرجل العظيم ! .

أبو نواس شاعر فحل، يرفعه نقَدةُ البيان إلى الذّروة ، ويَسلكونه فى نظام جميع مع أشعر شعراء عصره ، وقد يُؤثِرونه على بعضهم ، ويرفعون منزلتَه عليهم . ما فى هذا شك ولا كان يوماً فى مَطرَح الحِوار بين أهل البَصَر بمنازع الكلام .

إذن فأبو نواس شاعر من أفحل شعراء العصر العبَّاسى الأول . وقد أحله عند كثرة الناس هذا المحلّ أنه مَدح فلم يتخلّف عن أبلغ المادحين ، ووصَف فكان من أجود الواصفين ، وضَرب فى سائر فنون الشعر فما ونَى فى شىء ولا قصَّر . بل لقد أرسل من سوابق القريض ما لا يُتعلَّق بغباره ، ولا يسْهل ترسُّم آثاره . وما له لا يبلغ هذه المنزلةَ فى الشعراء ، وهذه قصيدته فى مدح محمد الأمين :

(يا دار ما فعلت بك الأيام)

والتى جاء فيها :

ولقد نَهَزتُ مع الغُواة بدَلوهم[1] وأَسمتُ سرحَ اللهو حيث أسامُوا
وبلغتُ ما بلغ امرؤٌ بشبابه فاذا عُصارةُ كل ذاك أثامُ

*
* *

وإذا المطىُّ بنا بلغن محمداً فظُهورُهن على الرجال حرامُ
قرّبننا من خير من وطئ الحصَى فلها علينــا حُرمةٌ وذِمامُ
رفع الحجاب لنا فلاح لناظرٍ قمــرٌ تَقَطَّعُ دونَه الأوهامُ
مَلكٌ إذا علِقَت يداك بحبله لا يَعتريك البؤسُ والإعدامُ

وهذه قصيدته التى يمدح بها العباسَ بن عبيد الله بن أبى جعفر المنصور ، وأولُها :

أيها المنتاب من عُفُره لست من ليلى ولا سمره

---

(١) يقال : نهز بالدلو فى البئر : ضرب بها فى الماء لتمتلئ . والمراد أنه جارى الغواة فى لهوهم وعبثهم

لا أَذود الطيرَ عن شجرٍ قد بَلوتُ المرَّ من ثمره

وهذه مدحته فى الخصيب :

أجارةَ بيتَينا أبوكِ غَيورُ وميسورُ ما يُرجَى لديك عسيرُ

*
* *

تقول التى عن بيتها خفَّ مركبى عزيزٌ علينا أن نراك تسيرُ
أما دونَ مصرٍ للغنى متطلَّبٌ بَلَى إن أسبابَ الغنى لكثيرُ
فقلت لها واستعجلَتها بَوادِرٌ جرت فجرى فى جَريِهن عبيرُ
ذرينى أُكثِّر حاسديكِ برِحلةٍ إلى بلدٍ فيه الخصيبُ أميرُ
إذا لم تزُر أرضَ الخصيب ركابُنا فأىَّ فتًى بعد الخصيب تزورُ
فتًى يَشترى حسنَ الثناء بماله ويَعلم أن الدائراتِ تدورُ
فما جازه جُودٌ ولا حلَّ دونَهُ ولكن يَصير الجودُ حيث يَصيرُ
فلم ترَ عينى سُؤدُداً مثلَ سؤدُدٍ يحل أبو نصرٍ به ويسيرُ

وتلك طِواله وقِصاره فى مدح الرشيد ، والأمين ، والعباس بن عبيد الله ، والفضل بن الربيع ، وولديه العباس ومحمد ، والخصيب بن عبد الحميد ، وإبراهيم ابن عبيد الله الحجبى ، والحسين بن عيسى . وغير هؤلاء كثير .

ثم هذه مراثيه للرشيد ، والأمين ، وأستاذه والِبة بن الحُباب وسواهم .

وهذه قصائده ومقطوعاته فى العتاب ، والزهد ، والطَّرَد ، والغزَل ، والوصف ، وغير أولئك مما تَستهلِكِ الالمامةُ به أضعافَ القَدْر المقسوم لهذا المقال . دع أحاديثَ الخمر والمجون الآن ، فسينعطِف عليها بعدُ الكلام .

وبعد ، فقد انعقد عند جمهرة الناس هذا الحظُّ من الشاعرية لأبي نواس بما يجول فى عامّة شعره من كرائم المعانى ، وما تتقطّع دون بعضه علائق القريض من معنى مبتكَر يَجرى فى لفظ شريف ، قد بُهِّج[1] دَبجُه ، وأُحكمت صياغته وأُلحِم نسجُه . وكذلك مضى الحكمُ على شاعريته كما مضى على شاعرية لِداته من متقدّمى الشعراء فى ذلك العصر .

وفى رأيى أن شاعرية أبى نواس لم تتجلّ فى حيث يَظنّ هؤلاء . بل لعله إذا كان قد دخل عليها نقص ، أو تطرّق إليها شىء من الوهن ، فمن هذه الناحية أصابه ما أصاب ! .

لقد كان أبو نواس رجلاً موهوباً حقّاً وعبقرياً حقّاً . كذلك طبعه الله وعلى هذا طواه ، حتى لو جاهد نفسَه على ألاّ يكون شاعراً ما استطاع مهما ألحّ فى الجهاد ، وهيهاتَ أن يكون لامرىء بتغيير خَلق الله يَدان ! .

أبو نواس شاعرٌ كما هو إنسان . وإنك إذا طلبت الرجلَ المفتنّ الكامل ، قد مَلَكَ الفنُّ عليه كلّ مذاهبه ، وطالعه من جميع أقطاره ، وجرى فى أعراقه مجرى دمه ، واعتلج مُعتلَج العواطف فى نفسه ، فأمسى وهو لا يكاد يَشعر إلا به ، ولا يتذوّق الأشياء إلاّ من حيث يُذيقه — إنك إذا طلبتَ هذا المفتنّ التامّ ، فأرجو أن تجده فى هذا الشاعر أبى نواس .

أبو نواس شاعر بأبلغ ما تدل عليه هذه الكلمة وأدقّه وأجمعه وأكفاه . هو رجلٌ مُرهَف الحسّ ، نافذ الشعور ، خِصب الذهن ، صافى النفس ، جوهرىّ الطبع . وإن شئت قلت إنه يكاد يكون فى أصل خَلقه مجموعة معان لولا أن تجسّد بعضُها فاستحال لحماً وعظاماً لَظَلّ سابحاً بكلّ خلقه فى مسابح الأرواح !

---

(١) بهج الشىء : حسنه

هو رجل يُشعرك مرسل شعره بأن نظره كان ينفُذ إلى صميم الأشياء ، بل لقد يُشعرك بأن الأشياء كانت تلطُف له وتَشِفّ ليتناول من صميمها ما يشاء . وسَرعان ما يتنفّس بهذا الذى أدرك شعراً إذا كفّ عنه القلمَ أو حبس دُونه اللّسان !

فاذا أنت طلبتَ أبا نواس المفتنّ فاياك أن تطلبه فى قوله :

وأخفتَ أهلَ الشرك حتى إنه   لتَخَافك النطفُ التى لم تُخلقِ

ولا فى قوله :

وإذا المطىّ بنا بلغنَ محمداً   فظهورُهن على الرجال حرامُ

ولا فى قوله .

لا تُسدينَّ إلىّ عارفةً   حتى أقومَ بشكر ما سَلَفا

لا تطلبه فى هذا ولا فى نظائره مما يتكثّر به غيرُه من الشعراء . فاننى أقسم لك بشاعرية أبى نواس على أنها ما جَلَت عليه قط مخافةَ نُطَف المشركين للرشيد ! ولا كان صادقَ الحسّ إذ دعا ممدوحه إلى ألاَّ يُسدى إليه العارفة ، فانه ما اجتمع لنظم القصيدة كلها إلا لاستخراج الصّلة ، واصطياد هذه (العارفة) ! ولا حرَّم ظهورَ تلك الأبل التى أبلغته الأمين ، ولا كانت نفسُه لتطيب منها بقَلوص[1] واحد فى غير نفع مادىّ ! اللهم إنه فى كل هذا الكلام لا يَصدُر عن طبع ، ولا يَعتَلج له حسّ ، ولا تترَقرَق به عاطفة ، إن هو إلاَّ التكلف فى اصطياد المعانى ، والصنعة فى خلق الأخيلة ، مباراةَ لشعراء العصر ، واستخراجاً لأموال الممدوحين ، فبهذا كانت تُستخرَج منهم الأموال .

كان أبو نواس فى جميع أسباب حياته شاعراً مفتناً إذ هو إلى ذلك رجلٌ مستهتَر، خلع مثانيه ، وتَحالَّ من كلّ ما يأخذ الناسُ به نفوسَهم فى هذا المجتمع ،

---

(١) القلوص من الابل : الشابه

أو ما ندعوه نحن فى عصرنا هذا (بالتقاليد) . فاذا رأيتَه يصف الخمر ويَغلو فى مدحها أشد الغلوّ ، وإذا رأيتَه يُرسل القريضَ فى ألوان العَبث ، فلا يتحرّج من قول ولا يتأثّمُ من نُكر ، ويبتذل فى هــذا من نفسه للناس بما يَضِن به أدناهم مروءةً على ذات نفسه ، مهما يكن فى سرٍّ من الناس . إذا رأيته كذلك فاعلم أنك فى شعر أبى نواس المفتنّ حقاً ، والمرسَل النفس حقاً ، والمنتضِح الطبع حقاً . أما إذا رأيتَه فى ذلك الذى أغلى أقدارَ غيره من الشعراء من المديح وغير المديح ، فاعلم أن الرجل قد خرج عن طبعه ، واطّرح شاعريتَه ، وراح يتكلّف القريضَ تكلفاً ، حتى إذا أصاب به رزقاً ، أقبل على نفسه واعتَنق شاعريتَه الحقّ ، ولا يزال فى شأنه هذا حتى ينفَدَ زادُه ، ويَرِقّ عَتادُه ، فلا يرى بداً من أن ينقلب إلى معالجة (المهنــة) ، وهكذا .

قال أبو نواس فى إحدى مدائحه يصف الناقة :

ولقــد تجوبُ بى الفــلاةَ إذا	صام النهــارُ وقالت العُفْرُ (١)
شَدَنيــةٌ رَعَت الحِمَى فأتت	مِلْءَ الحبــال كأنّها قَصرُ (٢)
تَثني على الحــاذَين ذا خُصَل	تَعمالُه الشَّزَرانُ والخَطْرُ (٣)
أمّا إذا رفعتْــه شامِــذَةً	فتقول رنَّق فوقَهــا نَسرُ (٤)
أما إذا وَضَعته عارِضَةً	فتقول أُرخِيَ فوقها سِترُ
وتُسِفُّ أحيــاناً فتحسِبُها	مُترسِّــماً يَقتــادُه إثْرُ
فاذا قَصَرتَ لها الزّمامَ سَمَا	فوقَ المَقادِمِ مَلْطَمٌ حُرُّ (٥)

(١) صام النهار : أى قام قائم الظهيرة ، وقال : نام فى القائلة ، العُفْر : الظباء
(٢) الشدَنِيَّاتُ من الابل : منسوبة إلى فحل من كرام الابل ، أو إلى موضع باليمن .
(٣) الحاذان : ما وقع عليه الذنب من الفخذين .
(٤) شمذت الناقة : شالت بذنبها . ورنَّقَ الطائر : خفق بجناحيه ورفرف .
(٥) المقادم من الوجه : ما استقبلت منه . والملْطَمُ : الخد .

وقال يصف النياق التى حملته إلى ممدوحه :

إليك ابنَ مُستنّ البطاح رَمَت بنا ... مقابَلةٌ بين الجديل وشدقمِ
مهارَى إذا أُشرِعْن حَرّ مَفازةٍ ... كَرَعن جميعاً فى إناء مُقسَّمِ
نَفخنَ اللغامَ الجعدَ ثم ضَربنَه ... على كل خَيشُوم نبيل المُخطَّمِ
حَدابيرُ ما ينفكُّ من حيث برّكت ... دمٌ من أظلٍّ أو دمٌ من مُخدَّمِ (١)

وقال غيرَ هذا وهذا فى وصف النياق ، ولكم وقف فى أشعاره بالديار ، وبكى النُّؤْىَ(١) والأحجار . فنَحَى فى قريضه مَنْحَى العرب السابقين ، وأتى بالجزل من اللفظ ، واستكثر من الغريب ، بحيث لو أُضيف أ كثرُ هـذا إلى بعض شعراء الجاهلية ، ما تفطَّن إلى مواضع الصنعة فيه من النَّقَدة إلاَّ قليل . ومع هذا كله فلم يكن به الشاعرَ المفتنَّ ، وإن شئت التعبيرَ الأدقَّ قلت إن أبا نواسٍ لم يكن به أبا نواس ، لأنه فيه حالكٍ مترسِّم ، لا يفضِى بذات نفسه ، ولا يُترجم عن شىء من حسِّه . ومالى أجهَد فى مذاهب التدليل ، وهـذا قول أبى نواس نفسه فى تهكمه وزرايته بهذا الضرب من الشعر يُعدّ أصدقَ دليل ، قال :

قل لمن يَبكى على رسْمٍ دَرَس ... واقفاً ما ضرَّ لو كان جَلَس
تَصفُ الرَّبعَ ومن كان به ... مثل سلمى ولبينى وخنَس
اترك الربعَ وسلمى جانبًا ... واصطبح كَرخِيَّةً مثلَ القَبَس

وقال :

لا تبك رسمًا بجانب السند ... ولا تجدُ بالدموع للجَرَدِ
ولا تعرّج على معطَّلةٍ ... ولا أثافٍ حلت ولا وتِدِ
ومِل على مجلس إلى شرف ... بالكرخ بينَ الحديق معتمدِ الخ

---

(١) حفير حول الخباء أو الخيمة يمنع السيل

وقال :

دع الأطلالَ تَسفيها الجنوبُ وتَبكى عهد جِدَّتها الخطوبُ
وخـلِّ لراكب الوَجناء أرضًا تُخَبُّ بهـا النجيبةُ والنجيبُ الخ

وقال :

عَاجَ الشقىُّ على رسمٍ يُسائله وعُجتُ أسألُ عن خمارة البلدِ
يبكى على طلل الماضين من أسدٍ لا دَرَّ دَرُّكَ قل لى مَن بنو أسدِ
ومَن تميمٌ ومَن قيسٌ ولفُّهما ليس الأعاريبُ عندَ الله من أحدِ
لا جَفَّ دمعُ الذى يبكى على حَجرٍ ولا صَفَا قلبُ من يَصبُو إلى وَتِدِ

* * *

فاذا شئت بعضَ مذهبه فى الحياة خالصاً ، فلعله يُغنيك فى هذا قوله :

تَركُ الصَّبوح علامةُ الإدبارِ فاجعل قَرارَكَ منزلَ الخَمَّار
لا تُطلِع الشمسُ المنيرةُ ضَوأَها إلاَّ وأنت فضيحةٌ فى الدارِ

* * *

لعله قد خرج لنا من كل ذلك أن أبا نواس إنما كان يجتمع اجتماعاً لنظم تلك القصائد الفَخْمة التى يَرفع بها كثرةُ النَّقَدَة شاعريتَه ، وكان يُلهب عصبه ، ويُشِبّ ذهنَه فى صُنع الأَخْيلة واختلاق فنون المعانى ، ويُذكى ذاكرتَه فى التماس ما عسى أن يكون جاز به من غريب اللفظ وَمجفُوّه . ليُكتَبَ له التقدم والتبريز على شعراء عصره ، فمشاكلةُ شعر الجاهلية فى عُرف بعضهم ، إنَّما كان السبيلَ إلى البراعة والتبريز .

ولقد يدلّ هذا منه ومِن غيره على كفاية كافية ، ولقد يدلّ على براعة فى نظم الشعر بارعة . ولكنه لا يدل قطّ على أن مفتناً يُترجم عن حِسّه هو ، أو بعبارة

أخرى ، على أن عبقرية ً تلهم ومُفتَناً يَستلهم ، أو على أن عبقرية ً تأمر ومفتناً لا سعى له إلا فى التدوين والتسجيل ! .

فاذا تطلّعتَ إلى شاعرية أبى نواس ، فالتمسها فى مَعَابثه ومَبَاذله ، والتمسها فى كل ما يبعث شعوره من منظر بَهيج ، ومقام ٍ يُذكى الحسّ ويَهيج .

التمس شاعريةَ أبى نواس الحقّ حيث يصف آثار مجلس شراب :

ودارِ ندامَى عطلوها وأدلجوا | بها أثرٌ منهم جديدٌ ودارسُ
مساحبُ من جَرّ الزّقاق على الثّرَى | وأضغاثُ رَيحانٍ جَنىٌّ ويابسُ
حبستُ بها صَحبى وجدّدت ُعهدَهم | وإنى على أمثال تلك لَحَابسُ
تدور علينا الراح فى عسجديّة | حَبتها بأنواع التصاوير فارسُ
قَرارَتها كسرى وفى جَنَباتها | مهًا تدّريها بالقِسِىّ الفوارسُ
فللخمر ما زُرّت عليه جيوبهُم | وللماء ما دارت عليه القلانسُ

وفى قوله يصف الخمر وساقيها :

إذا عَبّ فيها شاربُ القوم خِلتَه | يُقبّل فى داجٍ من الليلِ كوكبا
ترى حيث ما كانت من البيت مَشرقًا | وما لم تكن فيه من البيت مَغرِبا
يدور بها ساق أغنٌّ ترى له | على مستدار الأُذن صُدغًا معقرَبا
سقاهم ومَنّانى بعينيه مُنْيةً | فكانت إلى قلبى ألذّ وأطيبا

وفى قوله فى مثل ذلك :

نَبّهتُ نَدمانىَ الموفِى بذمتِه | من بعد إتعاب كاسات ٍ وأقداحِ
فما حسا ثانيًا أو بعضَ ثالثةٍ | حتى استدار وردّ الرّاحَ بالرّاحِ

*
* *

وحسبي هذا القدرُ من الاستشهاد ، وإلاّ هوَيت معه من النكر إلى قرار سحيق ، أسأل الله أن يغفر لى ويغفر له .

ولقد نرى عامّة شعره فى هذا سهلاً ميسَّراً حتى كأنه حديثٌ من الحديث . وهذا الذى تتقطَّع دونَه علائقُ القريض ! على أن أئمة البيان قد عرفوا له هذا ، وأجلُّوا به محله ، ورفعوه إلى الذروة بين نُظَّام الكلام .

وبعد ، فقد طال المقال وما زال فى النفس كلام عن أبى نواس كثير . وما دام الحديثُ عن مثل أبى نواس لا تَستوفيه إلاّ الأَسفارُ الضخام ، فطول المقال وقصره لعمرى فى ذاك بمنزلةٍ سواء . (والغَمرُ فيه تَستوِى الأَعماق) !

رجالٌ ينبغي أن يُذكروا*

ونقتصر اليومَ على ذِكر اثنين من هؤلاء الرجال . وهما المرحومان : الشيخ سلامة حجازى ، ومحمد أفندى العقاد . ولسنا نَعرِض فى هذا المقالِ للشيخ سلامة حجازى ممثِّلاً ، على مَعنى أن نَبحث عن درجةِ كفايتهِ من هذه النَّاحية ، ولا أثره فى التَّمثيل العربى ، فلهذا مَقام آخر . وإنما نَعرِض له باعتباره رَجُلا من رجال الموسيقى فى هذا العصر الذى نعيش فيه .

وقبلَ أن نخوضَ فى حديثِ الشيخ سلامة حجازى نذكر ، مع الأسف العظيم ، أن تاريخ الموسيقى فى مصر فى العهد الذى انتهى بالحملة الفرنسية فولاية محمد على مجهولٌ تماماً . فليس يَدرِى أحد ، فيما نعلم ، كيف كانت الموسيقى عند المصريين فى ذلك الزمن ، وكيف كانوا يؤدونها ، والنغَم التى كانت تَتصرَّف فيها ، ومن هم أشهرُ رجالها . فان ذلك ، فيما نعلم ، ما لم يستقصهِ أحدٌ ولم يتتبَّعه !

ولعل السَّببَ فى ذلك يرجع إلى أن (النوتة) لم تكن فى ذلك العصر معروفةً للمصريين ، فلم يَتهيَّأ لهم أن يُدوِّنوا بها أغانيَهم وترانيمَهم ليتعرَّفها خلَفُهم ، فذهبت كما ذهبت ، مع الأسف ، أغانى العَرَب وأصواتُهم . وضاعت صنعةُ مَعْبَد وابن سُرَيج ومُخارِق وابن عائشة وإبراهيم بن المهدى وإبراهيم الموصلى وابنه إسحق وغيرهم . ولم يعُدْ يُغنِى فى معرفتها أن هذا الصوت لفلان من خفيفِ الرمَل ، وأن هذا كان لحنُهُ من ثقيلهِ . ولا نعرف كيف كان ما يَجرى فى مَجرَى البِنصر ، ولا ما تتظاهر عليه السبَّابه والوُسطَى ، الخ تلك المصطَلَحات التى تَشيع فى كتاب (الأغانى) . وكذلك انقطع عِلمنا تمامَ الانقطاع بأغانى العرب وتلاحينهم .

* نشرت بجريدة المساء فى يوم ١٤ يناير سنة ١٩٣١



المرحوم الشيخ سلامة حجازى



وسنظلُّ كذلك حتى يُعثِرنا اللهُ (بحَجَر رشيد) آخر تُحَل به رموزُ الموسيقى العربية ، كما حَل شمبليون (بحَجَر رشيد) الأوّلِ رموزَ اللغة الهولغريفية !

نعم ، لقد ظلّت الموسيقَى المصريةُ مجهولةً تماماً من العصر القديم إلى الحملةِ الفرَنسيةِ فولاية محمد على فى جميع صوَرِها وأشكالِها وتلاحينها ، برغم ما يُحدِّثك به المقريزى وغيره من أن الخليفة الفاطمى كان يَخرج فى يوم وَفَاء النيل بالطبل الكبير ، ويَخرج فى مِهرَجان كذا بالطبل الصغير ! إلى أن كان الشيخ شهاب الدين صاحب كتاب (السفينة) . وقد فرغ من تأليفه من نحو تسعين سنة خلَت ، فجمَع فيهِ طائفةً جليلةً مما كان يُتَغنَّى فيه عصرَه وقُبيلَ عصره من الموشّحات والموالى وغيرها . وكشَف عن تلاحينها ، وضبَط أصواتَها ، ومذاهبَ النَّغَم التى كانت تَجرِى فيها . على أنه وإن لم يَضبط شيأً منها (بالنوتة) ، لأنه لم يكن يعرفها ؛ إلاّ أن أكثرها معروفٌ اليومَ بالسَّماع والتلقِّى لقُرب العهد . ولا زالت المصطَلَحَاتُ الفنيَّةُ التى أوردها فى سفينته معروفةً عند كل مَن يَجرى من صنعةِ الغناء على عِرْق .

ومما لا ينبغى أن تفوت الإشارةُ إليه فى هذا المقام أن بعض من هَبَطوا مصر حوالَىْ ذلك العهد من علماء الافرنج قد عُنُوا بضبط بعض ما سمعوه من الأغانى المصرية (بالنوتة) ، ومنه الأذان .

ومهما يكن من شىء فانه لا الشيخ شهاب الدين ولا هؤلاء الباحثون من الافرنج دل أَحدٌ منهم على مبدإ تلك الأغانى ، ولا كَشَف عن أول عهد مصر بتلك التَّلاحين التى هى أصلُ ما نتغنَّى فيه اليوم .

على أن مما لا يتقبَّل الشك أن الموسيقى التى انتهت إلى هذا العصرِ الذى نعيشُ فيه هى مَزْجٌ من موسيقى أهل العراقِ والشّام والترك . وإذا قلتَ الموسيقى العراقية أدخلتَ أثراً من الفارسية . وإذا قلتَ الموسيقى التركية ، فقد ألْمَمْتَ

بالروميّة والفارسيّة أيضاً . بل لقد تأثرت الموسيقى المصريةُ، فى هذه الأيام ، بالموسيقى الغربيّة . ولعل أكبر الفضل فى اتّساعِ موسيقانا باستعارتها كثيراً من تناغيم غيرنا فى هــذا العصر الحديث يَرجع إلى رَجُلين : أولهما المرحوم عبده افندى الحمولى ، فقد أدخل عليها كثيراً من تلاحين أهل الشّام ، وأهل حَلَب، على الخصوص ، كما أدخل عليها كثيراً من نَغَم الأتراك .

أما ثانى الرجلين فهو المرحوم الشيخ سيد درويش ، فلقد خَطَا بالموسيقى المصرية خُطوةً موفّقةً نحو الموسيقى الغربية . وأقول خطوة موفّقة لأنهُ كان حاذقاً لبِقاً لم يَصُكَّ جديدُه الأسماع ، ولم يَنشزْ طريفُهُ على الطباع ؛ على بُعد ما بين أذواقنا وأذواق القوم ، وشَطْح ما بين ما تستريح إليه آذانُنا وما تستريح به آذانُهم . وذلك على خلاف ما بيننا وبين أهل الشرق القريب من عراقيين وسوريين ، ومن تُركٍ ففُرس ، فان الفرق بيننا وبينهم فى هذا غير بعيد .

*
* *

وبعد هذا أعود بك إلى الشيخ سلامة حجازى، فلقد زعمتُ فى مقالٍ متقدّم[(١)] أن أول عهد مصر بالتمثيل فى اللغة العربية إنمـا كان على أيدى الفِرَق التى انحدرَت إلينا من بلاد الشام . ولقد كان من بينها واحدةٌ يتولّاها المرحوم الشيخ أحمد أبو خليل القبّانى . وكان رجُلاً جليلَ القَدر ، واسع العلم بأصول فن الغِناء ومذاهبه وطروقه . وكان إلى هذا مُرهَف الذوق ، إذا لحن صوتًا جاد وبَرَع وأطرب . ولكنه لم يكن على حظّ من كرَم الصوت ؛ بل لقد كان فى صوته غُنّة . فكان يلحّن للجماعة ويُنشد معهم ، وأحياناً يُناشدهم ، فيُبدع أيَّما إبداع ، ويَفتنُ بجَودة التنغيم وبراعة الإيقاع .

---

(١) يعنى الـكاتب بعض ما سلف له من المقال فى جريدة المساء .

ويريد المرحوم إسكندر افندى فَرَح من أرباب الفِرَق التمثيلية أن يُباريه . وهو إذا أجادَ التمثيل فإنه لا حظٌّ له من الغِناء ولا من التلحين . فكيف حيلتُهُ فى هذا ؟ . حيلتُه أن يَعمِد إلى فتىً ذى صوت كريم فيزجّ به فى فرقته ليُبارى به القبّانى ، ويَستدرِج الناسَ إليه . فوُفّق إلى الشيخ سلامة حجازى . ولعله يومئذ كان يتغنّى بالإنشاد على حَلَق الأذكار . وأشركَ معه أولَ الأمر سيدةً حَسَنة الصوت تُدعى لبيبة ، فكانا يُنشِدان معاً . ثم تخلّت لبيبةُ ، وانفرد الشيخ سلامة بانشاد القصائد التى يَنظمها له مؤلفو الروايات أو معربوها متصلةً بوقائع القصة . أو يُنشد مع الجماعة تراتيل تتصل بالقصة أيضاً ، أو تلاحين يُحيِّى بها فى مُفتَتَح التمثيل وفى مُختتَمه أولياء الأمر .

وبعد دَهر غيرِ قصير انفصل عن اسكندر فرح ، وأنشأ باسمه فِرقةً خاصةً لَقِيتْ نجاحاً عظيماً . وظل كذلك حتى أبطل الفالجُ نصفَه فى سوريا ، فانقلب إلى مصر . ولم يكد يُحسّ شيئاً من النّهضة حتى عاود التمثيلَ والغِناء . وإن أنْسَ لا أنْسَ ليلةً كان يُمثِّل فيها ، وهو على هذه الحال ، فى (تياترو) برنتانيا . وجاء الفصلُ الذى يُنشد فيه النظّارة ، ويُقْبل من خلَل الستور على المسرح ، ونصفُه ، واحسرتاه ، يُجرجِر نصفَه ، وينازعه على السير إلى أن يَستوى لموقفه . ثم يُغنى ويَجهَد ، والجمهور يصفق ويُلحّ فى الاستعادة ، والرجل يَمتح من رمقه ، ويَعصِر ما أبقى الفالجُ فيه من ذمَاء . ويعود الجمهور إلى التصفيق والاستعادة ، والرجلُ يحب أن يُواتيه بما يُرضيه ، ولو أتى الجهدُ على نَفْسه . فكان من ذلك منظَرٌ مُرعب ، لا أقول تجلّت فيه قسوة الكثرة من هؤلاء النظّارة . ولكن أقول تجلّت فيه الأَنانيةُ وإيثارُ نقع الغلة من الشوق إلى الطرب والتزوّد من هذا الصوت الموَلِّى للدهر الأطول . ولعل تلك الليلة كانت القاضيةَ على حياة ذلك الشيخ المسكين !

ولقد كان الشيخ سلامة حجازى رَبعةً ، قسيمَ الوجه ، حُلو الصوت ناصعه ، وكان صوتُه إلى هذا قويًا يرتفع ، فى غير كُلفة ، إلى أقصى ما ترتفع إليه الأصوات ، لا يختلّ ولا ينشر، ولا ينَبو ولا يتسلّخ ، ولا يزداد على هذا إلاَّ جَلجلة وحلاوة . ولكنه إذا تدلّى إلى القَرار تقلّص وتردد دون النفوذ إلى غايته . فكرَمُ صوته وقوتُه إنما كانا فى وسطه وأعاليه . أما أدانيه فلم يكن لها من ذاك حظّ كبير .

وعلى كل حال ، فان جوهر الصوت وحدَه وحسن الايقاع ليسا حقيقين بأن يُخلّدا اسمَ رجُل ، لأن أثر ذلك مقصورٌ على لذة الجلسة ومُتعة الساعة . إنما الذى يخلّده ويديم ذِكره ما يَستحدِث فى الفن ويترك فيه من الأثر . ولا شكَّ فى أن الشيخ سلامة قد استحدث فى فنون الغناء جديداً . وذلك هو طريقة إنشاده القصائدَ التى كان ينظمها له مؤلفو القِصص التمثيلية ومعرّبوها . وكانت طريقةً خاصةً لا هى تجرى على طريقة الموشحة ، ولا (الدور) ، ولا الموالى ، ولا الإنشاد على حَلَق الذكر ، ولا الأذان ولا ترتيل القرءان . وهى إذا اتصلت ببعض هذه المذاهب التلحينية من بعض أقطارها ، فان لها لَشخصيتَها واستقلالها . وكان منزعُها الغِنائى إلى تصوير الحال التى يقف فيها المنشِد من أحداث القصة ، ويُعبّرعنها بتصوير النغم بأبلغ مما يُعبّر بنظم الكلام . وهذه عندى ، الكِفايةُ الفنّيةُ التى ينبغى أن تُثبَت فى هذا الباب للشيخ سلامة حجازى .

ولقد كانت تلاحين الشيخ سلامة تُرجّعها حناجرُ الشباب فى كل مكان ، إلى أن قامت الفِرَق التمثيلية الحديثة التى ترسّمت آثارَ التمثيل الغربى ، فأبطلت الغناء فى المسارح ، إلاأن تكون الرواية من نوع (الأوبرا) . على أن هذا النوعَ لم يُصِب بعدُ فى التمثيل العربى أى حظٍّ من النجاح — تقول حين بطل الغناء من التمثيل العربى تقلّصت تلاحين الشيخ سلامة ، وانقبض الناس عن محاكاته شيئاً فشيئاً إلى أن زالت أو أطلّت على الزوال ، لولا أن إنشاده لقد يَعترى الأسماعَ



المرحوم محمد افندى العقاد

حيناً بعد حين على لسان الحاكى (الفونغراف) . وكذلك قُضِى على فنٍّ مع أننا فى حاجة إلى فنون !

* * *

محمد العقاد

أما ثانى الرجلين وهو المرحوم محمد افندى العقاد فكان ، غير مدافَع ولا مُشارَك ، أقدرَ رجل وأبدعَه ضَرَب على القانون من نحو ستين سنة خلت إلى اليوم الذى قُبِض فيه .

والعقادُ كذلك قَسيمُ الوجه، وسيمُ الطلعة. والعجيب أن تحضُرني الآنِ صورتُه، فاذا هو عظيم الشَّبَه بالشيخ سلامة حجازى !

والعقاد نيَّف ولا شك على السبعين ، إذا لم يكن قد أطلّ على الثمانين . فاذا أَسقطتَ من هذه السنّ عشرين أو ما دون العشرين (وهى سنو التعليم) فثق بأنه قضى الباقى المستأثِرَ بالزعامة والتقديم ، والمنقطعَ النظير بين جميع الضاربين بالقانون .

وقبل أن أَعرِض لفنّ العقاد أُقدم لك أن هذا الرجل ، على ما تَستدرج إليه مهنتُه من مقارفة ألوان من المعاصى بحكم السهر المتوالى ، وحاجة مجالس الغناء إلى ما يُذكى الحسّ ، ويَشد المتن ، ويُثير الشجَن ، ويُطير الخيال ، لم يذق الخمرَ قطّ ، ولم ينقطع عن أداء حقوق العبادة قطّ ، ولم يتنفس بالدخَان فى مجلس القرءان قطّ . وهو إلى هذا شديد الأدب ، جمّ التواضع ، عظيم التوافى للناس ، كريم اللسان فيهم . لا ترى أناملَه تجرى على أوتار قانونه إلاّ وهو ضاحكٌ أو مبتسمٌ مهما كَرَثَهُ من أحداث الزمن ! .

أما العقاد فى فنه فقد رُزق أولاً تلك المَوهبةَ الإلٰهيةَ التى يَختصّ الله بها من يشاء من عباده ما ندرى لها تعليلاً ، ولا نفقهُ لُمتَنزَّلها تأويلاً . وهى فى جماعة الضُّرّاب على آلات الطرَب ما يدعونه بحلاوة الأصابع . فلقد كانت أناملُ العقاد بالغةً من ذلك غايةَ الغاية .

وإننى ألفتك فى هذا المقام إلى شئ حقيق بالالتفات ، ذلك أنك ترَى رجلين يوقِّعان لحناً على العود أو القانون ، وكلاهما بمنزلةٍ سواء فى حَذقه وتجويده . بل فى كل نَبرة من نبراته ، وغمزة من غمزاته . ومع هذا تجد لأحدهما من الحلاوة والتطريب والشجا ما لا تجده لصاحبه ! . وتلك هى الموهبة التى حدثتك عنها . والتى ظفِرَت بأعظم الحظوظ منها أناملُ العقاد .

ويقع هذا الرجل ، من أول نشأته ، فى طريق نابغة الغناء فى مصر عبده الحمولى ، فيتّخذه ، ويهذّبه ، ويطبعه على محاكاته فى توقيعه وتنغيمه . فيُسايره العقاد ويُرضى بالقانون مطمَعه فى مذاهب غنائه ، حتى ما يَستريح عبده إلى الغناء فى الأعراس وفى مجالس الملوك والأمراء إلاّ إذا كان يَسنده العقاد .

ولقد كنتَ تجد لصوت قانون العقاد من القوة والرّوعة والوضوح والنصاحة والحلاوة ، وبراعة المطلع ، وسلامة المنزع ، وجلالة المقطع ، ما لا يمكن أن تجده لقانون آخر . وإنك أثناء هذا كله لا تشعر ، لولا أنك تمدّ بصرك ، أن هنالك أناملَ تصكّ الأوتار صكاً . ولكنك تشعر أن الأوتار تَتنغّم من تلقاء نفسها تنغُّماً !

وهنا ينبغى أن تُذكر لهذا الرجل مزيتان لعله لم يَشرَكه فيهما غيره من محترفى التوقيع على القانون : أولاهما أن المغنِّى إذا مدّ صوته بـ (ياليل ، ياعين) أو بمواليه أو بمقطوعاته ، فليس على صاحب القانون ، إذا أمسك المغنِّى ، إلاّ أن يُطلق أناملَه

بما يشاء ، ولكن فى حدود النغمة التى فيها المغنِّى ، ليستمرَّ مذهبُ الطرب فى آذان السامعين ، ولكيلا يَلتوى على المغنِّى نفسِه ما كان فيه حين يعود إلى وصل الغِناء . أما العقادُ فقد انفرد من بينهم جميعاً بأن يحكى كلَّ ما جال به صوتُ المغنِّى حرفاً بحرف ، ونَبرة بنبرة ، وغَمزة بغمزة . مهما أطال ذلك وكثر فيهِ تصرُّفُهُ ، وتردَّد فى أبواب النغم دخولُهُ وخروجُه . فكانت ذاكرةُ العقاد فى هذا عجَباً من العَجب !

أما مزيتُه الثانية ، فليس يخفَى أن أوتار القانون ترتفع على السَّبعين . وهى إلى هذا مُرهَفة الحسّ ، شديدة التأثر بالجوّ ، محتاجة فى كل تصرّف إلى شدّ أو إرخاء . ولهذا كثيراً ما ترى صاحبَ القانون ينقطع عن الجماعة ليُسوِّى بعضَ أوتاره . فاخترعوا لعلاج بعض هذا ما يدعونه (بالعُرَب) ، وهى قِطَع معدِنية فى شكل القروش تقوم تحت أوتار القانون ، يحركها الضارب فى تلك الأحوال فتغنْيه عن طول الانقطاع للشدّ والاصلاح .

ومع هذا لقد أنِف العقاد أن يُدخل هـذه (العُرَب) على قانونه ، واستغنى عنها (بعفق) أنامل يسراه . فلا هو ينقطع وينحبس للعلاج والاصلاح ، ولا هو يشدّ الأوتارَ بتلك القطع المعدِنية تُدخل على صوت القانون شيئاً تُحسه الآذان السليمة المرهَفة ، وإن غَفلَت عنه آذان سائر الناس .

ثم هذا العقادُ الذى قَضى زهرة الحياة مع سيد المغنين عبده الحمولى ، لقد دعته ضروراتُ العيش بعدَه إلى أن يَعمَل مع غيره ، ومنهم من لا يستطيع أن يغنى إلاّ على حساب قانون العقاد . ومنهم من يستطيع أن يَستقلّ بنفسه لولا أنه يريد زيادَة الإحسان بقانون العقاد ، وارتفاع الصِّيت بأن يُقرَن اسمه إلى اسمه . إلا أنه لوحظ فى مُؤَخِرات سِنيه أنه ما انفسح الموضع لتقسيمات العقاد ، وتواثبتْ

حاجات الطرب إلى إطالتها والتبسّط فيها ، إلاّ أقصر وأوجز وختم . وهو يَشهد استشراف الناس منه لكثير !

وعَلِم اللهُ ما كان ليفعل هذا ضنّاً على الناس ، ولا تَقيّة جهد ونَصَب . إنما كان يفعله مصانَعةً للمغنّي ، وخيفة أن يُعرِض الناس عنه فى طلب اطّراد العقاد بقانونه إلى غاية المجلس .

وهذا فِعلُ الحاجة ، وقاتل الله الحاجة ، فلقد طالما جَنَت من مفاخر الحياة ومُتَعها على كثير ! .



المرحوم الشيـخ سيد درويش

الشيخ سيد درويش*

سيداتى ، سادتى :

لقد فَرضتُ لنفسى إجازةً أستريحُ فيها من عناء أيِّ عمل ؛ على أن أعودَ إلى شأنى فى خلالِ شهر اكتوبر ، إذا أَذِن اللهُ ومَدَّ فى العمرِ وبَسَط فى العافية . ولكننى عوجلتُ بالدعوةِ إلى الحديث فى هذه الليلة . ولقد كان فى المعاذيرِ مَندوحَة ، لولا أن الحديثَ فى صديقى المرحوم الشيخ سيد درويش . وللشيخ سيد درويش عِندى مَقامٌ كريم .

وإذا كنتُ أحدثكم اللّيلةَ عن هذا الرّجل . فما كان حديثى عن رواية راوٍ أو نقل ناقل ؛ إنما هو من رؤية راءٍ وشهادة شاهد :

رَجُلان اثنان رأيتهما أولَ ما رأيتهما ، فاذا كلٌّ منهما فى مَبدإِ النَّظرِ من أصغرِ الناسِ وأخفّهم فى الميزان . ثم ما بَرِح كلَّ يومٍ يكبُر فى عينى ثم يكبُر حتى يَضيق به مَدَى النَّظر جميعاً ، وحتى أَصبَح وزنُه وتقديرُه مما ينوءُ بكلّ وزنٍ وكلّ تقدير !

هـذان الرَّجُلان الصّغيران الكبيران ، الدّقيقان الجليلان ، هما الشابّ العالم الهندى ضياء الدين أحمد ، والشابّ الموسيقار المصرى سيد درويش . وضياء الدين هذا هو الذى أحرز جائزة إسحق نيوتن ولما يَزل فى السادسة والعشرين !

ولندَعْ ذلكم العالِمَ الهندىَّ الآن ، ولنَمضِ بالحديثِ فى هـذا الذى نحتفل اليوم بذكراه :

فى إحدى سِنِى الحربِ العامّة كنتُ أَقضى شَطراً من الصّيف فى الأسكندرية ،

---

* محاضرة القيت من محطـة الأذاعة الحـكومية فى حفلة لأحياء ذكرى سيد درويش . ونشرت فى جريدة الجهاد فى يوم ١٧ سبتمبر سـنة ١٩٣٤ .

ولى صديقٌ سَرِىٌّ من أهل القاهرة يَقضى الصيفَ كذلك هناك . فدعانى ذاتَ عَشيةٍ إلى داره ، وأخبرنى أنه سمع بشابٍّ من أهل الأسكندرية يُجيد الغِناء ، وأنه قد وصَفه له فلان ، وأحسن القولَ فيه . فأرسَل فى دعوتِه ليُسمعنا شيئاً . فانقبضتُ ووَجمت . وكان لهذا منى سببٌ قوىّ ، فقد رُمينا فى عامنا ذلكم بكثيرٍ ممن يَتكلفون الغِناء ، هواةً ومحترفين . وتقدَّمَتهم ألوانُ المبالغات ، فلم نخرُج منهم إلاّ بصَكّ الآذان وتعكير الأذواق . وهممتُ أكثرَ من مرَّة بالانصراف ، وصديقى يُمسكنى ، ويُعالج تبرُّمى بفنون التّصبير والتّعليل !

شكله وزيه :

ثم أقبلَ علينا فلانٌ هذا ومعه شيخٌ معمَّمٌ ، مستديرُ الوجه ، أسمرُ اللَّون ، مَليحُ العَينين ، فى أنفِه شىءٌ من الفَطَس ، وفى فمه قليلٌ من الفَوَه . وهو إلى الطُّول . غيرُ بادِن الجسم وإن كان مُكتَنز اللّحم . نظيفُ الثوب ، يتأنَّق فى ثيابه برغم ما يبدو عليه من رِقَّة الحال . وهو ، فى الجملة ، مقبولُ الخَلق والشَّكل ، لا تَنقبض النفْس دونَه . فاذا داخلتَه بالحديث وباسطتَه فى السَّمر ، تكشَّف لك عن عُذُوبة نفس ، وظَرْف طبع ، وخِفّة رُوح ، وحُضور ذهن ، وإصابةٍ فى القول ، وأدبِ إيماءةٍ وخِطاب ، فسَرعانَ ما تَهفو نفسُك إليه . وتُحسُّها قد تهافتت من فَورها عليه !

هـذه هى الصُّورةُ التى جُليَت علىّ لسيد درويش فى أولِ مجلسٍ جَمَع بينى وبينَه . ولكن بَقِىَ الغِناء ! . . . ويا وَيلى مما سأَلقَى من هـذا الغِناء ، أو على الصّحيح من هذا العَناء . وصدق من قال : من لَسَعته الحيّة خاف من الحبْلِ !!! .

سيداتى ، سادتى :

من حقِّ هـذا الشُّعور الذى جلوتُه عليكم ، شُعورِ الكراهية ، بظَهرِ الغَيب ، لاستماعِ غِناءِ هذا الرجل أن يَلفِت الذِّهن إلى أمرين حقيقين بالنظر والتدبير :

١ — أنه إذا ساغ للمرء أن يُصانع فى الضرورات ، بل لقد يجب عليه ذلك فى بعض الأحيان ، فانه لا ينبغى له مُطلقاً أن يُصانع فى الكماليّات . فلقد تقضى عليه الضّرورةُ بأن يَتبلّغ بكِسرة الخبز اليابس ليَدفَع ألمَ الجوع ، وقد يَشرب الماء الآسِنَ ليُمسك عليه نفَسَه . أمّا أن يَطلُب الترفيهَ والتلذيذ فيقعدَ لسماع صوتٍ ناشزٍ على السّمع ، فى صَنعةٍ نابيةٍ عن الطّبع — فذلك ما لا يَسوغ ، لأن تركه خيرٌ من تناوُله .

٢ — أن الانسان متعصبٌ بالطبع ، لقد تَسبِق إلى نفسه كراهةُ الشئ ، لا لِعِلّةٍ واضحة ، ولا لحجّةٍ ناصحة ؛ بل لقد يَدخُل عليه هذا لمحض حِدسٍ أو سوء تقدير ، فما يزال كارهاً له نافراً منه ، حتى ما يُطيق أن يَسمع فيه قولاً معروفاً . ولو قد اطّرح تعصُّبَه ، وأقبَل عليه مخلصاً صادقَ الوَزن نزيهَ الحكم — فلربما تغيّر رأيهُ فيه ، فأَحبه وآثره ، وأنزله من هواه أكرمَ المنازل . وأغلبُ الظّنّ أنه لو أخَذا الناسُ نفوسَهم بهذا فى تناوُل الأشياء وبحثها والحكم عليها ، لخفّ كثيرٌ من هذه الأحقاد المَذهبيّةِ والحزبيةِ المتفشّيّةِ فى جميع بلاد العالَم فى طول الزمان !

* * *

سيداتى ، سادتى :

دُعىَ للشيخ بعُودٍ فجسّه وأصلَحه ، وجَعَل يَعزِف عليه وأنا مشغولٌ عن الأصغاء إليه بما مَلكنى من التبرّم والتكرّه لما سنُرجَم به فى ليلتنا من سَمِج الغناء ، متجهٌ بالرّغبة إلى الله تعالَى فى ألاّ يُطيل مدّته ، إذا لم يكتب لى من هذا المجلِس الفِرار .

ثم غَنّى الشيخُ بصوتٍ خَشُن مَطلعُهُ ، إن لم يزدنى بادئَ الرأى يَقيناً بما قدّرت ، فقد أَمسكَ علىّ بعض هذا اليقين . على أننى من باب المجاملةِ ، التى جرَت بها العادة ، كنت أتكلّف إظهار شئ من أمارات الاستجادة والاستحسان . وشهِد اللهُ ما بقلبى من هذه الاستجادة وذلك الاستحسان كثيرٌ ولا قليل !

ثم لم يرُعنى إلاّ أن يبعَثَ انتباهى ما كان يُصيب الرّجلُ فى تصرّفه من فنون النغم ، وهى على أنها طريفةٌ جديدة ، إلاّ أن طراقتَها وجِدّتَها لا تَنبو بها عن السمع ، ولا تخرج بها عن آفاق الذّوق ! فكنتُ أُحيل الأمرَ على محض المصادفة . وهذا لقد يقع لكثيرٍ ممن لا كفاية لهم فى صناعة الغِناء ولا سَداد .

ثم راح يُرجِّع مقطوعةً فى تلحينٍ يستوقف السمعَ بطَرافته وحُسن سَبكه . فسألتهُ عن ملحّنها ، فزعم أن ذلك من صنعته ، فأوقَع التعصُّبُ فى نفسى أن الأمرَ لا يَعدو إحدَى اثنتين : فامّا أن الرجلَ يَنتحل ما ليس له . أو أنهـا كانت منه بَيضةَ الدّيك كما يقولون .

ثم تفرّقنا على موعد . فلما كانت الليلةُ الثانية رُفِع لى من الرّجل قَدْر ، وصَحّ عندى أنه ممن يَحسُن الإقبالُ عليـه والإصغاء إلى غِنائه . ثم كانت ليلةٌ ثالثة ، فرابعةٌ فخامسة ، وهو فى كل ليلةٍ يزداد عندى قَدْراً على قَدْر ، ويَرجَح وزناً على وزن ، حتى لقد استطاع فى بضع ليالٍ أن يَغزُوَ كلّ تعصُّبى غَزْوا ، ويَقتادَ كلَّ سمعى وكلّ ذَوقى لِفنّهِ الجليلِ أسيراً .

* * *

ولقد كنتُ ممن حسّنوا للشّيخ سيّد التّحوُّلَ إلى القاهرة ، ففيها متّسَع لقَدْرِه ، فهى عاصمةُ البلاد ، وفيها فُحولُ المغنّين وحُذّاقُ أهلِ الفنّ . وبعدَ لأيٍ فعل . واتّصل من فورِه بنادى الموسيقى ، وكان حضرة رئيسه قد سمعه من قبلُ فى الأسكندرية ، فقدّرَه وأُعْجِبَ بكِفايته .

وعلى كل حال ، فاذا كان سيد درويش يوم مَهبطه القاهرة مَقدوراً فيها من خمسةِ نفرٍ أو ستّة ، فلقد كان يومئذٍ مغموراً عند عامّة أصحابِ الغناء وأسبابه بوجهٍ خاصّ ، وعند جَمْهَرَة الناس بوجهٍ عامّ !

ليتَ شِعري : كم سَنةً كان يَنبغى أن يَقضِى هذا الفتَى فى نِضالٍ وكِفاح حتى يُدرِكَ حظَه، ويرتفع صيتُهُ، ويُسلِّم له مَشْيَخَةُ أهلِ الفنّ بمكانِ الأمامة، ويَعقِدوا له لِواء الزعامة ؟ وأنتم أدرَى بأن خلالَ الغَيرة والحسَد والحِقـد قلّ أن تجد لها مَرعًى أخصبَ من صُدورِ أصحابِ الفنون . ولكن اسمعوا ! اسمعوا !

لم يَمضِ على مَهبِط هذا الفتَى بِضعةُ أشهر حتى رأيته يُغنِّى فى (كازينو) البسفور ومِن حوله أحذقُ العازفين وأجلُّهم فى مصر قَدراً، ووقف بين يدى (تخته) أئمةُ الفنّ من أقطاب نادى الموسيقى، وهو يغنّى صوتًا (دوراً) من تلحينه، ولعله كان من نظمه أيضاً : يغني ويَتصرّف، ويعلو ويَهبط، ويَتيامَن ويَتياسَر، ويَخرج من فَنّ إلى فنّ، ويَتعطَّف من نَغَم إلى نَغَم، ويُلِمّ بالقديم، ثم يَميل إلى ما أبدع من الحديث . وكل أولئك يَفعله فى خِفّةٍ ولَباقةٍ وقوة صَنعةٍ ورَوعةِ أداء . وتَرَى القومَ وقد أمسَوا كلُّهم رَهْنَ بيانه، وطَوعَ بنانهِ، وكأنه فيهم (دكتاتور) قد خَلَص له وجهُ السلطانِ كلِّه، لا اعتراضَ لقوله، ولا تعقيب لاشارته . وما شاء الله كان ! .

أسلوبه وصنعته :

سيداتى، سادتى :

لا تَنتظروا منى أن أحدِّثكم عن نشأة الرجل، وكيف دَرَس فنَّ النغم، وعمّن أخذ، وكيف تهيأ له أن يجدِّد ويَبتكر، وبماذا صارَت له هذه العبقريةُ الفَخْمة، فذلك ما لا أعرف منه كثيراً، على أن الوقت المقسومَ لى الليلة، أضيقُ من أن يَتَّسع لهذا القليلِ الذى أعرِف . وكيفما كانت الحال، فالمواهبُ مغروزةٌ فى أصحابها، والعبقريةُ كامنةٌ فى نُفوسهم، لا تَحتاج فى ظُهورِها وإيتائِها آثارَها الضِّخام إلاَّ إلى قليلٍ من التَّلقينِ والتوجيـهِ والإرشاد، وما أحسبهم جاؤا سيّدا

بأقطاب أهل الفنّ من أعلى معاهدِ الموسيقى فى العالم ، حتى تمّت له كلُّ هذه البراعة ، بل لقد أخذ الموسيقى عمّن أخذ عنهم كثيرٌ غيرُه ، فاذا كان هناك فرقٌ بينَهُ وبينهم ، فأنه كان أقصَر منهم مدّةَ تعليم وتمرين ، وقد تقدّم وتأخروا ، وبَرَع وجمَدوا ، ونَبُه وخملوا ، وذلك فضلُ اللهِ يُؤتيه من يشاء ، واللهُ ذو الفضلِ العظيم ! .

إذن فلنقصِرا الكلامَ على أُسلوبِ الرجلِ وصنعتِه ، وما أَحدَثَ من الأَحداثِ فى الموسيقى المصرية فى هذا العَصرِ الحاضر .

كان سيد درويش ، عليه رحمةُ الله ، متمكّناً من فنّ الموسيقى أيَّما تمكُّن ، واثقاً من نفسِه أيَّما ثقة ، وأكبرُ آياتِ هذه الثقة بالنفس أنه تقدّم إلى هذا التجديد ، وهو لما يزَل مغموراً مَنكورَ المحلّ . والتجديدُ ابتداعٌ ومطالعةٌ للجماهيرِ بغيرِ المألوف ، وقلّ أن يعمِد المرء إلى هذا قبلَ أن يذهب له فى فنّه صيتٌ وذِكرٌ يتّكئ عليهما فى جديده ، ويَصُدّ بهما صولةَ التعصُّب للقديم .

وليس كلُّ خطَرِ الرَّجُل فى أن يكون متمكِّناً فى فنّهِ ، عالماً بأصولهِ وفروعهِ . وليس كلُّ خطَرِ الموسيقى ، بنوعٍ خاصّ ، فى أن تَهديهُ كفايتهُ وعُظمُ مَقدِرتهِ إلى أن يَطلُع على الناسِ بجديدٍ فحسب . مهما كان هذا الجديدُ جارياً على أحكامِ الفنّ موصولاً بأسبابه . بل إن الكفايةَ كلّ الكفايةِ ، والبَراعةَ حقّ البراعة أن لا يَنشُزَ جديدُه على الآذان ولا تصطكّ به الأذواق . وكذلك كان جديدُ سيد درويش ، كما كان جديدُ عبده الحمولى من قبْله ، كلاهما أضاف إلى الموسيقى المصرية جديداً ، وكلاهما تصرّف فيها تصرُّفاً طريفاً ، فما نَبَا سمع ، ولا تَعثَّر طبع ، بل لكأنّ ما جاءا به إنما كان دَسيساً فى الطبع ، كامناً فى قَرارَة النفس ، حتى لتحسب أن كلّ ما لهما فيه من فضل ، إنما هو فى مجرّد الغَوصِ عليه واستخراجه من مطاوى الطباع ، وتجليتِه على الأسماع !

نعم ، لقد اتّسعت الموسيقى المصرية وأثْرت ، وأصابت صدراً محموداً من موسيقات الأمم الأخرى شرقيّة وغربيّة ، ولقد تمّ هذا الانقلابُ الخطير ، وإن شئنا قلنا تمّت هذه الثورةُ الكبيرةُ دونَ أن تُراق قَطرةُ دمٍ واحدة ، تمّ ذلك كلّه بفضلِ ذلكم الرّجلِ العظيم الذى نحتفِل بذكراه اليوم .

ذلكم بأنه عرَف كيف يتبسّط بموسيقى قومه ، وكيف يُسلِس لها ما أصاب من موسيقى غيرهم ، فأساغَتْهُ فى يُسر ، حتى أصبح موسوماً بالطابَع المصرىّ ، لا نُشوزَ فيه على سمعِ المصرىّ ولا التِواء !

سيداتى ، سادتى :

وبعد ، فان فنَّ هـذا الرجل ، فوقَ ما لَه من القُدرةِ القادرةِ على الاقتباسِ والابتكار ، يمتاز بخلالٍ أربع : أولاها القوّة ، فلا حظَّ فى تلاحينهِ للتفكُّك ولا للانخذال . وثانيتُها البراعةُ فى التصرُّف ، فهو يَتنقّل بسامعه من فَنّ إلى فنّ ، ويَتحوّل به من نَغَم إلى نَغَم ، فى اتّساقٍ وانسجام ، كأنه يتنزّه فى رَوضَةٍ نَسّقَت أغصانَها يدُ بُستانىّ صَناع . وثالثُها شُيوعُ الطَّرب فى تلاحينه . فمهما استَحْدَث جديداً يوجِبُ الإعجاب ، فانه بالغٌ الغاية ، ولو عن طريق الشَّجا ، من الإطراب .

أما رابعةُ هذه الخِلال ، والحديثُ الآن متَّجهٌ بنوعٍ خاصٍّ إلى سادتنا الملحّنين والمغنّين ، فهى الذّوق ، والذّوقُ البارعُ النّافذ ، فما إن لحّن سيد درويش فكان المعنَى شديداً إلاّ قوّى لحنَه ، ودعَم رُكنَه ، وشَدّ بالصّنعةِ متنَه ، فسمعتَ له مثلَ قَعقَعةِ النِّبال ، إذا استَحرّ القِتال ، أو مثلَ زئيرِ الآسادِ إذا تحفّزَت للصِّيال . وإذا جَنَح الكلامُ إلى اللّين كان لحنُهُ أرقَّ من نَسجِ الطَّيف ، وألطفَ من النَّسمة فى سُحرة الصَّيف . وما كان القولُ فى برِّ الحبيب بوعدِه ، ووفائهِ بعد طولِ جفائه وصدِّه ، إلاّ طَبَع الكلام ، فى أمرَح الأنغام ، حتى ليكاد الغِناء يَتمثّل لك عُصفوراً

يَثب فى الرّوض بين أغصانه ، ويَستقِلّ ما شاء من ذُرَى أفنانه ، وقد يَنَع بين يديه الثّمَر ، وضَحِك من حوله الزّهَر . وما كان الحديثُ فى التوسُّل والاستعطاف ، إلاّ أتَى بما يُلين أقسَى الكُبود ، ويكاد يُقطِّر الماء من الحجر الجُلمود . ولا كان فى وصفِ القطيعةِ وما فعلَت تباريحُ الهوى ، إلاّ وخزَ الحشا ، وأشاع الأسَى ، وأذْكى الشجون ، فتبادرَت الدموعُ من الجُفون . وهكذا !. . .

وبعد ، فالفَنُّ كلُّهُ ذَوق ، والعلمُ كلُّهُ ذَوق ، والحياةُ كلُّها ذَوق ، فمن أخطأه الذّوقُ فقد أخطأهُ كلُّ خير ! .

(وهنا أورد المحاضر بعضَ الأمثلة على ما يَقع أحيانًا من قلة الذّوق سواء فى التّلحين أو فى الأداء)

وأخيراً ، فاذا كانت هناك جهودٌ تُبذَل ، صادقةَ ماضيةً حينًا ، ومهوّشةَ متعثِّرةً أحيانًا ، للترجمة بالموسيقى عما يَعتلجُ فى النفسِ من ألوانِ العواطف ، وما يَتوارَد على الذّهنِ من شتّى الخواطر — فاننى لم أر أمرءاً فى عصرنا هذا كُتِبَ له من التّوفيق فى هذا البابِ ما كُتِب لسيد درويش .

لقد كان هـذا الرّجلُ إلى ما رُزِق من تَمامِ الذّوقِ وصِدقِ العاطفةِ مُرهَفَ الحِسّ جدًّا ، حتى تَتمثَّل له دقاقُ المعانى فى صُورٍ سَوِيَّةٍ تكاد تُرَى وتلمَس ، فاذا هو اجتمع ليُجريها نغماً ، حاول مخلصاً جاهِداً أن يصورَها لك كما تصوّرها ، فبلغ من ذلك ، فى الغالب ، غايةَ ما يَأذَن به جُهدُ التّلحين والتّنغيم .

ولست بهذا أزعم أن الموسيقى ، وأعنِي الموسيقى المصريةَ التى أتذوّقها ، تُترجِم عن ألوان العواطف وفُنون المعانى ترجمةَ البيان أو ما يَدنو من ترجمة البيان ، فان إيمانى ضعيفٌ بهذا كلَّ ضعيف ، وإنما أعنى مجرّد المشاكلةِ والمجانسةِ بين المعانى وبين ما يُصاغ لها من فنون التّلاحين .

وكيفما كانت الحال ، فان سيد درويش قد نجح نجاحًا لم يبلغ أحدٌ مبلغَه فى تلحين (الروايات) الاستعراضية ، فقد هَيَّأت الفرصةَ لبراعته فى الحكاية عن حال الجماعات والطوائف المختلفة بألوان التناغيم ، بحيث لو أُرسِلَت بها الأصواتُ ساذجَةً باغمةً لا تَدلُّ على معنًى ولا تُشير إلى غرض ، لَنمَّت وحدَها على من تترجِم عنهم ، وتنتحل الغِناء الذى ينبغى أن تلوكه ألسنتُهم وتمُطَّ به حلوقُهم !

وبعد ، فاننى أقدِّر أنه لو قد فُسِح لهذا الشاب فى الأجل ، لكان أقدرَ أهل العصر على تلحين (الأوبرا) ، العربية ، ولبَلَّغنا من هذا مُنْيةً لقد طالما تَعلّقت بها الآمال ، واستَشرف لها الخيال !

رحمه الله رحمةً واسعةً ، وعزَّانا عنه العِوَض الصالح الكفء . وما ذلك على الله بعزيز !

ملحق فى سيرة سيد درويش

يجمل بنا أن نورد هنا طَرَفًا مما وقع للكاتب بعد ذلك عن نشأة سيد درويش ومجمل تاريخه ، فأثبته فى محاضرة ألقاها من محطة الأذاعة أيضًا فى السنة التالية :

« نشأ سيدٌ فى مدينة الاسكندرية ، ولما ترعرع مضى به أبوه إلى الكتاب ، على عادة أوساط الناس ، فتعلّم القراءة والكتابة . وحفِظ صدراً عظيماً من القرآن الكريم ، إذا لم يكن قد حفظه كلَّهُ ، ثم دُفع إلى مدرسة أهلية ، وأدعوها مدرسةً على سبيل التجوّز ، فانها من تلكم المعاهد التى لا ترتقى إلى المدارس المعتبَرة ، ولا تتدلَّى إلى أُفق الكتاتيب ، وتلك المدرسةُ كانت تُدعَى « شمس المدارس » ، وتقوم فى حارة الشِمرلى الواقعة فى دائرة قسم الجمرك ، ويتولَّى إدارتَها رجلٌ يُدعى عبد القادر افندى الأيوبى .

وكان أستاذُ الرياضة فى هذه المدرسة رجلاً يُدعى نجيب افندى عريان ، وهو ممن كانوا يُنشدون مع المرحوم الشيخ سلامة حجازى ، فجعل يُلقِّن التلاميذَ أناشيد الشيخ و « سلاماته » ، فكان من أشدّهم إقبالاً عليها ونشاطاً فى الترنيم بها ، وأحرصهم على الدّقة فى أدائها هذا الفتى سيد درويش ، ويصحّ فيه المثل العامى : (الديك الفصيح ، يخرج من البيضة يصيح) !

وفى هذه الأثناء تُوفِّى والدُه فساءت حاله ، وترك المدرسة ، وراح يعالج حرفة النجارة ، على أن العيش لم يَطِب له فيها فلم يلبث فيها طويلاً ، بل انصرف عنها وألّف من فَوره فرقة تعاونه على إنشاد المولد النبوىّ الشريف .

ثم جَعل يُغنى فى بعض المجالس الخاصّة . وتعلّم ضرب العود على رجل يُدعَى الشيخ حنفى ، ثم أَقبل على الغِناء للجمهور فيما أُسميه على سبيل التجوّز « قهوة » ، يعاونه الشيخ حنفى هذا ضرباً على العود .

ثم تحوّل بفرقته إلى « قهوة » ليونانى قريبة من المحطة ، ثم انتقل إلى مقهًى صريح يقع على البحر بالقرب من (شادر) البطيخ ، وكان ذلك فى سنة ١٩١٦ ، ثم انتقل إلى مقهًى آخر كان يقع على ميدان المنشية الكبرى ، وهو فى كل تلك الأثناء يزيد عنايةً بالفنّ وتجويداً له ، كما يزيد إقبالُ الجمهور عليه وإعجابه به . . . لقد دلّت هذا الفتى موهبتُه الكامنة ، وهداه حسُّه المرهَف الدقيق ، إلى أن هذه الضروب التى تتغاير على سمعه من الغِناء ، والتى تتهاتف بها الحناجر فى محيطه ، لا تُسمن ولا تغنى ، أو بعبارة أخرى إنها دون مطالب الفنّ الرفيع بكثير ، لقد سَمع سيد كما يَسمع سائرُ الناس ألواناً من الموسيقى الغربية والتركية وغيرهما مما تتقلّب فيه الحلوق فى الشرق القريب والبعيد ، ولا بد أن نبراتٍ فى بعض هذا الذى كان يسمع قد لذَّت لسمعه ، وأصابت مدخلاً بديعاً إلى أطواء حسّه ، وحرّكت

دفين الطرب فى قَرارة نفسه ، ولا يجد لها أشباهاً فيما يسمع من إخوانه المصريين . وللرجل كما تعلمون أُذنٌ موسيقية ، وله حِسٌّ مُرهَف ، وفيه ذَوق تامّ دقيق .

إذن لقد بان له ، على الجملة ، أن فى الموسيقى المصرية على الحال التى شهِدها قصوراً ، وأنها تتخاذل عن الكثير مما يُنعِّم الذوق ، ويَنفُذ بالحسّ ، ويترجم عن شتى العواطف التى تَعتلج فى الصّدور .

وليت شعرى : كيف له بأن يواتى طلبته ، ويَحذِق هذا الفن كما ينبغى أن يُحذَق ، ومصر أَضيقَ من أن تتّسع لهمّةٍ أو تُدنيه من مطمحه » .

ولقد سافر فى سنة ١١ إلى الشام وأقام دهراً فى حلب ، وهناك أخذ عن أقطاب الموسيقى ما أذكى موهبته ، ووسّع فى أقطار فنّه . وقيل إنه مضى إلى الآستانة فى هذه الرحلة ، وهذا ما لا أقطع به .

« ولقد عاد الشيخ سيد درويش إلى مصر بعد أن تزوّد لشأنه أكرمَ زاد ، وادّرع للمَيدان بأمتن العُدّة وأحسن العَتاد ، وكان من أوالى بِدعه فى جِدّ تلاحينه (دور : ياللّى قوامك يعجبنى) وقد صاغه من نغمة (النكريز) ، وأكبر الظنّ أنه لم يكن لموسيقار مصرى عهدٌ بهذه النغمة من قبل . وقد أجاد سيد فى تلحين هذا (الدور) وخَلَب وراع ، فوق أنه طبعه على غير غرارٍ معروف فى مصر ، وصاغه على غير مثالٍ قديم فيها أو جديد !

وظلّ ، رحمه الله ، من ذلكم العهد يَبتكر ويَبتدع ويجدِّد ، ويسلك بالموسيقى المصرية شعوباً ، ويَستحدِث فيها طروقاً ، حتى كان لا تغيب شمس أو تُشرق شمس إلاَّ أتَى بجديد ، وطلع على الأَسماع بطريف ، وكلُّهُ من الطراز الفاخر الثمين .

الشيخ احمد ندا*

عزيزٌ عليّ ، وعزيزٌ عَلَى من شهِدوا من أهل مصر هذا الجيل ، ومن شهِد
فيها أواسطَ الجيل الماضى أو أعقابَهُ . عزيزٌ علينا جميعاً أن يُرسَل علينا نعىُ المرحو
المغفور له الشيخ أحمد ندا . وأنت دائماً إذا ذكرتَ الشيخ ندا فى هؤلاء ، تمثـا
فيه شيئاً جليلاً عظيماً . تمثّلوا فيه عُنصراً كبيراً مما تتسق به الحياةُ فى مصر ، و
تنتظم به ثروتُها الأدبية . كذلك كان أحمد ندا ، وكذلك يتمثّله القائمون مر
هؤلاء فى الحياة ما داموا فى هذه الحياة :

ومن عَجَب أن يموت أحمد ندا فى نفس اليوم الذى يموت فيه حافظ إبراهيم
فيُضرَب هذا البلد فى يوم واحدٍ ضربتين قاسيتين حتى على أغنى البلاد وأحفل
بعظماء الرجال !

ومن أعجب هذا العجب أن هذين الرجلين ، وإن اختلفتْ فنونُهما وتفارقت
فِى أبواب العظمة وسائلهما ، كانت تجمع بينهما خَلّة جليلة الخطر ، بعيدة الأثر
وهذه الخلّةُ هى شعورُ كل منهما أبلغَ الشعور بالكرامة فى فنِّهِ . وأن أحداً منه
لا يُطيق أن يَبرَعه أحدٌ أو يسبِقه إنسان ، إذا استنَّ الأقرانُ فى حَلبة السباق

نعم ! وليردّدها القارئ عني كما يشاء ! ليست الموهِبةُ وحدَها هى التى ارتفعت
بكلا الرجلين إلى هذا المـكان ؛ فلقد كان للشعورِ بالكرامة ، ومواتاتها بغاية
ما يترامى إليه العزمُ والقوة أثرٌ جليلٌ فيما بلغا من المنزلة و بُعد الصيت فى جمهرة النابغين

ولنكسِر القولَ هذا اليوم على الشيخ ندا ، فلصديقى حافظٌ بعدُ كلامٌ طويل .

كان الشيخ أحمد ندا ، عليه رحمة الله ، رَبعة القوام ، مكتنِز اللحم و إن ترهّل
لحمُهُ فى غاية العمر بتراخى السنين . وكان وجهُهُ أشبهَ بمربَّع مُتحيَّف من زواياه

* كتبت عقب وفاته ، ونشرت بجريدة الأهرام فى يوم ٥ اغسطس سنة ١٩٣٢



المرحوم الشيخ احمد ندا

الأربع ؛ على أنه كان قَسيما حُلو العينين ، حلو الفم على فَوَهٍ فيه قليل . تَضرب فى بياض لونه صُفرة لا أدرى إن كانت من الخِلقة أو من مرض طارئ دخيل .

وكان إذا تحدّث تفخَّم عليه اللفظ ، فخرجَت تاؤُه بين التاء والطاء ، وخرجت زايُه بين الزاى والظاء ، وسينُه بين السين والصاد . وهو بعدُ حَسن السَّمت ، حَسن الدَّل ، متأنّق الهندام ، يُـكوِّر عمامتَه على نَسَق خاص يترسَّمه فيه كثير من المعمَّمين ، وخاصة جماعة القراء .

وكان ، أثابه الله ، كأمثاله العظماء بالحق ، جَمَّ التواضع ، وافرَ الأدب . لا يَذكر الناسَ ، إن هو ذكَرهم ، إلاَّ بالخير عظيمَ التوافى لمن يعرفهم ، طلاَّعاً عليهم ما اعتراهم المكروه .

***

كان أبوه ، ويُدعى الشيخ أحمد ندا أيضاً ، مؤذِّناً فى مسجد السيدة زينب رضى الله عنها . ولم يكن صوتُهُ ، على ما انتهى إلينا من خَبره ، على حظّ من الملاحة ؛ ولكنه كان جهيراً قوياً يبالغ من سمعوه فى قوته وجهارته إلى الحد الذى لا يُسيغ روايتَه الرجلُ المَرِيء . ولقد شهِدنا الشيخ أحمد ابنَه وسمعناه وعَرَفنا ما أُوتِى من قوة فى الصوت لعلنا لم نسمع مثلها إلا من الأقلّ من القليل . إذن فقد زلَّت[1] له هذه الخَلة بالميراث عن أبيه .

مات الشيخ أحمد ندا الكبير ، وترك ولديه حامداً وأحمد فتيَين ، فوُصِل حامدٌ وهو أسنهما ، بمنصِب أبيه ، واتـكأ أحمد فى عيشه على ترتيل القرآن فى مُهمِّ الناس من المناحات والأعراس ونحوها على سُنَّة (الفقهاء) فى هذه البلاد .

ويوم دَرَج أحمد ندا فى هذه السبيل كان المقدَّمون من حُذَّاق القراء الذين طار صيتُهم فى البلاد كل مَطَار ، هم الأشياخ الثلاثة محمود القَيسونى ، وحسين

---

(١) جائته

الصوّاف ، وحنفى برعى . على أن أولهم لم يكن يُؤجَر على القراءة فى أسباب الناس ، لأنه كان المؤذِّنَ الخاصَّ لولى الأمر . وإن كان يجامل أحياناً بالترتيل فى بيوت من يُؤثرهم من العظماء فى مهمّهم . فلم يكن فى المَيدان ، فى الواقع ، من قرّاء الطبقة الأُولى إلاّ السيد حسين الصواف والشيخ حنفى برُعى ، وسَرعان ما وُصِل بهما القارىء النابت الشيخ أحمد ندا !

وأنت ترى من هذا أن ندا لم يَنبُه بعد خُمول ، ولم يطاوله الزمن فى المواتاة بارتفاع الصيت . وكان إذا اجتمع ثلاثتُهم للتلاوة تقدّم السيد حسين الصوّاف لعلوّ سنه ، ولحَسَبه ومنزلته فى كرام الناس ، ثم قفّى على أثره الشيخ حنفى ، ثم أحمد ندا لأنه أصغر الثلاثة فى عدد السنين .

على أننا لم ندرك السيد الصواف إلاّ وهو فى أعقاب العمر ، فلم يتهيأ لنا أن ننعَم بصوته ، أو نتذوّق فنّه ، إما لأن صوته كان قد علاه الشيب ، أو لأننا نحن كنا أحداثاً لا نُدرك فى هذا الباب ما يُدركُ الرجلُ التامّ ؟ فكان الصّراع لأول عهدنا دائمَ الشُّبوب بين الشيخ حنفى برعى و بين الشيخ أحمد ندا .

وكان الشيخ حنفى ، رحمه الله ، رجلاً مكوّر الوجه ، مكوّر الجسم ، تحسبه إذا جلس إحدى القُدور الراسيات ، وكان على هذا حُلوَ الصوت دقيقَه ، أشبه ما يكون بصوت العود يتلعَّب بأوتاره الحاذقُ الحُسّان ، وكان إلى هذا على حظ من الفنّ عظيم ، يقرأ على طريقته التى ابتكرها هو ابتكاراً واحتذاها بعدُ كثيرون .

كان الصراعُ كما حدَّثتُك بين الشيخين عنيفاً دائماً ما اجتمعا ، فيكون الغَلَب لهذا مَرة ، ولهذا مَرة ، والسامعون هم الفائزون على كل حال . وكانت لهما مواسم يَطلبها الناسُ من كل مكان ، وكان أجلّها وأفخرها فى بيت المرحوم داود بك العيسوى فى مولد الحُسين بن علىّ رضى الله عنهما .

على أن الشيخ أحمد ندا ما زال يَقوى ويَشْتدّ ، ويُبدع ويَفتنّ ، إذ الشيخ برعى ما بَرِح يضعف ويَهزُل حتى أسلم سلاحَه وخرج من الميدان بسلام .

* * *

نعود بعد هذا إلى صوت الشيخ أحمد ندا وفنّه وطريقة أدائه :

لم يكن صوتُ الشيخ ندا حُلواً بالمعنى الذى يُدرَك من أصوات مثل المرحومين الشيخ يوسف المنيلاوى وعبد الحى افندى حلمى ، ولا من مثل صوت الآنسة أم كلثوم وصالح افندى عبد الحى ، ولكنّ له جَمالاً من نوع خاصّ ، فلقد كان قوياً شديد القوّة ، يرتفع إلى ما تتقطّع دونهُ علائق غيره من الأصوات ، وكان مع هذا عريضاً بعيد العَرْض ، حتى إذا جَلجَل وانصقل ، صار أشبهَ فى وضوحه وبُعد عَرْضه بصَفحة الافُق ساعةَ ينصدِع عمودُ الصباح .

وعلى أن مثل هذا الصوت ، إن كانت له مَشابه ، مما يتعذّر معه إحكامُ النَّبرة (العَفق) سواء فى بعض الترنيمة أو فى غايتها ، فانه لم يكُ يَلحَق ندا فى هذا الباب إلاّ الأقلّون ممن رُزِقوا رقةَ الأصوات ولينَها . ومن هنا تدرك قَدر الموهبة التى أُوتيها أحمد ندا فى هذا الباب . فان لم يكن الأمرُ فيه إلى الموهبـة ، فقدِّر ما كان يَلقاهُ ذلك الرجل فى هذا من عظيم العَناء !

وقبل أن نجاوز هذا الموضعَ من صفات الرجل ، نقرر أن صوته لم يكن له حظٌّ كبير فى قراراته ، أو ما يسميه أهلُ الفن (بالأراضى) ، بل لقد كانت أرَضُوه واضحةَ الأقفار ، حيث كانت ثروتهُ كلُّها فى أثنائه (البدنية) ، وفى أعاليه ، فكان لهذا دائمَ الاتكاء عليهما فى ترجيعه عامَّةَ ليله ، فلا يتنزَّل إلى قراره إلاّ ليُصيب راحةً ضئيلةً يَستَجِمّ فيها ، فى الوقت نفسه ، لوثبة يرتفع فيها إلى عَنان السماء !

أما فنُّه ، وهنا التفت بالكلام إلى الأستاذ التفتازانى ، وقد كتب عن الشيخ ندا فى (الاهرام) كلاماً طَريفاً ذهب فيه ، إن صدقت ذا كرتى الكليلة ، إلى أنه رحمه الله كان يجرى على عِرْق عظيم من العلم بفنّ الموسيقى ، وهذا لا يُشايع الواقعَ فى كثير ولا قليل .

وقبل أن أخوض فى هـذه المسألة أقرر ، كما قررت من قبل فى مناسبات كثيرة ، أن الفن شىء ، وأن العلم بالفن شىء آخر ، فليس كلُّ مفتنّ عالماً بالفن وأصوله وقواعده ، وليس كل عالم بالفن وأصوله وقواعده من المفتنّين .

إنما مَلَكةُ الفن ترتكز فى أصلها إلى الموهبـة . أما العلم بالفن فمرجعه إلى الدرس والمذاكرة وطول النظر . وشتَّانَ ما بين هذا وهذا !

بعد هذا أُصارحه غير متحرِّج ولا متحرِّف عن مكان الحق ، ولا متنقِّص لقَدر هذا الرجل الذى أتجرد اليوم لذكره إيثاراً له وهُتافاً بفضله العظيم ، أصارح صديقى الأستاذَ بأن الشيخ أحمد ندا لم يكن على حظ جليل فى علم الموسيقى ، بل لعل علمه به لم يزد على إدراك أوَّليات النغم بما تلقَّف فى صدر نشأته من لِداته : هذا صَبا ، وهذا سيكاه ، وهذا عراق ، وهذا جركاه الخ . أما أنه تلقى هذا العلم وحَذَقه أو عُنِىَ عنايةً جليلةً به ، فهذا لم يَقم عليه أىّ دليل ؛ بل لقد أعلم ويعلم كثيرٌ غيرى ، وليس هذا لحسن الحظ بغاضٍّ من قدر الرجل ولا بمتحيِّف من عظمته العظيمة — لقد أعلم ويعلم كثير غيرى غيرَ ما تقول :

فان شئت الواقع ، فالواقع أن أحمد ندا لم يكن عالماً قطّ بالموسيقى ، وإنما كان فنّاناً حقَّ الفنّان ، وكان حُسانًا كل الحُسان كان من أولئك الأفذاذ الذين بعث الله فى نفوسهم تلك الموهبةَ النيِّرةَ التى تشقّ وحدَها فى الفن طريقَها

فتُعبِّدُ فيه سُبلاً ، وتمهّدُ له طروقاً ، وتخلُق فيه أحداثاً لم تكن خُلقت من قبل .
وهكذا كان الشيخ أحمد ندا . وهكذا أبدع فى فن ترتيل القرءان بِدَعاً لا عهدَ للناس بها من أول الزمان . ولن يزال يَترَسَّمها القارؤون إلى بعيد من الزمان .
فالشيخ ندا من أحد أولئك القلائل الذين لم يُجدِ عليهم العلمُ بالفن ، و إنما أجدَوا هم على الفن بما رُزقوا من ســلامة الفِطَر ودقة الأحساس ، وتلك المواهب العظام !

وهؤلاء أشبه بالقُمرىّ إذا سجَع وغَرَّد ، و بالجدوَل إذا تعطّف فى الرّوض وتأوّد . و بالبدر إذا استوى فأشرق نُوره ، و بالوَرد إذا تفتّح فسَطَع عبيره ، اسأل ما شئت من هؤلاء كيف صنع ، وعمّن أَخَذ وعلى يد مَن برَع . وخبرنى بعد هذا الجواب .

***

أما أُسلوبه وطريقة أدائه ، فلقد جَعل من أول نشأته يحاكى الشيخ حنفى برعى ويَستَنُّ سبيله ، ويَنهجُ مَنهَجه . وكذلك كان في عامَّة ترتيله ، اللهم إلاّ ما كان يَستحدثه ذوقُه الخاصّ . وكان هــذا قليلاً بالاضافة إلى سائر شأنه . ولقد أدركناه نحن وهو فى أُسلوب أدائه على هذه الحال . وتأبى عليه كرامتُه الفنية إلاّ أن يُحدث كل يوم حَدثاً فى الصنعة من مبتكَره هو ومن بدع ذَوقه ، يَطرح بأزائه شيئاً مما أَخذ عن أستاذه الشيخ حنفى ، حتى استوت شخصيتُه وأدركت ، وتمّت له صنعةٌ جديدةٌ فاخرةٌ فى فن القراءة والترتيل .

كان الشيخ ندا رجلاً صائداً لا يُخطئ سهمُه ما سنحت له الرمِيَّة . ولقد كانت تعتريه (الحركة) فى بعض ترتيله عفواً ، ما اجتمع لها ولا أسلف لها

تقديراً ، إذ هى طريقةٌ لم تجر من قبل على مثال فما يزال يكرّ عليها ويردّدها فى مختلف الآى حتى يحذفها ويضيفها إلى فنه السرىّ الجليل !

ولقد كان يبدأ قراءته ، وخاصة فى نوبتهِ الأولى ، مضعوفاً متخاذلاً حتى ليكادُ يكون ترنيمه ضرباً من الحشرجة ؛ وحتى يحضرك قولَ الشاعر :

إنّكَ لو تَسمَع ألحانَهُ تلك اللّواتى ليس يعدوها
لَخِلْتَ من داخل حُلقُومِه موَسوَساً يَخنُق معتُوها

وإنه أثناء هذا ليكثر من التسعُّل والتنحنح ، ولا يزال يدور بصوته الأجشّ المهزوم على فنون النغم لعله يوافق فى إحداها بعضَ الفرج ، فيدركك اليأسُ كلُّهُ من أن الرجلَ فى ليلته تيك مستور . وكلما زاد صوتَه عِلاجاً ومُطاولةً أقبل عليهِ هذا الصوتُ بشىء من المواتاة ، وأحسّ منهُ سامعهُ بشىء من الانتعاش أشبهَ بما يُحسّ العليل أحياناً فى مِرضَته الأخيرة ، وربما عاوده الانتكاسُ فعاود هو المراجعةَ وشدةَ المطاولة ، ولا يزال على هذا حتى يستوى قارئاً عادياً لا فضلَ له ولا امتيازَ على غيره من جَمهرة القراء ، حتى إذا أدّى قَسمهُ أخلى الميدان لِقرنهِ فجال فيهِ ما شاء الله أن يجول ، وصال على الشيخ ما شاء أن يصول !

فاذا جاءت نوبتُهِ الثانية واستوى فى مجلس الترتيل ، رأيتَ فيهِ فتاء وقوةً لا عهد لك بهما من قبل ، وخرج صوتهُ مرُناً واضحاً ليس عليهِ من الصَّدإ إلاّ قليل . ويقرأ ثم يقرأ ؛ على أنهُ لا يأخذ فى قراءتهِ سَمتاً واحداً ؛ بل ما يبرَح يترجّح بين فنون النغم ؛ ولكنَّ تحيُّره هذه المرةَ ليس فى التماس النغمة التى تُعيذه وتَعصمه ؛ بل فى التماس تلك التى تُضنيه وتُتعبه ، إذ صوتُه فى أثناء ذلك يقوى ويشتدّ ، ويعلو ويصفو ، حتى يَصير أوضَحَ من فِرِند سيفٍ خرج لساعته من الصَّقَال .

وَينطلق فى طلب الصَّيد من هاهنا ومن هاهنا ، ولا يُرِيغ من النغَم إلاَّ الأوابد . فاذا أصاب قَنيصتَه راح يُلوِّن لها الافتراسَ ألوانا ، ويُشكِّل لها الالتهامَ أشكالا ، فما يدَعها إلا (أعْظُمًا وجلوداً) ، وهو أثناء ذلك يُقيم الناسَ ويُقعدهم ، ويَطويهم وَينشُرهم ، ويُذيقهم المهولَ الرائعَ من الطَّرَب والانبهار . وما شاء الله لا قوةَ إلا بالله !

وهو رجلٌ جرىءٌ جداً فى بابه ، لم أر من يَعدِله فى جَراءته إلا أن يكون الاستاذُ الشيخ على محمود ، وصل اللهُ فى عمره . فلقد كان الشيخ ندا رحمه الله يكون فى أعلا طبقات الصوت إلى الحدّ الذى يُعلِّق له السامعُ النفَس ، ما يظُن أن وراءه لصائح مَدى ، إلاّ أن تتصدّع الحنجرة أو ينفجِر الوريد . ثم تَتنظَّر له من جانب السماء نغمةٌ جديدة ، فسَرعانَ مايتجمَّع لها ، فما يزال يَمُطّ صوتَه القوىّ الجرىء إليها ، ولقد تراوغه بادئَ الرأى ، فلا يَبرح يَتحرَّف لها متيامنًا تارةً ومُتياسِراً أُخرى . حتى إذا شكَّها زرَّ حَنجرتَه عليها ، فخرجت له ، على هذا الجُهد كلّه ، نبرةً لينةً حلوة ، لا عُسر فيها ولا كُلفة ، كأنما أصابها وهى تدِفّ[1] على ظهر الأرض لا تحلِّق فى عَنَان السماء ! . ولقد أبت عليه كرامته فى تلك المواقف المهولة أن تَزلّ به قَدم ، أو ينشزُ عليه ما أراغَ من النغَم ! .

ولو قد هُيِّىء لك أن تَسمعه فى نوبة ثالثة ، فتلك التى لا يَتعلَّق بها وصف واصف ، وسبحانَ الخلاق العظيم !

*
* *

ولقد عاش الشيخ أحمد ندا ، على هذا ، خمسين سنة أو تزيد قليلا أو تنقص قليلا ، قضَى منها سنينَ طِوالاً لا يكاد يَستريح من السهر ليلةً واحدة . ولقد

(١) دف الطائر : حرك جناحيه

يَسهر الليلة فى أسيوط ، ويَسهر الليلة التالية فى المحلة الكبرى مثلا ، فيُجلجِل ف
الثانية كما يُصلصِل فى الأولى ، ما ترى على صوته أثراً لضعف ولا انخذال ! .

وإذا كان تاريخُ الغِناء العربى قد أحصَى نفراً ممن عُمِّروا فيه مع القوة وسلام
الصوت من أمثال إسحاق الموصلىّ وابن جامع ، فقد امتاز الشيخ ندا عن أولئك
جميعاً بأنه أمضى جميع تنغيمه بذلك الجهد الشنيع . فهو بلا شك رجلٌ فى التاريخ
عظيم . ولولا أن الحديث قد طال لذكرتُ كثيراً من مفاخره فى لياليه ؛ وإن من
حقه على معاصريه أن يُثبتوها له على وجه الزمان .

وإنى لأختم هذا الكلام بتصحيح واقعة أيضاً رواها السيد التفتازانى عن الفقيد
فيما أبّنه بهِ فى الأهرام . فلقد روَى أن الشيخ أحمد ندا انقطع بضع سنين إلى الغِناء
وترك ترتيل القرءان ! . والواقع ، وأنا فى هذا شاهدُ رؤية ، أن الرجل لم ينقطع
قطّ عن ترتيل القرءان والتكسُّب بهِ . ولكن أتى عليهِ وقتٌ كان إذا ختم تلاوته
فى حفلة عُرسٍ أو نحوه ، جاؤوه بعوّاد فاستوَى إليهِ وجَعل يَتغنّى ببعض المقطوعات
وكثيراً ما كان يُرجّع أبياتاً من الشعر أذكر أن أولها[1] :

عُمرِى عليكَ تشوُّقاً قضّيتهُ وعَزيزُ صَبرى

على أنهُ كان يَتغنَّى على طريقتهِ فى القراءة ، فكان غِناؤه سخيفاً مضحكا .
وإن غناءَ القراء لأشبهُ بشعر الكتّاب ، كما أن تلاوة المغنّين أشبهُ بنثر الشعراء ! .

(١) لقد تفضل أستاذى العلامة الشيخ عبد الوهاب النجار فاستدرك على فى الأهرام ، فصحح
هذا الشعر فى كلام لا أستحقه إلا بمحض عطفه على صديقه ومريده ، فروى حفظه الله أن صح
البيت هى :

عمرى عليك تشوقا قضيته وعزيز صبرى فى هواك أهنته

وبعده :

وجعلت أبذل فيك در مدامعى حتى افتقرت إلى العقيق بذلته

ومهما يكن من شيء فانهُ لم يَلبث فى هذه المحنة طويلا ، فلقد ترك الغِناء بَتاتًا وتوفَّر على تلاوة القرءان الكريم .

*
* *

هذه كلمةُ حقٍ أُرسلُها خالصةً لوجهِ الله تعالى ، وفاء لحقّ التاريخ أولا ، ولحقّ الصحبة الطويلة والجُوار السعيد ثانياً .

وإنى أسأل الله تعالى أن يُثيب الفقيد العظيم بقدر حسناتهِ ، وأن يعزّى هذه البلادَ عنهُ أحسَن العزاء .

غنى يا . . . !*

وحيًا الله . . . ، وحيًا صوتها العَذب الرخيم .

أَغِناءٌ هذا أم سَجْع هَزار ، وإنشادٌ هو أم ترجيعُ كَنار . يتردَّد فى حَلْق غانية أم فى قَصَبَةٍ من مزامير داوود ، نَفَخت فيه القُدرةُ لتُشعِر أهلَ الأرض نعيمَ أهل الخلود ؟ .

غنِّى يا . . . غنِّى ، واشتدِّى فى غِنائك أو لينى ، وابغَمى[1] فى شَدوك أو أَبينى . أو حَلِّقى بالصوت صياحًا[2] ، أو دُفِّى به[3] وأَسْجِحى إسجاحًا[4] . ثم صُولى به وتدفَّقى ، أو تزيَّلى فيه وترقَّقى . وتجلى به على الأسماع مرسلةً أجزاؤه مستويةً أطرافُه ، أو ملتوية أصلابُه متثنيةً أعطافُه .

غنِّى يا . . . فهذى قلوبُ سامعيك طوعَ ترديدِك وترنيمك ، وهذى أحلامُهم رَهن ترجيعِك وتنغيمك . فقد طالما عَبَثَ صوتُك بالألباب ، وهَتك عن أخفى العواطف كلَّ حجاب ! .

خبرينى بعَيشك ، كيف تَصْنعين يا . . . بالناس ؟ .

أَفُتُوَّةٌ هذه ومَرَاح ، أم دَعَةٌ هذه وارتياح ؟ وسرورٌ وبهجة ، أم همٌّ يصدع الكبدَ ويَعصر المُهجة ؟ وغضَبٌ هذا أم رِضَى ، ونعيم ذاك أم تلك نارُ الغَضَى ؟ وأَنَّةٌ تيك من تَبريح الجوَى ، أم آهةٌ تَنفَستْ بها ذِكرَى الصَّبابة والهَوَى ؟ وسُكْرٌ ما فيه الناس أم صَحْو ، وفَرَحٌ ما يجدون أم شَجْو ؟

---

* نشرت بالكشكول المصور فى ١٧ ابريل سنة ١٩٢٥ .

(١) بغمت الظبية : صوتت بأرخم ما يكون من صوتها . وبغم الرجل صاحبه : لم يفصح عما يحدثه به (٢) الصياح : رفع الصوت (٣) دَفَّ الطائر : ضرب بجناحيه على الأرض (٤) الاسجاح : خفض الصوت

وسكونٌ ما ترى وفتور، أم فَوْرةٌ تريك جبل النار كيف يَثور ؟ — كل هذا من عَبثِك بالألباب يا فتنة .

غني يا . . . غني ، فلو تَمَثَّـل صوتُك إنساناً ، لاستوى على عرش القلوب سُلطاناً ! .

أليس عنده الرفعُ والخفض ، والبَسْطُ والقَبض . والسعدُ والنحس ، والوَفْر والبُؤس . واللذّةُ والألم ، والصحةُ والسّقم . والأُنسُ والنّعيم ، والهمُّ المُقعد المقيم ؟

إن صوتَك يا . . . لفِتنة فى الفِتنة ! . أفرأيتِ كيف حَلا للطباع ، وعلمتِ كيف لَذّ للأسماع ؟ . ووالله لو أُدرِكَ بالأُنوف لكان ورداً ويَاسَميناً ، أو أُدرك بالأبصار لتَمَثّل آساً ونِسرينا[1] . أو لو كان يُحَسُّ بالأفواه لصار فى المذاق جُلّاباً[2] مُروّقاً ، أو لو كان يُمسُّ بالأيدى لاستحال ديباجاً[3] منمقاً مزوّقاً ! .

* * *

غَنى يا . . . واسْجَعى ، واشدِى يا حمامةَ هذا الوادى ورَجِّعى . وإذا لم يكن فى طَوقك أن تُسعدى هـذه الحال ، فحسبُك أن تُسعِدى الذكرى وتنعّمى الخيال ! .

---

(١) النسرين : ورد أبيض عطرى الرائحة (٢) الجلاب : العسل أو السكر عقد بماء الورد (٣) الديباج : الثوب الذى سَداه ولحمته الحرير

طـــرب* !

قرّائى الأعزاء :

اللهم إن كنتم تريدوننى على أن أحدّثكم الليلة فى العلم والأدب ، أو فى الصبر والجزع ، أو فى تقدم الصناعة وتحرُّك التجارة ، أو فى غير ذلك من هذه الأسباب الدائرة بين الناس ، فإننى أكذِبكم القول . فليس فى نفسى الليلة من ذاك كثير ولا قليل . فإذا أخذتكم علىّ موجدة فردُّوها على ذلك المغنِّى ، وليأخذ كل منكم بحقِّه من حَلْقه . فقد جلست أسمعه أمس . وما زلت من أمس ، كلما نهضت إلى القلم لأكتب لكم فيما آخذ من فنون القول ، طَنَّ فى أذنى جَرْسه ، وملكنى رنينُه من جميع أقطارى . فأعود لا أرى غير صورته ، ولا أسمع غير صوته ، ولا أفكر فى شىء غيره !

إذَن فلأكسر حديثى الليلة على هذا الطرب إن كنتم تريدون منى ألاَّ أحدثكم إلاَّ بما أجد : غنَّانا صالح . ولست أدرى أكان مغنياً يُرسل الصوتَ فيقع حقاً فى الآذان ، أم ساحراً يتلعَّب بألبابنا فيخيل إلينا أنا فى الجنان ، نتمايل على النسيم بين الآس والريحان ، ونسمع من شدو القَمَارِى على أيكها أبدعَ الأنغام وأروعَ الألحان .

حدثنى يا فتى ! أى روض جاز بِهِ صوتُك قبل أن يَبلُغنا ؟ وكم نسمةً اختلطت به ممَّا نَفَث فيه صبٌّ مَشُوق ، وحمَّل عاشقٌ من زفرات كبده إلى معشوق ، حتى أخذ فينا كل هذا الأخذ ، وفعل بقلوبنا كل هاتيك الأفاعيل ؟

آه : وفى آهٍ لذةٌ وألم ، وفيها بُرءٌ وسَقَم . وفى آهٍ راحةٌ وعَنَاء ، وفيها يأسٌ وفيها رجاء ! .

---

* نشرت بجريدة « السياسة » تحت عنوان (ليالى رمضان)

أشا كرٌ أنا أم شاكٍ ، وضاحكٌ أنا أم باكٍ . وراضٍ أم غضبان ، وسالٍ أم ولهان . وناعمٌ أم بائس ، وراجٍ أم آيس . ؟ — لقد عَزَّنى أمرى فسلوا صوتَه ونبئون !

يا ليل ! . . . . وما عساكَ تَبغى من الليل ؟ لقد نام الخَلِيُّون ، هنيئاً لهم ، وأَمعَنوا فى المنام !

نعم ، إن فيك ياليلُ عيوناً تَسيل بالدم شئُونُها ، وإن فيك ياليلُ جراحاتٍ تَفيض بالدمع عيونُها . وكم فيك يا ليل من فؤاد تَحلَّل نَسَما ، وكم فيك يا ليل من أكباد تطايرت حِمَمًا . هذا عانٍ يَشكوكَ بثّه وأساه ، وهذا صبٌّ يبثُّك وجدَه وجواه . وهذا مشدوه لا يَتَّخذ الرفيقَ إلا من بين كواكبِك ونُجومك ، وتلك والهةٌ لا تجد الأُنسَ إلاَّ فى وَحشتِك ووُجُومِك .

إن تحتَ الضلوع عواطفَ تئنُّ من طول احتباسها ، فأَطلِقها (يا ليل) تَمزِج أنفاسَك بأنفاسها . أَطلِقها تَملك الجوَّ عليك طرباً وشَدْوا ، وتملأ هذا الهواء تحناناً وشجْوا . ففى العواطف بلبلٌ وكَنَار ، وفيها يا ليل فاختٌ وهَزَار ! أطلِقها بالله يا ليل ، لِتُغنّى الثريا وتشكو وجدَها لسُهَيل :

أبكِى الذين أذاقُونى مَوَدَّتَهم حتى إذا أيقظونى للهوَى رَقَدوا
واستَنهضُونى فلما قمتُ منتهضاً بثِقل ما حمَّلونى فى الهَوَى قَعَدوا
لَأَخرجنَّ من الدنيا وحبُّهمُ بينَ الجوانح لم يَشعُر به أحدُ

يا عين . وقل يا عينُ حقيقةً أردتَها أم مجازاً ، ورجِّعها صباً غَنَّيتها أم حجازاً . فانه :

هوًى بتِهامة وهَوًى بنَجدٍ قد أعيَتَنى التَّهائمُ والنجودُ

غَنِّ يا فتى غَنِّ . فاللهُ أكرمُ من أن يُثير هذا كلَّه فى صدور الناس ويحرِمَهم غناءك يا صالح !

الباب الخامس

فى المداعبات والأفاكيه

﴿ النكتة المصرية فى العصر الحديث* ﴾

سيداتى ، سادتى :

لقد استهللتُ كلامى معكم فى الأسبوع الماضى بأننى كنت عقدت النية على أن أُحدِّثكم حديثاً فكِهاً قصداً إلى ترفيهكم والتسلية عنكم ، ثم انصرفت عن هذا لأنه غير لائق فى ليلة مولد الرسول الأكرم ، صلى الله عليه وسلم . وقد كان عليه الصلاة والسلام يمزح ولا يقول إلا حقاً ، وأما نحن فنمزح وقلَّ أن تقول فى مُزاحنا حقاً . نسأل الله السلامة ، من عقبى الحساب فى يوم القيامة .

أُحدِّثكم الليلةَ حديثاً إذا هو بعد بعداً شاسعاً عما سبق لى أن تناولته من الموضوعات فى هذا الموقف ، فهو داخل فى جملته فى تلكم الدائرة المرنة ، التى تتَّسع لما تضيق به أوسع دائرة مَرنة فى العالم . ألا وهى دائرة الأدب . ومن ينكر أن هذا لونٌ من الأدب ، فهو امرؤٌ لا أحسبه يعرف الأدب .

موضوعى الليلةَ هو النكتةُ المصريةُ فى العصر الحديث ، فإذا فرغنا من القول فى ذلك أَلممنا بشخصيةٍ من الشخصيّات التى حَذَقت هذا الفن ، وبرَعت فيه أيّما براعة ، وهى شخصية المرحوم إمام افندى العبد .

وهنا أرجو أن ترخِّصوا لى فى أن أتكلم ، مادعت الحاجة ، بالعامية الخالصة ، لأن النكتة إذا سُبكَت فى العربية الخالصة فقد يَنضَب ماؤها ، ويَحُول بهاؤها . وإننى لأذكر أننى قرأت للإمام الجاحظ شيئاً فى هذا المعنى . وأين نحن من إمام البيان غيرَ مدافع . وأين بيانُنا من بيانه ، وأين تَجويد أقلامنا من عفو لسانه ؟

---

* أذيعت فى الراديو فى ٣٠ يونيه سنة ١٩٣٤ ونشرت بالجهاد فى اليوم الثانى

سيداتى ، سادتى :

إذا أنا خَصَصت النكتةَ المصريةَ بالذِّكر ، فذلك لأننى لا أعرف أمةً من الأمم العربية الأخرى أَحسنَت هذا النوع أو بَرَعت فيه براعة المصريين[1] . ولست بالضرورة أعني تلك النكتةَ البلديةَ القائمة على التلفيق بين صدر معنى من المعانى ، و بين ألفاظ ثابتة لمعانٍ أُخرَ ، فيخرج من هذا التلفيق صورةٌ مضحكة بحكم المفارقة بين هذين الشِّقين . وهذا النوع يدعوه العامة (بالقافية) . ولأضرب لكم مثلاً أو مثلين لتوضيح هـذا الكلام ، ففى (قافية) الغِناء مثلاً يقول الرجل لمناظره : إخوانك يشوفوك على المشنقة يزعقوا و يقولوا .

اشمعنى ؟ .

كده العدل ! . وفى (قافية) الجرائد يقول له : أنت مسمِّينك فى البيت .

اشمعنى ؟ .

البُرْص ! وهكذا . فهذا هو التلفيق الذى عَنيتُ .

لا أُريد بالضَّرورة هذا اللونَ من النكتة ، لأنه لا أثر فيه للذكاء ، ولا مجال لسرعة الخاطر ، هذا إلى أن حظه من التصوير غير جليل . و إلى أنه ثابت مدوَّن محفوظ ؛ يقال لكل من شارك فيه فى كل مقام .

إنما أريد ذلك النوعَ الذى تُلهِمه دِقَّة التفطن ، وسرعة الخاطر ، وحضور البديهة ، والقدرة القادرة على لطف التصوير والتخيل . ولقد يكون للنكتة من

---

(١) كتب العالم اللغوى الأديب الشاعر الكاتب المرحوم احمد فارس الشدياق المتوفى ١٣٠٥ هـ يصف أهل مصر عند ما زارها لأول مرة . ومما جاء فى هذا الوصف قوله : « وكلهم فصيح اللهجة ، بين الكلام ، سريع الجواب ، حلو المفاكهة والمطارحة . وكلهم يميل إلى هذا النوع الذى يسمونه الأنقاط . وكأنه المجارزة ، وهى مفاكهة تشبه السباب ، وهو أشبه بالأحاجى . فان من لم يكن قد تدرب فيه لا يمكنه أن يفهم منه شيئاً » اهـ وهذا الذى يشير اليه غير النوع الذى نعرض له فى صلب الكلام .

هذا اللون مَغزَى بعيد قد تُعيِي إصابتهُ على الرجل الحكيم . وقد يكون لها من قوة الأثر ، ما لا يكون لمقالة الكاتب مهما أطال وأسهب ، ولا لقصيدة الشاعر مهما أضفَى وأسبغ .

سيداتى ، سادتى :

لعلكم عرَفتم من هذا ، أن البراعة فى النكتة ، على هذا ، تحتاج فى المرء إلى خِلال : منها الذكاء اللمَّاح ، وسرعة الخاطر ، وقوة اللسَن ، وأعنى بها هنا القدرة على دقة التصوير والتخييل باللسان ، والعلم بأحوال الزمان والبيئة والأشخاص ، وشىء من الجَراءة ، ولا أحبّ أن أقول : شىء من قلة الحياء . وأخيراً لا بدَّ لها من خفة الروح . فلا خير فى نكتة تجىء على لسان ثقيل .

والرجل الذى أُوتى هذه المواهبَ يَلحظ الانحرافَ ، مهما دَقَّ ، فى خُلُق المرء أو فى خَلْقه ، أو فى بعض عمله أو حديثه ، أو فى أىّ شىء من الأشياء على جهة العموم . فسَرعان ما يُسوِّى له بخَياله صورةً مكبرة ، مهما تبعد ، فى شكلها ، عن الأصل . فهى متصلةٌ به بسبب أو بأسباب . ولقد يَخلُق الحديثَ خلقاً ، ولكنه إنما يُترجم به عن حال من يَتندَّر عليه . ولقد تجىء النكتةُ فى صورة جواب مسكت استناداً إلى حالٍ واقعة ، أو فى شكل ملاحظة لطيفة ، ولقد تجىء بالاشتقاق اللفظىّ ، أو من تحريف اللفظ عن جهته ، كما رُوىَ عن البابلى رحمه الله أنه سمع المغنِّى يقول : (أهل السَّماح الملاح دول فين أراضيهم) ؟ فأجاب من فوره : (فى البنك العقارى) ! . وقد تقع بالمقابلة والطِّباق ، فقد اخترع رجل طريقةً سهلةً لترويق الماء . وكان البابلى يَستثقل ظلَّه ، فقال : بقى يا إخواننا ، الراجل ده يروّق الميَّه ويعكَّر دمنا !

وعندى أن النكتة ، على العموم ، ضرب من التصوير (الكاريكاتورى) ،

أو على الأصحّ، أن التصوير (الكاريكاتورى) ضربٌ من النكتة ، لان صاحب هذه يملِك ما لا يملِك المصوِّر من الاسترسال فى التصوير والتخييل ، بالاشتقاق والتوليد . فلا يزال يقلِّب الصوَر و يلوِّنها ، ويخرجها واحدة بعد أخرى فى أشكال وأوضاع مختلفة ؟ حتى يأتى على جميع المعانى التى يَحتمِلها المقام .

وهنا يجب أن يُعرَف أن النكتة قد تكون بارعة رائعة ، حتى لَتهزّ مجلس السمر هزًّا ، بل لقد ترُج البلدَ كلَّه من الإعجاب والضحك رجًّا . ومع هذا إذا تناولها المتناوِل ، بعد عام أو عامين أو أقل من ذلك أو أكثر، لم يجدها شيئًا . ذلك بأن للظروف ، والأشخاص ، والمناسبات والملابسات ، أثراً قوياً فى براعة النكتة . فإذا حال شىء من ذلك وتغير ، ضعف بقدرِه أثرُ الكلام . وإذا كان هذا مما يَلحَق الشعر الجيد ، والنثر المصفّى المتخيَّر ، فإنه فى باب التطرّف والتندّر أظهر وأبين .

ولقد كانت البِيئات الراقيــة ، مصريةً ومتمصِّرة ، تحتفِل للنكتة البارعة وتَكلَف بها . فإذا أعوَزَها من يتندَّر بين يدى المجلس ، راحت تتناقل ما قال بالأمس فلان وما أعاد فلان .

وإياكم أن تظنُّوا أن من ذَهبَ لهم فى هذا الباب صيتٌ وذكر، كانوا من جماعات المتبطِّلين أو الجهال ، أو الذين يتعرّضون بهــذا لمعروف الناس . أستغفر الله ، فلقد كان فيهم الأديبُ الكبير ، والكاتبُ العظيم ، والشاعر الفحل ، والسرىُّ المَلِئ . وفيهم من برَعوا فى أشرف المهن وأعْوَدها بالكسب . وحسبكم أن تَعرِفوا أنه كان فى الصدر من هؤلاء المرحومون الدكتور بكير الحـكيم ، وحسن بك رضا المحامى ، ورشاد بك القاضى فالمحامى ، ومحمد بك رأفت الطبيب ، والسيد محمد بك البابلى ، وهو إمامُهم غيرَ مدافَع ، والسيد محمد بك المويلحى ،

وحافظ بك ابراهيم ، وساويرس بك ميخائيل المحامى ، ونعمان باشا الأعصر ، وخليل بك خير الدين ، وكلاهما من الأعيان الموسرين .

على أنهم لم يتخذوا هذا ويصطنعوه ، رغبةً فى إضحاك الناس . بل ليتضاحكوا هم به على الناس . والويلُ كلُّ الويل لمن تَزِلُّ به القدم بين أيدى هؤلاء . فانهم يتطارحونه، مهما جلَّ قدرُه، كما تُتطارح الكرة بصوالج الجبارين من اللُّعَباء . تولاهم الله برحمته ورضوانه ، وشملهم بفضله وإحسانه .

*
* *

امام العبد

سيداتى ، سادتى :

الآن جاء دور الكلام على المرحوم إمام افندى العبد . وهو ولا شكَّ ممن كُتبَت لهم فى هذا الفن البراعة والتبريز .

كان إمام « رحمه الله » زِنجياً بمعنى الكلمة ، (كما يقولون) لولا فصاحة لسانه ، ولولا أنه وُلد وعاش فى مصر ، ففُطر على أخلاق أهلها ، وأخذ بعاداتهم وسائر أسبابهم ، فلقد كان غليظَ المِشفَرين ، أفطس الأنف ، محمرَّ الحدقتين ، أملد العارضين ، مفَلفَل شعر الرأس ، أما لونُ جلده فأشد من فحمة الدجى سواداً .

وكان بعد هذا ، ربعة إلى الطُّول ، مكتنِز اللحم ، موفور القوة ، لا أدرى أين نشأ ولا كيف نشأ ، إنما الذى أدريه أنه عالج الأدب ، وأول ما عالج من فنونه نظم الزجل . فأجاد فيه أيَّما إجادة . ولكن طِماحه دفع به إلى قرض الشعر ، فمدح وهجا ، وتغزَّل وفخر ، وتَصرَّف فى كثير من فنون القريض . وما أحسبه بلغ فى هذا جليلاً .

على أنه كان جيّد الإلقاء ، جهير الصوت ، إذا أنشد الجمهرة هزَّ الناس ورجّهم ، وبعث بالتصفيق أكفّهم ، وأطلق بالهتاف حناجرهم ، حتى إذا قرأ الناقدُ شعرَه من غده أنكر على نفسه ، ما كان منه فى أمسه . ولعل ذلك الأديب قد أصاب بعض الإصابة حين وصف شعر إمام بأنك تأخذه دراً ، وتُلقيه حَجَراً .

وأذكر أننى كنت جالساً ذات عشية مع صديقى المرحوم حافظ بك ابراهيم فطلع علينا نَفَرٌ من الشبان ، فسألهم صاحبى من أين أقبلوا ؟ قالوا : من حفلة المدرسة التحضيرية حيث سمعنا إماماً يُنشد قصيدة له لم يَنظم الشعراء قط مثلها بلاغة وسحر بيان . قال فأنشدونى قالوا : وكيف لنا بحفظ شعرٍ نسمعه لأول مرة ؟ قال : فكيف عرفتم مَبلغ القصيدة من البيان ؟ قالوا . لأنه نال من آيات الاستجادة ومن التصفيق ما لم يَنل غيرُه . وكانت فى نفس حافظ ذلك اليوم ، لأمر مّا ، مَوجِدةٌ على إمام . فقال : والله ما صفق الناس لبلاغة إمام ولا لجَودة شعره ، وإنما هو عبد « كان لما يعمَّر اللمبة كويّس يقولوا له براقوا يا إمام ! » فكيف بهم إذا رأوه يُنشد شعراً ؟ .

سيداتى . سادتى :

قلت لكم إن إماماً كان يُنشد الشعر . وإنى لأحفظ له بيتين جيّدين فى حُسن التعليل ، تعليل ترهُّبه وانصرافه عن الزواج :

يا خليلاً وأنت خيرُ خليلِ — لا تَلُم راهباً بغيرِ دَليـــلِ
أنا ليلٌ وكلُّ حَسناء شمسٌ — فاجتماعى بها من المستَحيلِ

وأحسِبه لمح فى هذا قولَ المعرّى ، وإن كان قلَب المعنى وعكس الآية . وذلك من البراعة على كل حال : قال أبو العلاء :

هى قالت لمّا رأتْ شَيبَ رأسى — وأرادت تنكُّرًا وازوِرَارَا

أنا بدرٌ وقد بدا الصبحُ فى رأ　　سك والصبحُ يَطرد الأقمــارَا
لستِ بدراً وإنمــا أنتِ شمسٌ　　لا تُرَى فى الدجَى وتَبدو نهارَا

يعتذر إمام من عدم زواجه بأن الشموس ، يُريد النساء الحِسان ، لا يجتمعن والليل ، يُريد سوادَ جِلْده .

قلت لكم إن إماماً كان زجالاً من الطراز الأول . وليت الأستاذ بديع خيرى أو الأستاذ رمزى نظيم ، وكلاهما من كبار الزجالين ، يُعنى أحدهما أو كلاهما بأن يَبعث عيون أزجال إمام وهو منهما بهذا كل حقيق .

*
* *

سيداتى . سادتى :

ليس من موضوعى ، على أى حال ، البحثُ فى شعر إمام ولا فى زجله . وإنما عرضت لهذا ، لأجلو عليكم صورةً واضحةً من كِفايات الرجل . أما موضوعى فهو إمام المتندِّر ، أو بالعامية الصحيحة ، إمام (القفَّاشِ)

كان إمام العبد ، رحمه الله ، خفيفَ الروح ، حاضرَ البديهة ، مُرسَلَ النكتة ، لا يكاد يَسكن عنها أو يَفتُر بياضَ نهاره وسوادَ ليله . (يقفش) لكل إنسان ، ولكلّ شىء . فاذا لم يجد من (يقفش) له من الناس تَحوّل بهذا إلى نفسه ، وإلى خاصَّة أهله . ولقد كان من ذلك الصنف الولاَّد . يتناول المعنى الواحد ، فلا يزال يجول فيه بالنادرة بعد النادرة ، ويستقصيه بالنكتة بعد النكتة ، فى سرعة ولباقة عجيبتين ، حتى لَيُضحِك الثكلى على حد تعبير الأقدمين ! على أنه لم يكن فى تطرُّفه وتندُّرهِ بَعيدَ المغازى ، شأنَ بعض الذين أوردتُ أسماءهم عليكم . على أنه قد كانت له مِيزة لا أحسَب أن كثيرين قد شاركوه فيها ، ألا وهى خَلْق الأحاديث الفكاهية من العدم . لقد يتندَّر بها على نفسِه ، أو يتطرَّف بها على غيره .

ومن المزايا التى ينبغى أن تُذكَر للرجل، أنه كان عَفًّا فى مُزاحه لا يَفحُش ولا يُقذِع، ولا يتدسَّس إلى المكاره. بل لعل أشدَّ الناس كان اغتباطاً وضحكاً من (قفش) إمام، من كان يتولاه (بالقفش) إمام!

* * *

سيداتى. سادتى:

الآن أروى لكم طائفة من مجونيات إمام العبد فى نوادره، لا فى نكاته المختصرة، سواء مما شاهدته بنفسى، أو مما رواه لى هو بنفسه. وهنا أرجو أن تأذنوا لى بالتمهيد بين يدى بعض هذه النوادر بذكر بعض الأشخاص أو الملابسات التى اتصلَت بها حتى تأخذ النكتة سمتها، وتقع من النفوس موقعها.

قالت الجهاد الغراء: «وهنا أورد المحاضر مرتجلاً طائفة مما حضره من نوادر إمام المضحكة التى تدل على قدرته الفائقة على الاختراع والابتكار فى هذا الباب، ولم ير تدوينها لأنها إن ظرُفت فى الحديث، فانها قد تَفتُر أشدَّ الفتور فى الكتابة والتدوين».

اداب العراك فى الجيل الماضى*

سيداتى ، سادتى :

لقد أمسى من حقكم علىّ ، بعد إن واليت الحديثَ فى جدِّ القول أسابيعَ طوالاً ، أن أعيد هذه الليلةَ إلى مفاكهتكم ، والتحدث إليكم بما أحسب أنه لا يُمِلُّكم ولا يُضجِركم ، إلى ما لعل فيه بعضَ الفائدة بتجلية بعض نواحى التاريخ الحديث .

وموضوعُ حديثنا الليلة هو : (أدب العراك فى مصر فى الجيل الماضى) . والعرب كانوا يُطلقون كلمة (أدب) فى بعض إطلاقاتها على معنى القانون . فيريدون بأدب الشيء قواعدَه وتقاليدَه . وعلى هذا دَعَوا قانون الجدل والمحاورة ، بعلم آداب البحث والمناظرة . كذلك أريد بأدب العراك ، فلقد كان للعراك فى مصر قوانينُ محترمة ، وتقاليدُ مرعية ! .

وفنُّ (الحناق) على تعبير أصحاب الشأن ، فى مصر قديم يَكلَف به أولادُ البلد ويتباهون ، إذ كان يُعتبَر ضرباً من الفروسية ، والسعيدُ السعيدُ من يذهب له فى (الحناق) صِيتٌ وذِكرٌ فى البلد . بل ربما شارك فى هذا بعضُ أولاد (الذوات) فيشمرون ليوم النزال ، ويتقلدون (الشوم) للحرب والقتال .

وليس يغيب عمَّن قرأ التاريخَ الحديثَ منكم أن بونابرت حين بلغ بجيوشه إمبابة فى طريقه إلى مصر ، استنجد الأمراءُ المماليكُ بالأهلين ، بعد إذ تخاذلت جنودهم ، فخرج له أولاد الحسنية بعصيِّهم ، ونازلوا الجيش الفرنسى فحصدتهم مدافعهُ ، مع الأسف الشديد ، حصداً ! .

وهؤلاء الأبطالُ يُدعَون (الفُتوَّات) جمع فُتوَّة . أو العُصْبجية جمع عُصْبجى . وكان فى كل حىٍّ من أحياء القاهرة فتواتُه . فللحسينية فتواتُها ، وللسيدة فُتوَّاتُها ،

* أذيعت بالرديو فى ٢٩ ديسمبر سنة ١٩٣٤ ونشرت « بالجهاد » بعد ذلك

وللخليفة فُتُوَّاتُه ، وهكذا . ولفُتُوات كلّ حيّ زعيمُهم ، والمتقدِّم فى البطولة عليهم ، لا يُعصَى أمرُه ، ولا يخالَفُ حُـكمه ، وهو الذى يدعوهم إلى الصراع ويدبر لهم الخُطَط ، ويقودهم فى المعارك الكبرى ، فاذا كانت المعركة مما لا يَرتفع إلى شأنه ، عقد لواء السريّة لمن يختاره ممن قبله من الفُتوّات ؟ .

وكان لكل فتوة (مشاديد) ، جمع (مشدود) ، وهم من أنصاف الأبطال الذين يَنتسِبون إليه ويلوذون به ، ويَحتَمون باسمه ، والويلُ كلُّ الوَيل لمن يَعتدِى عليهم ، أو يَعتريهم بالمكروه ، فان الاعتداء على أحدٍ منهم يُعتَبر اعتداء على الفتوة نفسه ، لما فى ذلك من الغَضّ من كرامته ، والاستهانة بحمايته . وعلى هذا كان من أشد التحدى للفتوة أن يقال لمشدوده : ينعل . . . على أبو اللى يشدّدلك فسَرعانَ ما تَشِب لَظَى الحرب ، ويَتَواثب القِرْنان للطعن والضرب .

وكانت العداوات مستمرة بين بعض الأحياء و بين بعض ، فلا يبيت الموتور منها إلاَّ على تهيؤ لشفاء الحقد ، والأخذ بالثار . ولقد يَتحالف الحيَّان على ثالث إذا جمعهما الحقد وضمَّهما الوِتْر ؟ .

وممن أدركنا عصرهم من أعلام فتوات الحسينيـة والعطوف : المرحومون عتريس ، وحكورة ، وكَسلَة . ومن كماة الخليفة : كُمّ العِرى، والملط ، ويوسف بن ستّهم . ومن أقطاب الكبش وطيلون خاصة: بلحة ، والفولى . أما أبطال السيدة فهم المرحومون : ممبوك ، خليل بطيخة ، الإنّ ، وإءَّة . وكان رحمه الله أعمى ، وعلى أبو ضَبّ ، وأظن أن هذا الأخير ما زال حيًّا ، فقد رأيته من بضع سنين ، وقد صَلُحت حاله ، وهو يُدير قهوة بلدية فى مَيدان زين العابدين .

وسلاح كل فتوة وعُدته للحرب عصا أو عِصىّ من (الشوم) يداور بينها فى الخناقات ، وترى كل واحد منهم شديد التتايه بعصاه ، كثير الذكر لها والإشادة

باسمها . نعم باسمها فلقد كانوا يطلقون عليها الأسماء . فمن العِصىّ الحاجّة فاطمة ، ومنها الحاجّة بمبه . وهكذا ، وربما سقوها الزيت بتثبيت قمع مفتوح على طرفها الأعلى وملئه زيتاً ، وتركها على ذلك أياماً حتى يتمشى فى شعوبها ويشيع فيها ، فتزداد قوة وصلابة على الطعان والضراب . وقد يزوّق مقبضها بالحناء .

سيداتى ، سادتى :

لست بحاجة إلى القول بأن مظهر هذه البطولة هو فى جراءة القلب وقوة الساعد ، والمهارة فى الإصابة ، واللباقة فى اتقاء الضربة بالعصا أو بالتحرف عن مَذهَبها . وكل هذا يحتاج إلى كثير من التدريب والتمرين . ولكن الذى يحتاج إلى البيان هو لون خاص من البطولة . وهو الكفاية الهائلة فى احتمال أشد الضرب ، وطول الصبر عليه واقعاً حيث وقع من أعضاء الجسد . ولهذا النوع من البطولة قيمته وسداده وغناؤه إذا َحمِىَ الوطيس . فان الفتوات لَيقدمون هؤلاء الأبطال بين أيديهم ليتلقّوا عنهم بأجسامهم أكبر كمية من الضرب ، حتى يستطيعوا هم أن يصرفوا أجل همهم لإجالة العصىّ ذات اليمين وذات الشمال .

وكان علم الأعلام فى هذا النوع من البطولة من فتوات السيدة هو خليل بطيخة ، عليه رحمة الله . فقلّ أن كان يخرج إلى (الخناقة) وهو يتقلد عصا ، ولو تقلدها ما أحسن استعمالها . ولعلها كانت (تلخمه) فى ميدان القتال . و إنما سلاحه كله ، سلاحه الماضى هو جسمه القوى الصفيق !

ولقد رأيته بعيني وأنا غلام بعد منصرَف الناس من الصلاة فى جامع عمرو فى يوم الجمعة اليتيمة . وقد اجتمع عليه وحدَه نفر من فتوات الخارطة وأبى السعود ، فى أيديهم عصيُّهم الغليظة ، وما زالوا يتهاوَون بها على جسمه بأشد ما فيهم من قوة و بأس . أما هو فقد دس رأسه فى صدره . وأسرع فتكور على الأرض حتى صار

أشبه بلقبه (بطيخة) ، وجعل يتلوى تلوى الحيّة، حتى ظن النظارة أنه هالك لا محالة . ثم ما إن أقبل البوليس بعد فترة طويلة ، وفر أولئك الفتوات عند مرآه شرقاً وغرباً ، حتى بسط جسمه ووقف فى أسرع من رد الطرف. وكأنه لم يُكلَم كَلما ، ولم ينله كثير ولا قليل من أسباب الإيجاع والإيلام ! ومضى لشأنه وهو يتحدث عن بطولته ، وعما يعد للأخذ بالثار من أولئك الأعداء ! .

*
* *

وكانت خير الفرص لشبّ (الخناقات) هى فى الأعراس ، حيث يحتفل باقامة (خناقة) فى النهار فى زفة العروس ، وأخرى فى الليل فى زفة (العريس) .

أما معركة النهار فلم يكن خطبها جليلاً ، إذ لا يخرج لها الزعماء ، ولا المقدّمون ، بل يكتفون فيها بتعبئة أوساط الفتوات ، فيخرجون إليها ومعهم بعض الغلمان . ويتوارون فى زقاق أو منعطَف ، حتى إذا أقبل موكب العروس بعثوا أولاً أولئك الغلمان ، وفى يد كل منهم ما تيسر من عصا رفيعة ، أو (زعزوعة قصب) ، أو قبضة من الحصا . وهؤلاء الغِلمة يُدعَون (جرّ الشكل) ، فيقذفون المركبات بالحَصى ، ويَتعرضون بالعصىّ لأحراس الموكب ، حتى إذا صدهم هؤلاء وضربوهم ، برزت الكتيبة من مكمنها وأدارت رَحَى القتال ، بدعوى الثأر لهؤلاء الأطفال .

سيداتى ، سادتى :

إذا حدثتكم عن المعارك الجُلّى التى تدور إذا كان الليل فى (زفات العرسان) ، فانما أحدثكم عما كان يحدث فى حى السيدة زينب والأحياء المحيطة به . ولعله صورة مما كان يحدث فى سائر الأحياء .

كانت هذه المعارك تدبَّر من قبل ليلة العُرس بأيام ، فيعد لها الخصوم عدتهم من جهة ، ويتأهب لها أولياء (العريس) وصحبه من جهة أخرى . بل لقد كان هؤلاء

فى كثير من الأحيان يَدعون لها ، ويُغرون الخصوم بها ، ويَستدرجونهم إليها . لأن مما يعيِّر به أهل العُرس من ذلك الصِّنف من الناس أن تجوز (زفة عريسهم) الشوارع فلا يَتعرض لها أحد بالمكروه ، فذلك دليل على تهاونهم واستحقار شأنهم ، وإخراجهم فى الاعتبار عن أفق الرجال ، فضلاً عن الأبطال !

وكانت (زفة العريس) ، واقعة حيث وقعت داره من آفاق ذلك الحى ، لابد أن تجوز بمسجد السلطان الحنفى والشيخ صالح أبي حديد . وهناك يقع الصدام والطعان ، ويتهاوى (الشوم) على رؤوس الأقران فى هذا الميدان ! .

ولقد زعمت لكم أن أولياء العُرس قد يَدعون ، فى كثير من الأحيان ، إلي العراك ، ويَستدرجون الخصوم إليه ، وأ كبر مظهر لهذه الدعوة هو أن يقدِّموا بين يدى الموكِب ما يَدعونه (بخاتم سليمان) ، وهو عبارة عن قطع خشبية متخالفة أقطارها ، بحيث تَتخذ الشكل الهندسى الذى يطلَق عليه فى العرف (خاتم سليمان) . وكلها ثقوب محفورة على مسافات مضبوطة ، تُثبَت فيها كعوب الشمع المضاء . ويحمل كلّ واحدة من طرفيها رجلان أو فتيان . وفى حمل هذه الخواتم السليمانية معنى التحدِّى للخصوم ودعوتهم إلى العراك !

وعلى قدر الرغبة فى قوة العراك ، وشبّ القتال ، يكون عددُ تلك الخواتم ، فمن الناس من يقدم الاثنين ، ومنهم من يقدم الثلاثة ، ومنهم من يضاعف هذا المقدار ، إعلانًا للسطوة وإيذانًا بالرغبة فى استحرار القتال ! أما المستضعَفون من الناس ، فلا يقدمون شيئًا من ذلك إيذانًا بإيثار العافية ، وطلب الدعة والأمان ! .

وكان نظام الموكب ، موكب (زفة العريس) ، يجرى على الوجه الآتى ، الطبل البلدى وبين يديه طائفة من الغلمان والفتيان ، ثم الموسيقى الأهلية ، إذا كان (العريس) على شيء من اليسار ، ثم حملة خواتم سليمان ، تضطرب من فوقها ألسنة

الشموع ، ثم جمهرة الفتوات يُلوِّحون بعصيِّهم فى الهواء . ثم حملة (الشمعدانات) فى صفين متقابلين . ثم (العريس) يحيط به أصدق صحبه ، وفى أيديهم الشموع والأزاهير . وقد تقف القافلة بين حين وآخر لاستماع من يغنّى القومَ بالأغانى البلدية ، فتراهم يحسنون الإصغاء ، حتى إذا فرغ من نبرته عجوا بأصوات الاستحسان من نفس الطبقة التى يجرى فيها الغناء . وهنا تسمع الصياح من كل جانب من نحو (يا ربّنا والملايكة) ! و (احنا الصبوات العِتَر) !

فاذا بلغت (الزفة) فى مسراها ذلك الموضع ، أعنى الرقعة الواقعة بين مسجدى الحنفى والشيخ صالح ، إذ الأعداء متربصون هناك ، أذَّن المؤذن بنشوب القتال . وكانت أول عصا تهوى على رؤوس الزمارين المساكين . فاكتسبوا هم الآخرون ، بطول التدريب والتمرين ، مهارة فى اتقاء الضرب ، وفى احتماله ، وفى الفرار ، وتولية الأدبار ! وكان أشدهم فى هذا عناء هم الطبالين لما يُثقلهم من حملهم . وكثيراً ما تتخرق طبولهم بضربة العصا ، أو بقبضة يد من ضارب صَناع ! .

ويزخر الميدان ، ويتلاقى الأقران ، ويَستحرّ القتال والطعان . فلا ترى إلاَّ عِصيًا تتهاوى على الأبدان . فتشق الرؤوس شقاً ، وتدق الأصلاب دقاً ، وتَخسِف الأصداغ خسفاً ، وتقصف الأضلاع قصفاً ، والدماء تسيل حتى تجلِّل الثياب ، وتَفيض على الأرض بما يروى من غُلة التراب . وهذه الدماء هى أوسمة الشرف يتحلى بها الكُماة الأبطال ، إذا رجعوا إلى معشرهم من معترك القتال .

ولقد تسمع الكَمِىّ وقد واجه عدوه وشرع عصاه ، وتهيأ للوثاب وهو يصيح : وارايا . . . وهو كلام قبيح لا يجوز ردّه على الآذان .

سيداتى ، سادتى :

لم يكن البوليس ليجرُؤ ، فى غالب الأحيان ، على اقتحام هذه الملاحم ، أو يستطيع ضبط تلك الوقائع ، بل لقد كان يولِّى عنها فراراً ! وهنا ينبغى أن يُذكر أن أحداً من هؤلاء الفتوات أو أوليائهم لا يمكن ، ولو بجدع الأنف ، أن يتقدم بالشكوى إلى البوليس أو غير البوليس ، ولو كان الضرب قد أتلفه وأرداه ، بل لقد كان فى ذلك العارُ ليس بعده عار ، والشنارُ ليس وراءه شنار ! .

*
* *

هذه كانت بعض مظاهر البطولة عند أولاد البلد فى الجيل الماضى ، وثَمَّ مظهر آخر من مظاهرها ، وأعنى به الحرب الجبلية ، ولا يتسع الوقت لوصفها وعرض حديثها ، ولعلنا نجرِّد لذلك محاضرةً أخرى .

ومهما توصف هذه الحالة بالوحشية ، أو الهمجية ، أو الاحتفال للعُدوان ، والخروج على النظام ، فلقد كانت بطولة لها قيمتها على كل حال ! .

ولسنا الآن بسبيل العوامل التى قضت على هذه البطولة عند أولاد البلد . ولكنا نسجل فقط أنها قُضِى عليها القضاء التام . ولم يبق من آثارها إلاَّ مجرد ادعائها والتظاهر بها ، فيما تسمعه من هؤلاء أولاد البلد أثناء (الشروع فى الخناقات) من ألوان الوعيد والتهديد ، بتهشيم الآناف ، وتحطيم الأكتاف ، وتكسير الرؤوس ، وإزهاق النفوس ، فليس وراء هذا النَّفج (المعر) شىء أبداً .

مشروع معـــــركة* !

خرجت مُصبَح اليوم ، على عادتى ، أطلب مَثابة عملى فى الجيزة . وما إن كِدت أبلغ موقف (الباس) ، وهو على بضع عشرات الأمتار من (كبرى) عباس ، حتى رأيت منظَراً جميلاً استدرج همى ، وشَغل كلَّ نفسى . فإننى لَحَقٌّ مشوقٍ إليه من زمان طويل !

فَتَيان أو شابان من (أولاد البلد) ، قد تفصَّدت نفساهما بالشر ، واحمرت من فورة الغيظ أحداقهما . وها أنا ذا أراهما يتواثبان للمعركة الحامية ، تُشجّ فيها الرؤوس ، أو تخلع الأكتاف ، أو تُدق الأصلاب وتُقدّ المتون

لقد أوحشنى حقاً هذا الضرب من (الخناق) الوطنى يَتهشم فيه الضارب والمضروب جميعاً . وناهيك بمن لا يتسلحون لمعاركهم ، فى النزال على وجه خاص ، بمسدس ، ولا بسكين ، ولا بعصى ، ولا بحجر ، وحسب الفتى من السلاح يده ورجله ورأسه ، ففى الضرب (بالروسية) غنًى للمقاتلين !

وتالله ما بى أىُّ حب للشر ، ولا أنا ممن يستريحون إلى شهود الأذى ، وإنى لَأتألم أشد الألم إذا رأيت حيواناً يتألم فضلاً عن إنسان . ولكن هذا اللَّون من العراك (الخناق) بين أبناء البلد ، كان مظهراً من مظاهر الفتوة والبطولة فى مصر ، فعُفِّىَ أثره من زمان بعيد ، وهذا مع الأسف العظيم .

وقفت إذن مغتبطاً مستبشراً بشبوب المعركة ، وعودة ذلك التقليد المصرى القديم . على أن وُسَطاء الخير أو وسطاء السوء من السابلة ، أسرعوا فحالوا بين القِرْنَين . وأَمسك أربعـةٌ منهم بواحد ، وأَمسك ثلاثةٌ بالآخر . وجَعل كل

* نشرت فى جريدة «المصرى» فى ديسمبر سنة ١٩٣٦ تحت عنوان (حديث رمضان)

جماعة يَجذبون صاحبهم ليبعدوه عن خصمه . وهو يقاومهم أشد المقاومة ، ويحاول الإفلات منهم ليثب إلى صاحبه ، إذ هم يدافعونه عن هذا بكل ما يملكون من القوة .

يتوسل كل منهما إلى جماعته أن يُطلقوه فلا تنفع الوسيلة ، ويَضرَع إليهم فما تُجدى الضراعة . يتوسل أحدهما إلى صحبه أن يُطلِقوه ليدغدغ رأسه . فيرجو الآخرُ صحبَه أن يدعوه ليفقأ عينيه . فيحلف الأول بأنهم لو خلوا بينهما لبقر بطنه (فتح كرشه) . فيجيب الثانى حالفاً أنهم لو تركوه لدَقّ صلبه (يكسر وسطه) . وهكذا من نحو : (والله لو سبتونى عليه لأخليه كفته) ، و (حياة النبى ، بس سيبونى وأنا أخلى الدبان الأزرق ما يعرفلوش طريق جُرّة) إلى آخر هذا الوعيد المرعب المهول !

وفى الحق، لقد اشتد غيظى ، وكَظَّ الحَنَقُ صدرى على هؤلاء الوسطاء المتطفلين ، حتى لقد هَمَمت بأن أزجرهم عن تطفلهم ، وتعرضهم لحريات الناس على هذا الوجه المَقِيت . أما الواقع ، إذا شئت الحق ، فإنهم يحولون بصنيعهم بيني وبين مُتعَة تَستشرف لها مُنَى النفس ، كما زعمتُ لك ، من زمان بعيد .

على أنه لم يرُعْنى ، وأنا أتهيأ لهذا الزجر ، إلاّ أن يُجهَد بالجماعتين كلتيهما ، ويبدو الكَلال والإعياء على الجميع ، فتُطلِق إحداهما صاحبَها ، وتحذو الأخرى حذوَها .

وتزاحف القِرنان فاشتد خفقان قلبى ، وتداركت أنفاسى ، حتى سمعت فيها ما يشبه الزحير . وهرولت إلى أقرب جِدار فاستَعصَمت به ، ودُرت ببصرى ألتمس المهرب إذا دنا منى القِرنان ، أثناء الصِّيال فى الميدان ، والكر لإحكام الضرب والطعان . وجمعت كل ما شرد من نفسى لأشهد المعركة الحامية ،

وأرقب المعمعة الدامية ، وهذه فرصة لا شك فيها ، فما كنت من قبل جُنديًا ، ولن أكون من بعدُ لإحدى الصحف مكاتبًا حربيًا ، حتى يتهيأ لى أن أشهد موقعة ، أو أخوض معمعة !

مَشَى كلٌّ من المقاتلَين إلى قِرنه ، والشر تبدو نواجذه الحِداد ، حتى إذا كان كلٌّ منهما على متر من صاحبه وقف ، وحلف لئن لاقاه ليصنعن به كيت وكيت ! ثم استدار كل منهما وولَّى صاحبَه قفاه ، ومضى لطيته ! مغذًا فى التسيار ، شأنَ الخائف أن يفوته القطار ، أو كأنه على موعد من حبيب طال به الانتظار !!

سلمت أمرى لله ، واستقبلت وجه الطريق فى انتظار (الباس) ليبلغ بى مَثابةَ عملى . فلم يرُعْنى إلاَّ أن أرى (الكبرى) يتحرك ليفرج مجازًا للسفن هابطة وصاعدة !

الله أكبر ! . إذن لقد كان مشروعُ هـذه المعركة الهائلة مجردَ (مناورة) لأسافر إلى مقر عملى عن طريق رأس الرجاء الصالح ، لا عن طريق قناة السويس ، بعد أن استحكم الياس ، من المرور على (كبرى) عباس !!!

التطفيل والطفيليون*

سيداتى سادتى :

بحسبنا ثلاثُ محاضرات متوالية ، كلهـا فى جِد القول ومُره ، فى زمت هذا الصيف ووَقدة حره . فلنستروح هذه المرة بشىء من التفكيه ، لنجعل الراحة لذلك الجِدّ جِماماً . فنحن على هذا فى الجد دائماً . حتى إذا انحرفنا يوماً إلى شىء من العبث أو ما يشبه العبث ، فلنرفِّه به أنفسنا ونسلِّى عنها لنعود لشأننا ممدودى الأنفاس مشدودى المتون . وحديثنا الليلة مع هذا يجرى فى باب من أبواب الأدب العربى . ولا تَعجبوا إذا كان من أحاديث الأدب القولُ فى التطفيل والطفيليين ! . ولست أتجوّز بهـذا اللفظ فأطلب به المتطفلين فى العلم أو فى الأدب ونحو ذلك . إنما أقع باللفظة على الحقيقة ، وهى تعرُّض المرء لطعام الناس من غير أن يُدعى إليه . أما الداخل فى شرابهم من غير دعوة كذلك ، فيدعى الواغل . ومثلهما الدعىّ ، وهو الداخل فى نسب القوم وليس منهم .

والطفيليون نِسبة إلى رجل يدعى « طفيل العرائس » . وقد زعموا أنه أولهم ، فإليه كانت نسبتهم. ولكننى أحسب أن التطفيل قديم جداً قِدَم الشره فى الانسان ، وهوان نفسه عليه ، وتطلعه إلى ما ليس له ، ولو كان طعاماً . وتهافته عليه مشايعة لشهوة البطن ، مهما ناله فى ذلك من مكروه أدبى أو مادى . وربما كان عقْد لواء الأولية فى هذا الباب لهذا « طفيل العرائس » لأنه أول من احترفه ، فلقد أصبح التطفيل حِرفة مقررة مرسومة إلى وقت قريب . أو لأنه أول من شرع آدابه ، واستفتح بلطف الحيلة أبوابه ، وقعَّد قواعده وأصَّل أصوله ، وفرّع فروعه وفصَّل فصوله . ومن روائع حكمه ، وجوامع كلمه ، ما قال يوصى به صحبه : « إذا دخل

* أذيعت بالراديو فى ١٨ أغسطس سنة ١٩٣٤

أحدكم عُرساً فلا يتلفَّت تلفُّت المريب ويتخير المجالس . وإن كان العُرس كثير الزحام فليمض ولا ينظر فى عيون الناس ، ليظن أهل المرأة أنه من أهل الرجل ، ويظن أهل الرجل أنه من أهل المرأة ، فان كان البواب غليظاً وَقاحاً ، فيبدأ به ويأمره وينهاه من غير أن يعنُف عليه ، ولكن بين النصيحة والإدلال » .

ولقد قلت لكم أن التطفيل قديم ، ولكن أساليبه وطرائقه تتشكل وتتلون فى كل عصر وفى كل إقليم ، طوعاً لما يجرى من العرف والعادة وغير ذلك من الأسباب .

ولا أظن أننا فى حاجة إلى القول بأن من أول ما يتصف به الطفيلى ، هو الشره ، والطَّمَع ، وحِدة الوجه ، ولؤم النفس ، وهوانها على صاحبها وعلى الناس . فما يدفع إلى التطفيل إلا هذه الخلال ، أما الصفات الأخرى التى يحتاج إليها الطفيلى ، والتى هى أهم وسائله ، فمنها خفة الروح ، فان أعوزته فالتظرف بالقدر المستطاع . ومنها سَعة الحيلة ولطف المدخل ، ومنها حسن السَّمْت ونظافة الثوب ، ومنها حضور الذهن وتهيؤ البديهة ، وقوة اللسَن ، وبراعة النكتة ، فاذا اجتمع إلى هذا وهذا وهذا ، إلمام بالأدب وبالسيَر ، وإذا ضُمَّت إليهما القدرة على ارتجال الشعر ما دعت مناسبات الطعام ، فذلك والله الطفيلى التامّ .

سيداتى ، سادتى :

انظروا كيف يصنع الأدب ! . اللهم إنه لزعيم بأن يجلو على الناس كل ما فى هذا العالم من جميل وبديع ، مما يتصل بالصوَر والمعانى جميعاً . فاذا عَزَّه الجمال فى ظواهر الأشياء ، راح يتدسس إلى بواطنها ، فاحتال على استخراجه وجلاه على النفوس جلواً . ولربما مال إلى القبيح فى ظاهره وفى باطنه معاً ، فسوّى منه صوَراً لها جمالها ولطفها فى باب التمليح والتفكيه . أليس البخل فى الناس قبيحاً جداً ؟ ومع هذا يأبى الأدبُ إلا أن يجعل من البخل والبخلاء باباً من أوسع أبوابه ، وأبلغها فى

إعجابه و إطرابه ، سواء فيما صَوّر من نوادر البخلاء وطرائفهم ، أو فيما صوّرهم به فحولُ البلاغة فى منثورهم ومنظومهم

والتطفيل ، ولا شك ، أقبح من البخل وأكره وأرذل ، ومع هذا لقد كان قَسْمه من الأدب كذلك .

والآن نقص عليكم طائفة من نوادر الطفيليين من المتقدمين ، وما قالوا وما قيل فيهم . فاذا اتسع الوقت قفّينا على ذلك ببعض نوادر من شهدنا من المحدَثين :

مر طفيلى بالبصرة على قوم وعندهم وليمة ، فاقتحَم عليهم وأخذ مجلسه ممن دُعى . فأنكره القوم وقالوا : لو تأنيت أو وقفت حتى يؤذَن لك أو يُبعث إليك ؟ فقال: إنما اتُّخذت البيوت ليُدخَل فيها ، ووضعت الموائد ليؤكَل عليها ، وما وجّهت بهدية فأتوقع الدعوة . والحشمة قطيعة ، وطرحها صلة . وقد جاء فى الأثر : صِل من قطعك ، وأعط من حرمك وأنشد :

كلّ يوم أدور فى عَرصة الدا ر أشَمّ القُتار شم الذباب

فاذا ما رأيتُ آثار عُرس أو دخان أو دعوة الأصحاب

لم أُعرِّج دون التقحُّم لا أر هب طعناً أو لَـكزة البواب

مستهيناً بمن دخلت عليهم غير مستأذن ولا هَيَّاب

فترانى ألف بالرغم منهم كلّ ما قدموه لف العُقاب

يقال . لف الرجل فى الأكل : قبح فيه وأكثر منه خالطاً بين صنوفه . ولف العُقاب : أى كما يلف العقاب الصيد ويجعله تحت رجليه .

ومر طفيلى على قوم يأكلون ، فقال ما تأكلون ؟ فقالوا ، من بغضهم له : سماً ، فأدخل يده فى الطعام وقال : الحياة بعدكم حرام !

ومر طفيلى بقوم من الكتبة فى مشربة لهم ، فسلم ثم وضع يده يأكل معهم ، قالوا له : أعرفت منا أحداً ؟ قال نعم ، عرفت هذا ، وأشار إلى الطعام !

وأظن أن من لم يقرأ منكم عن أشعب فقد سمع بصدر من نوادره ، فقد كان ، رحمه الله ، من أطبَع الطفيليين وأشرههم ، حتى لقد قيل له ما بلغ من طمعك ؟ قال : لم أنظر إلى اثنين يتساران إلا ظننتهما يأمران لى بشىء !

ووقف مرة على رجل يعمل طبقاً فقال له : أسألك بالله إلاَّ ما زدت فى سعته طوقاً أو طوقين ! . فقال له : وما معناك فى ذلك ؟ قال : لعل يُهدَى إلىَّ فيه شىء ! .

ومن ظريف بدائهه أنه ساوم رجلاً فى قوس عربية ، فسأله فيها ديناراً . فقال أشعب : والله لو أنها إذا رُمى بها طائرٌ فى جو السماء وقع مشوياً بين رغيفين ما أعطيتك بها ديناراً !

*
* *

وقيل له يوماً ما تقول فى ثردة مغمورة بالزبد ، مشققة باللحم ؟ قال فأُضرَب كم ؟ قيل له : بل تأكلها من غير ضرب ! قال : هذا ما لا يكون ! ولكن كَم الضرب فأتقدم على بصيرة ؟ !

ومن أظرف اعتذارات الطفيليين قولُ شاعرهم :

نحن قومٌ إذا دُعينا أجبنا ... ومتى نُنس يَدْعنا التطفيل
وتَقُل علّنا دُعينا فغبنا ... وأتانا فلم يجدنا الرسول

وأتى طفيلى طعاماً لم يُدع إليه ، فقيل له من دعاك ؟ فأنشأ :

دعوتُ نفسى حين لم تدعُنى ... فالحمد لى لا لك فى الدعوة
وكان ذا أحسن من موعد ... مخلفه يدعو إلى الجفوة

أفرأيتم أصقع وأصفق وجهاً من هذا الذى يؤثر الدخول فى طعام الناس من غير دعوة على أن يُدعَى إليه ، بحجة أنه ربما تخلف عن الإجابة فوقعت الجفوة بينه وبين داعيه !

ودخل طفيلى فى طعام رجل فقال له من أرسل إليك فأنشأ :

أزوركم لا أُكافيكم بجفوتكم إن المحب إذا ما لم يُزَر زارا

ومن أحسن ما قرأته فى وصف طفيلى قول الشاعر :

لو قيـل فى الشام مَطمورةٌ والهند أو أقصى بلاد الثغور

وأنت فى مصر لوافيتهـا يا عالم الغيب بما فى القدور

سيداتى سادتى :

لم تقتصر مهمة الأدب على تقييد نوادر هؤلاء الذين امتُحنوا بهذا الشذوذ الخُلقى ، وقصِّ ما كان منهم من طرائف ونكت ، وما تطرّف به أصحاب البداثة عليهم ، بل لقد حركت هذه الخِلال فيهم ملكات الشعراء والكتاب ، فجاءوا فى هذا برائع الوصف وبارع التشبيه ، مما زاد البيان ثروة على ثروة . بل لقد بَسطت فى الأخيلة فأعظمت الصغير من النوادر ، وأجلّت الدقيق من الحوادث ، بل ربما اخترعَتها اختراعاً ، واختلقت القول فيها اختلاقاً . وهذه نوادر البخلاء فى كتاب الجاحظ ما أحسب كثيراً منها إلاَّ مُنشأً مصنوعاً .

ومن أبدع ما قرأتُ فى نوادر الطفيليين ، مما لا أظنه إلاَّ حديثاً مصنوعاً ، هذه الحكاية التى أترجمها لكم بلغتى الضعيفة ، فلقد مضى على قراءتى لها دهر طويل ، ولما بيتُّ النية على هذا الحديث ، بحثت عنها فيما كنت أقدِّر لها من المظانِّ فلم أُصِبها مع الأسف الشديد ، وهى فى أصلها مكتوبة بلغة بارعة لا يَتعلق بغبارها هذا البيان . وسأنتهز هذه الفرصة ، حين يعرض ذكر ألوان الطعام ، فأبدل ما لا نعلم من السكباجة والطباهجة ، والمضيرة ، بما نعرف من الصحاف الدائرة فى مصر الآن :

حدّث رجلٌ من أهل الكوفة أو البصرة (لا أذكر) قال : كنت امرأً واسع النعمة عريض الغني ، ثم تغير لى الدهر وألحّت علىّ السنون ، حتى لم يبق فى يدى ما أتجمّل به بين أهلى ومعشرى ، فانحدرت إلى بغداد ، إن لم أدرك الغنى فلا يرانى على هذه الحال من كان يرانى فى يُسرى وأُبّهتى . و بينا أنا واقف على بعض مداخلها حيرانَ لا أدرى لى فيها مذهباً ، إذ جاز بى رجل حسَن البزّة ، فما إن رآنى حتى وقف يتأمّلنى ، ثم تقدم إلىّ فسلم وسلمت ، فقال : لعلك غريب حدرتك السنون إلى هذا البلد فى طلب الرزق ، ما تعرف هنا خُطةً ولا تعرف أحداً ؟ قلت : بلى ! قال : فهل لك فى أن تأكل أزكى الطعام، وتَلبَس أفخر الثياب، وتأخذ مالاً يعود بما يجتمع منه على شملك ، إذا رجعت إلى أهلك ، قلت : وأصنع ماذا ، فى كل هـذا ؟ قال : حسبك أن تكون طيّعاً أميناً . قلت لقد رضيت . ومالى لا أكون كذلك ؟ قال : الشرط أملَك ، فتعال معى ، وتبعته فمازال يخرج بى من طريق إلى طريق ، و ينفُذ من درب إلى درب ، حتى أفضينا إلى دار عالية البناء ، رَحْبة الفِناء ، فدخلها وأنا وراءه ، ثم أفضى بى إلى حجرة فسيحة حسنة الرياش ، جلس إلى جانبيها مَشْيخة من الناس ، لهم هيئة حسنة ، وجلس فى الصدر شيخ أعمى عليه مطرف ، وهو أكبرهم عمامة . فتقدمنى صاحبى إليه وأسرّ فى أذنه كلاماً ، فدعا بى ، فسلمت وسلم القوم ، وقال لى ذلك الشيخ ، وعرفت أنه كبيرهم : هل علمت شرطنا ورضيت به ؟ قلت بلى يرحمك الله ! قال : إذن فاعلم أنك قد تُوجَّه إلى الوليمة فتقتحم على القوم طعامهم بلطف حيلتك وحسن مَدخَلك ، فكلْ ما شاء الله لك أن تأكل ، فاذا أَصبت غفلةً من العيون ، فدس فى أطواء ثوبك كل ما يتهيأ لك دسه من اللحم والحلوى . و إذا وصلك رب الصنيع بمال قلّ أو كثر، فعليك أن تجىء بالمال و بالطعام ، فيقسم هذا وهذا بين الجماعة لكلّ سهم، وللشيخ « يعنى نفسه » سهمان ، وهـذا شأن إخوانك جميعاً . قلت : أفعل

إن شاء الله ولا فضل لى فيه ، بل الفضل أجمعه إليكم ، وقاسمتهم على هذا ، فجعل الشيخ يعلِّمني وينصَح لى بما لم أجد ما أحتاج معه إلى مزيد ، ثم دعا لى بخير

ولما نزلت الشمس للمغيب ، أفرغوا على كل منا طيلساناً وعمموه عمامة كبيرة ، وزودوه بما أمسى له به هيأة وسَمْت ، ثم جعل الشيخ يفرقنا فى ولائم الليلة ، وألزمني رجلاً من الجماعة ليعرِّفنى الطريق ، ويُفرخ عنى ما عسى أن أجد أول الأمر من الهيبة والتحشم ، وليريني كيف يكون التجمل لهذا الأمر والتلطف فيه

ومضَينا لوجهنا فأصبنا من فاخر الطعـام ما شاء التطفيل أن نُصيب . ثم عدنا بما دسسنا من الطعام وما أفدنا من الدراهم إلى الجماعة ، حتى إذا عاد سائرهم ونَفَضوا ما حملوا ، تقسَّموه ، وأخذت قَسمى ، وادخرت فضل الطعام لغدى .

وما زلت على هذه الحال حتى عرفت خُطط بغداد ودروبها ، والمتبسطين على الطعام من أجوادها ، وتمت لى البراعة فى هذا الأمر ، وأصبحت لا أحتاج فيه إلى رديف ، فحسُنت حالى ، وكثُر المال فى يدى ، فاكتريت داراً لى أنام فيها ، وفيها أقضى وقت فراغى .

ثم بدا لى أن أبعث فى طلب أهلى وعيالى ، فما مِثلُ هذا العَيش عَيش ، ولا وراء ما أنا فيه من النعمة نعمة !

وذات عشيَّة أذَّن الشيخ فى القوم بأن لا ولائم الليلة فى المدينة ، فمن شاء قام إلى بيته . فبدا لى أن أتفرج صدراً من ليلى فى أرجاء بغداد ، وما برحت سائراً يُزلقنى طريق إلى طريق ، ويستدرجني درب إلى درب ، حتى رأيتُنى فى ظاهر البلد ، وإذا عُرس يرد عليه الناس زرافات وشتَّى ، فاختلطت بهم ودخلت الدار معهم ، وآكلتهم وشاربتهم ، ونفحني رب الصنيع بدينار ، فوسوس لى الشيطان أن أستأثر به ، وأكتُم صحبى أمرَ هذه الوليمة ، فما جاءتهم عيونهم عنها بخبر .

ومَضَيت إلى الجماعة من غدى ، فما رأونى حتى وقفوا صفاً ، وقد احمرَّت أَحداقهم ، ورجَفَت شِفاههم ، وقال قائل منهم : أين كنت ليلة أمس ؟ قلت : طلبت دارى من ساعةِ فارقتكم ولازمتها حتى الساعة . فجذبنى أولهم إليه وشمَّ راحتى ، وقال بل كنت فى وليمة وأكلت (ديكاً رومياً) ، وصفعنى صفعة شديدة ودفعنى إلى الذى يَليه ، فشمَّ راحتى وقال : وأكلت بعده (باميا مرصوصة) ، وصفعنى صفعة أطارت صوابى ، ودفعني إلى الذى يليه ، فصنع صُنعه ، وقال : وأكلتَ (كستليته) مشوية ، وصفعني صفعة كادت والله تسُلّ خَيط نخاعى ، وقال الرابع : وأكلتَ كيت ، وهكذا ما أخطأ ، والذى نفسى بيده ، واحدٌ منهم قط فيما تشمَّم وحزَر . ثم انتهيتُ إلى الشيخ المكفوف ، فشمَّ باطن يدى وقال : وأخذتَ ديناراً ! وصفعنى صفعة لو وُزِن بها كل ما نالنى فى ليلتى لرجَحَت به . وما زالوا بى صفعاً بالأكُفّ ، وركلاً بالأرجل حتى ألقَوا بى فى ظاهر الدار لا أَعِى شيئاً !

سيداتى ، سادتى :

هذه نادرةٌ من نوادر الطفيليين ، إذا لم تكن وقعت كما رويت ، وكانت من تلفيق الخيال ، فهى ولا شك تُعطينا فكرة ، ولو تقريبية ، عن احتراف مهنة التطفيل ذلك العصرَ فى بغداد ، ومهارة أصحابه فيه .

ولولا انقضاء الوقت المقسوم لى لحدثتكم عن بعض من شَهِدنا من الطفيليين فى العصر الحديث ، وأعنى أولئك الذين انقرضوا بانقراض ما يدعوه المصريون (بالأفراح) . ثم أخذنا بالحديث عن المتطفلين فى الوقت الحاضر ، أعنى الطفيليين (المودرن) .

ولعل لنا إلى هؤلاء وهؤلاء كرّة إن شاء الله .

التَطفيـلُ والطفيليُّون*

فى الجيل المـاضى

كنتُ قد أذعتُ من محطة الرديو فى شهر أغسطس من سنة ١٩٣٤ حديثاً عن التطفيل وقُدامَى الطفيليين . وأوردتُ فيـه طائفة من مُلَحهم ونوادرهم ، وما قيل فيهم ، وما قالوا هم فى أنفسهم ، ومواتاة بدائهم فى لُطف احتجاجِهم لاقتحامهم على الناس موائدَهم ، وتهافتهم على طعامهم من غير دعوة إليه . وتعرضهم فى هذا لألوان المكروه من الشَّتم والسَّبّ ، والطَّرد والضَّرب الخ .

ووعدتُ فى غاية الحديث أن أجرِّد « محاضرة » للطفيليين فى الجيل الماضى . وقد عَنَيتُ الطفيليين المحترفين ، وهؤلاء قد انقرضوا وخَلاَ وجهُ مصر منهم ، بذهاب العادة التى كانت شائعةً فى هذه البلاد إلى زمنٍ قريب . وهى إقامة الأعراس (الأفراح) وما إليها مما كان المصريون يَتنافسون فيه ، ويَتكاثرون به فى المناسبات المختلفة من نحو العَودة من الحجّ ، وخِتان الولد ، وولادة البكر من البنين وغير ذلك .

وكانوا يَدْعُون بالمغنِّين ومشهورى قُرّاء القرءآن العظيم ، ومرتِّلى مولد النبىّ الأكرم ، صلى الله عليه وسلم . كلٌّ على قدر حاله وجُهد ثروته . فمنهم من يَدعون بالمرحوم عبده افندى الحامولى ، أو المرحوم الشيخ يوسف المنيلاوى ، أو يَدعونهما معاً . وهؤلاء خاصَّةُ الخاصَّة من طبقة (الذوات) . أما المرحوم محمد افندى عثمان فكان من قَسْم أوساط الناس ، حيث لا يُقام على سرادقاتهم حَرسٌ ولا حجَّاب ، ولا شُرَط يدفعون الناس عن الأبواب . وبهذا كان عثمان مُغنِّى الشعب حقًّا . وما تقوله فيه تُجريه على المرحومين : محمد افندي سالم ،

* نشرت فى صحيفة (الدنيا) سنة ١٩٣٧

والشيخ محمد الشنتوری ، وإبراهيم افندی القبانی . وأحمد افندی فريد ، والسيد احمد صابر . وكانت طبقة (أولاد البلد) القُحّ ، وأعني بهم طائفة المقدّمين ، ورؤساء الصنّاع (المعلمين) ، ومَهرتَهم لا يَعدِلون بالسيد أحمد صابر مغنّياً آخر .

ولقد كان لهذا الرجل فى غِنائه أُسلوبٌ خاصٌّ به ، لا يذهب به مذهب عبده ولا عثمان ، ولا من يقلدون هذا ، ولا من يَشتَعبون طريق ذاك . هو أُسلوبٌ بلدىٌّ بَحت ، يتفخَّم فيه اللفظ ، حتى تشتبه تاؤُه بطائه ، وتَختلط سينُه بصاده . ويَمتدُّ فيه النَّفَس ويَطول الصوت ، وهو فى طريقه ما يزال يَرِقّ فى زجله وترجيعه ، ويَلين فى ترديده وتسجيعه . ويتخافت حتى تحسبه هُتاف الهاتف يَهمس به جانبُ الوادى البعيدُ فى الليل البهيم . ثم يُجلجِل ويَقصِف كأنه النَّفير أقبل يوقظ النِّيام ، ويُنذرهم الحادثَ الجُسام !

وكيفما كان الأمر ، فان صابراً كان أقدرَ المغنّين على مشايعة أحاسيس هؤلاء (أولاد البلد) ، وتحريك الوادع المستلقِى من عواطفهم . وكثرتُهم ، كما تعلم أو لا تعلم ، كانت من أرباب (الكيوف) ! .

وكانت الصحفُ السائرةُ فى البلد قليلاً ، ومطالعتُها تكاد تكون حَبْساً على الخاصَّة . وفوقَ هذا فليس الناسُ كلُّهم يُعلنون فى الصّحف عن أعراسهم ولا عمن يغنِّى مَدعوِّيهم . فكان يقوم بمهمة النَّشر هذه (باعةُ اللبّ) . ينتشرون من مطلع النهار فى أحياء القاهرة ، فيؤذنون فيمن يعرفونهم من هواة الغِناء والتَّطريب ، أن الشيخ يوسف الليلةَ فى دار فلان بجىّ كذا ، ومحمد عثمان فى دار فلان بجىّ كذا الخ . وسَرعان ما تَذيع هذه الأخبار ، فلا يدخل الأَصيلُ إلاَّ وقد مَلأَت جميعَ الأَسماع .

وكان الهواةُ إنما يَطلبون هذه (الأفراح) ، كلٌّ على حسبِ هواه وصَغْوه ، بعد العِشاء الآخرة . أى بعد أن تُرفع موائد الطَّعام ويَنتظم مجلس الغِناء . أما قبل ذلك فلا يَغشَى موضعَ الصَّنيع إلاَّ المدعوُّون وإلاَّ الطفيليون

وهؤلاء الطفيليون كانوا معروفين للنَّقَدة سواء من أصحاب الصُّنُع[1] أو من المدعوين . من لم يُعرَف منهم بِحليته ونسبه عُرف بسِياه ودَلّه : أما جماعاتُ الفراشين ، فكانوا يعرفونهم جميعاً ، لكثرة اختلافهم إلى الموائد ، وتردُّدهم على الطعام فى الأعراس والمواسم . وكثيراً ما يَدلُّون أصحاب الصنيع عليهم ، ويَلفتونهم إلى مواضعهم .

وهنا ينبغى أن أقول لك : إن (أولاد البلد) تَشيع فيهم خَلةُ الجود بالطعام ، فتراهم ، حيثما كانوا ، يَدعون إليه ، ويتبسَّطون عليه . يَدعون إليه (ولو تجملاً) ساقطَ الآفاق ، واللائحَ فى عُرض الطريق . وقد يُلحُّون فى الدعوة وقد يَعزمون[2] .

إذا عَرَفت هذا وقَرَنت إليه تلك الخَلَّة التى هى مزجٌ من الخجل والضَّعف — أدركتَ أن هؤلاء الطفيليين ، أو (الطَّبَّابين) ، على اصطلاح (أولاد البلد) أنفسهم ، لم يكونوا يجدون مشقةً فى غِشيان صُنُعهم ، والاقتحام على موائدهم على وجه عام . ولكن المشقة كلها عليهم ، والحَرَج أجمعه على أصحاب العُرس ، هو فى أن يتسلَّل هؤلاء (الطبابون) إلى الموائد الخاصَّة التى أُعدَّت لجباه القوم وأعيانهم .

وفاتنى أن أذكر لك أن الطَّعام كان يُقرَّب على أُخونة (صوانى) متعددة ، يُرصُّ حولَ كل واحدٍ منها من ثمانية نفر إلى اثنىعشر . وتختلف ألوانُها باختلاف درجات المدعوين . وأفخرُها ما يُصدَّر بالحَمَل (القوزى) ، أو (الديك الرومى) ، ويُسلَك فيه الحمامُ والفراريجُ وأطايبُ اللحم تُطهى على أشكال . وتُقرَّب

---

(١) الصنع بضمتين : جمع صنيع وهو الطعام (٢) يعزمون : يحلمون

(المسبّكات) من ألوان الخُضر . ويُستكثَر فيه من صنوف الحلوى . ويُخصّ أخيراً بالفاكهة . ودون هذا ما يُصدَّر بالضِّلع ، وهكذا إلى أن تقتصر مطالعُ الموائد على المُزعة من اللحم . لا يملؤ نصيبُ الآكل منها الكفّ ولا ينتفخ به الشدق . وهذه الموائد المعدودة لعامّة الناس .

وهنا يَشجُر الخلافُ بين (الطَّبَّاب) وبين صاحب الصنيع . فهذا (الطَّبَّاب) لا يَنحدِر طرفُه ولا يتقاصر همُّ بطنـه عن أفخر الطعام وأدسمه وأجزله ما عرف موضعَه ، ودنا محله . وعليه يَسيل لُعابه ، وله تَتفتَّح لَهوتُه . وإليه تَهيج شهوةُ بطنه . فكيف الصبرُ عنه ، وكيف الرِّضا بما دونَه ؟

أما صاحبُ الصَّنيع ، فانما احتفل للمائدة ما احتَفَل ، وبذل فى التأنُّق فى الطعام ما بَذَل ، إيثاراً لمن (شرّفوه) من أصحاب الوجاهة والمنزلة فى الناس بالجاه والمنصِب ، ومبالغـةً فى إكرامهم ، واستخراج الإعجاب والثناء منهم ، فهو ، بالضرورة ، يَكره أن يُدسّ بينهم من لا يشاكل أقدارهم ، ولا يُطاول أَخطارَهم . فكيف بمن خَلَق ثوبُه ، وشاه سَمتُه . وهان موضِعه ، وكيف به ، فوق هذا ، إذا ملكه النهَم ، وغلب عليه القرَم[1] ، فاطَّرح التحشُّم ، وجَعَل يُقبِّح فى أكله ، ويَعطو بكلتا راحتيه ، ويصول فى باطن الصفحة بجميع يده ، ويزدرد الطعام ازدراداً ، ويَلتقِمه التقاماً ، حتى لا يكاد يَمسّ فكّه ، أو يصالخ ضِرسه ، بل إنه ليمرّ مرّ البرق على شِدقِه ، فى مَهواه إلى حَلقِه !

ويثور ثائر رب الدار إذا رأى (الطَّبَّاب) دسيساً على خاصَّة المدعوين . سواء أمعنوا فى الطعام ، أم كانوا فى انتظار الطعام . فسَرعان ما ينصَبّ عليه ، ويَجذبه بضبعيه . وربما زمّ عُنقه بكلتا يديه . ثم جعل يجرّه جرًّا . إذ الرجل قد

---

(١) القرم بفتحتين : شدة الشهوة إلى اللحم .

أرسخ رجلَه على الأرض ، أو لفَّ ساقه على رجل دَكّة أو نَضَد[١] ، وتشبثت يداه بكرسى ثقيل أو بعضادة باب . و بطنُه ، أثناء ذلك ، يرتفع مع أيدى الآكلين ويَهبِط ، ويَنقبِض مع راحِهم ويَنبسِط . حتى إذا جُهد برب الدار استنفر لزحزحته الأهلَ والخدمَ والفراشين . فلا يزالون به دفعاً ولكزاً بالأيدى ، وركلاً بالأرجل ، وهو يقاوم ويجاهد ، حتى إذا خارت قوتُه ، وانخذل متُنه ، ونَفِد جهدُه . حملوه فألقوه فى ظاهر الباب ، أو نفضوه عن ساحة العُرس نفضَ التراب . فلا يلبَث أن يَجمع شملَه ، و يتسلَّل فى لباقة وخِفة . ويَرتصِد للمائدة نفسها ، فاذا أصاب غِرة من أهل الدار ، عاد فانصبَّ عليها ، وإلاَّ عَدَل إلى مائدة أخرى تكافِئها أو تقلّ يسيراً عنها . وربما عاوده أولياء العُرس بالطَّرد والضرب ، فلا يَثنيه ذلك عن المعاودة وهكذا . وكأنه فى شأنه هذا يتمثَّل بقول الشاعر بعد أن وجَّه الكلامَ فيه على البطن بدل النفس :

لأَبلغَ عُـذراً أو أُصيبَ غَنيمـةً ومُبلِـغ (بَطنٍ) عُذرَه منكَ مُنجحُ !

*
* *

و (الطَّباب) وقاك الله شَرَّ البِطنة ، لا يَقنع بالوَجبة على المائدة . بل إنه ما يكاد يرفع يدَه عن غاية الطعام ، حتى يُهروِل فى التماس مائدة أخرى فى العُرس نفسه ، أو فى عُرس غيره ، من حيث قدَّر يُسر المَدْخَل ، وغفلة الأعين ، وجودةَ الطعام ، حتى لقد يوالى بين ستٍّ وَجباتٍ أو سبعٍ فى ليلةٍ واحدة ، ما يُثقِله بَشَمٌ[٢] ، ولا تُرهِقه كِظَّة ولا يَضيق له كظَمٌ[٣] . كأن معدته نُحتَت من حجر أو قُدَّت من حديد . وحق فيها : « يومَ نَقولُ لجهنَّم هل امْتلأْتِ وتَقولُ هل من مَزيد » ؟! . .

---

(١) النضد بفتحتين : المراد به ما يدعى فى العامية (الترابيزة) .

(٢) البشم بفتحتين : التخمة (٣) الكظة بكسر الكاف وتشديد الظاء : ما يعترى الانسان من الضيق عند الامتلاء من الطعام . والكظم بفتحتين : مخرج النفس .



ألا فى سبيل (البطن) !...

ثم إنه لا يكتفى بكل ما يدسّ فى جوفه ، ويَقذِف فى بطنه . بل إنه لدائبٌ جاهدٌ ، ما أصاب الغِرّة وأَمِن الرِّقبة ، فى أن يدُسّ فى جيبه كل ما تيسّر له من اللُّحمان والمحاشى والحلوَى والفاكهة . وقد يراه على هذا بعضُ مؤاكليه فلا يتعرّضون له من رحمة أو من حياء ! .

*
* *

وبعــد ، فهذا كان شأنَ عامة الطفيليّين أو (الطَّبَّابين) فى الجيل الماضى . على أنه كان لخاصّتهم شأنٌ لعله أكرمُ من هذا الشأن ، فاذا تحرّيت الدِّقّة فى التعبير قلت لعله أقلُّ هوانًا ، وأضعفُ امتهانًا .

وفى (الطَّبَّابين) أيضًا خاصّة ، كما فى سائر طبقات النــاس خاصّة . وخاصّةُ (الطَّبابين) هم جباهُهم وعُرفاؤهم وسراتُهم. وناهَيك بالنديم ، الظريف ، المحاضر ، السَّرىّ ، الوجيه ، الجميل السَّمْت ، والفاخر البِزّة ، المرحوم الشيخ حسن غَندَر . والشيخ حسن غَندَر حقيقٌ بأن يُؤثَر وحدَه بمقالٍ طويل ، فللرجل فى مفاخر التطفيل تاريخٌ حفيل .

الباعة الجوالون
ومساحو الأحذية*

سيداتى ، سادتى :

لعلكم كنتم تتوقعون منى الليلة أن أُتمّ لكم حديث الأسبوع الماضى ، بل لقد استحثّنى على هـذا كثيرٌ ممن لهم فِتْيانٌ ما بَرِحوا فى مطلع الشباب . ولكننى ، والحمد لله أكره الأَثَرةَ لنفسى ، ولا أحبها فى غيرى . وذلك الحديثُ فوقَ ما فيه من جَفاف أو ما يُشبه الجَفاف ، فانه مما يَعنِى مباشرةً طبقةً خاصةً من الناس . و إننى لم أنسَ وعدى لكم أن أُداول بين فنون الأحاديث ، ففى التلوين والتغيير ، كما قلت ، راحة واستجمام . وأَعِدكم وعداً صادقاً أن أُتمّ ذلك الحديثَ فى نَوبة أُخرى إن شاء الله .

سأُحاضركم الليلةَ فى موضوعٍ لا يمكن أن يَرِد لأحد منكم على خاطر . وإنى لَأتحدَّى من شاء منكم أن يحزر ، فان أصاب فله عندى عشرة جنيهات إزاء جنيه واحد إذا أخطأه الحظّ ، وهو مخطئه لا محالة .

سيداتى ، سادتى :

لقد تحدَّيتكم جميعاً ، وتعرّضت لمخاطرة من شاء منكم ، فى حين لا أعهد فى نفسى بعضَ هذه الجرأة . وليس من عادتى المخاطرةُ أبداً . والواقع أنه لم يَبعثنى على هذا ويُشجّعنى عليه إلا أننى أتناول موضوعاً لا يمكن أن يخطر ببال أحد ، لأنه من التَّفَه والسخف فى الحضيض الأوهَد . وأنا واثقٌ بأننى حين أُباديكم بعنوان هذا الموضوع سيأخذكم العَجَب ، ويَتملككم الدهَش .

---

* أذيعت بالرديو فى ١٤ يوليه سنة ١٩٣٤ ، ونشرت « بالجهاد » بعد ذلك

أى والله يا سادة ، إنى لمحدثكم الليلة عن الباعين (السريحة) ، وعن (البويجية) وكنت والله أحب أن أقرن بهاتين الطائفتين ثالثةَ الأثافى ، ألا وهى طائفة سادتنا الشحاذين . ولكن الوقت أضيق من أن يحتمل هذا كلّه ، فللسادة الشحاذين وحدَهم حديثٌ طويل . ولعلنا نُلمّ به فى فرصة أخرى ، إذا أذنوا هم لنا بساعة من النهار أو الليل واحدة ، نتدبَّر فيها أمرَهم ، ونتقصَّى بعضَ سعيهم .

إذن سأحدثكم الليلة عن الباعة المترفّقين بأبدانهم ، المضطربين فى السبل ببياعاتهم

سيداتى ، سادتى :

أَرجو ألاَّ تتابعوا أوهامَكم ، فهى ولا شك ، تَكذِبكم إذا مثَّلت لكم هذا الموضوع بهذا المكان من التفه والسخف ، وإنى لأزعم أنها مسألة ذات خطر كبير ، بل لقد أستطيع أن أزعم أنها من مشاكلنا الاجتماعية التى ينبغى أن تَتظاهر الجهودُ على حلها وتَولِّيها بالعلاج . كلُّنا يفكِّر فى غلاء القمح ، وكلُّنا يتدبر فى هبوط أسعار القطن . وكلُّنا يجزع إذا عَرَض الحديث فى أزمة الديون العقارية ، وكلُّنا مشغول بكيت وكيت من المشكلات التى تَسْتهلِك تفكيرَنا وجهدَنا ، وتَفيض بها الأنهارُ الطِّوال فى صحفنا . مع أن تلك الأزمات مهما بلغ من بعيد أثرها وعظيم ضررها ، فإنها وقتية سيحُلها الزمان إذا لم تحُلها جهود العاملين . أَما هذه فالقضاء الحتمُ علينا أبدَ الآبدين ، ودَهرَ الداهرين ، إلى أن يرث الله الأرضَ ومن عليها وهو خيرُ الوارثين !

البدارَ البِدار ! النجدةَ النجدة ! يا مفكرى الأمة ، يا جماعة العاملين فيها ، يا معشر المتحدِّثين عليها : هيا هيا أنقذوا البلاد ، وأريحوا العباد . فقد بلغ السيلُ الزُّبى ، وجاوز الحِزام الطُّبْيَين !

اللهم ارفع مقتَك وغضبَك عنا . لقد كُتِب على سكان المدن فى هذه البلاد الحرْمانُ الأبديُّ السَّرْمديُّ من الراحة والدَّعة ، والأمن على الأموال والأعصاب .

أَنَّى جلست فأذى ، وأَنَّى سعيت فكَيد ، وأَنَّى اضطربت فعَناء ، وأَنَّى توجهت فبلاء فوقَه بلاء وتحتَه بلاء !

تهافُتٌ مستمرّ ، وإلحاح لا ينقطع ، وشُخوص متواردة متتابعة متتالية ، لا يكاد ينفُذ بينها الهواء ، وأصوات منكَرة عالية لا تَسكن ولا تَفتُر ، ولا تَرِقّ ولا تهدأ ، وكذب لا تَعتريه مَذْقةٌ من الصدق أبداً ، وأَيْمان كلها غَموس ، لولا حِلم الله وإمهاله لأَعميت العيون ، وصمت الآذان ، و بترت السوق ، وقصمت الظهور ، وجدعت الأنوف ، وعجلت مواقع الحتوف .

ولنتكلم عن الباعة أولاً ، ولنبدأ من حديثهم بخراب الذمة ، والغش وقلة الحياء . أستغفر الله بل انعدام الحياء . أما الغشّ ، والكذب ، والحَلِف بالباطل ، فهذه خَلَّة مشترَكةٌ بينهم جميعًا لم أر فى حياتى من سلم منها إلى الآن : يَعرض الواحد منهم عليك السِّلعة ، فتسأله ثمنَها . فيجيبك بأنه ريال مثلاً . فتَعمِد إلى مقابلة الكَيد بالكَيد ، فتَعرِض عليه فيها أربعة قروش ، فيُظهر لك الغيظ والسخط على هذا الوَكس ، فتُصرّ فيحلف بالطلاق والعتاق ، و بالعين والعافية ، والولد (ولاًّ يعدمه) ، و ينذر الحج إلى بيت الله ماشياً . أنها (واقفة عليه) فى الجملة بثمانية عشر قرشاً صاغاً . فهو يبيعها لك برأس المال ، لأنك (مش غريب) ، وهو (لسَّه ما استفتحش) ! فتصمِ، فيَعرض ستة عشر ، ثم يتدلَّى إلى أربعة عشر ، ثم إلى عشرة . ثم يُنذرك الإنذار الأخير بأنه لن يبيعها بما دُونَ الثمانية . فتُشيح عنه بوجهك ، فيوَلِّى مسرعاً حتى يغيب عن نظرك ، ما لم تبادر فتتبعه بندائك . ثم ما يلبث أن يعود فيقول لك : (و بستة ما تخدش) ؟ فتسكت ، فيقول لك : (طيب عاوز كام واحدة) ؟ وهكذا يأبَى كلٌّ واحد منهم إلا أن يحقِّق فى كل لحظة قول الشاعر :

وأَكذَبُ ما يكون أبو المثَنَّى إذا آلَى يميناً بالطَّـلاقِ

ثم إنهُ يُغش غشًا مفضوحًا قذراً . وقد يغُش (زبونًا من زبائنه) الثابتين الذين يعاملونهُ فيُجدُون عليه كل يوم . وقد يكون هذا الغشّ فى نوع البضاعة ، كأن يبدل سِلعة بأخرى فى أثناء غدوِّه بالمساومة ورواحه ، أو أن يُصيب الغِرَّة من المشترى فيدسّ له الفاسد العطِب ، أو أن يؤكد له أن صديقه فلانًا اشترى بسعر كذا كذبًا وبُهتانًا ، وهو يعلم أنهُ ملاقيه فى غَدِه إن لم يَلقَه فى يومه ، وقد لا يزيد الخطب كلُّه على دراهم قليلة . ثم يكون من أثر هذا الانتفاع الحقير المحرم أن يَخسرك ويَخسر معك كلّ جلسائك بالاختفاء عن مجلسك الشهورَ الطِّوال ، بل السنينَ ذاتَ العدد .

وأنا مُسمِعكم نَموذَجًا مما جرى لى من هذا القبيل ، وأقول نَموذجًا لأن هذه أشياء لا يدركها عدّ ، ولا يحيط بها حَصر :

(وهنا أورد المحاضر طائفة من النوادر العجيبة التى وقعت له مع هؤلاء الباعة)

*
* *

أَما قلَّة الذوق فحدث عنها ولا حرج : يراك أحدُهم وأنت تتناول طعامك فى أفخر مطعم ، وبين يديك أشهى الأطعمة ، فيمدّ يديه من الشباك ، (بالبنيكة) التى يحمل عليها بياعتَه ، حتى يحكّ بها ذقنك . ويصيح فى وجهك : (البيض والجبنة والكحك الشامى) ! آمنت بالله ! . وقد تكون فى جماعة من أَصدقائك فى مكان محجوز من محل عامّ ، وقد تكونون منهمكين فى أدق الحديث ، وقد حَمِيَ بينكم الجدل واشتدَّ . وقد يكون معكم من يغنّيكم بالصوت الكريم الحنَّان ، وقد أرهفتم آذانكم وعلَّقتم أنفاسكم ، وجمعتم كلَّ إحساسكم للسمع . فلا يروعكم إلاَّ عُتُلٌّ يقتحم عليكم المجلس ، ويَظَل يصيح : (الفستق الحموى ، الفستق الطازة !) . فلا يسع المتحدِّثَ إلاّ أن يَسكت ، والشَّادى إلاَّ أن يقطع الغِناء ، ولكنه هو

لا ينقطع عن الصِّياح والنداء . ويرى هذا كله فلا يُمسك ، ولا تُخجله تلك النظرات الشَّزْراء . ولكن ما الحيلة ، والعين بصيرة ، والرجل قصيرة !

وثالث يراك منهمكاً فى طعامك ، والدُّهن يسيل من يديك كلتيهما ، فيمدّ يده بورقة (اليانصيب) حتى تحول بينك و بين طعامك ، وحتى تكاد إصبعه تفقأ العين : (آدى اللى فضلت ، السحب النهارده ، اللى تكسب ميتين جنيه !) يا سيدى أنا عائذ بالنبىّ ! وكيف لى بأن أدسّ يدى فى جَيبى ، وهى على هذه الحال ، لأستخرج الثمن ؟

*
* *

وعلى ذكر (اليانصيب) أذكر لكم أننى كلّ يوم فى مَغداىَ ومَرَاحى أشهَد عِملاقاً صَعيدياً ، تكاد مساحتُه تُقاس (بالقصَبة) طولاً وعرضاً . يستطيع وحدَه أن يَشقّ مصرفاً ويُطهِّر تُرعة . وقد أوتى قفاً يتحيَّر النظرُ فى ضواحيه . ما رأيتُه مرَّةً إلا أحسستُ كفِّى تُنازِعنى إليه ! لو أُلِّف من نفسه فقط (منسراً) لقطع الطريقَ بين القاهرة والأقصر ، وأصبحنا لا نبلغ أُسوان ، إلاَّ عن طريق بورسودان . ولو أن الهر هتلر استولى عليه لكفاه كلّ من يحذَر من خصوم حكمه ، ووفّر عليه العَناء فى تأليف فِرَقٍ للهجوم وأُخرَى للدفاع ، وأعفاه من المؤونة فى القمصان الزرقاء والحمراء !

أتعرفون بماذا (يسرح) هذا الكونُ العظيمُ عامَّةَ نهاره ؟

إنه يَجول كلُّه بثلاث ورقات (يانصيب) . إحداها (إسلام) ، والثانية (رومى) ، والثالثة لا أدرى !

أرأيتم كَيداً أشدَّ من هذا الكَيد ، و بلاءً يَعدِل كلّ هذا البلاء ؟

سيداتى ، سادتى :

بحسبنا اليومَ هذا القَدرُ فى جماعات الباعة المضطربين بيياعاتهم فى الطرق . ولنَعدِل الآن إلى طائفة ، ماسحى الأحذية ، وما أدراكم ما ماسِحو الأحذية ؟ ولا جزَى اللهُ خيراً ذلكم الذى اخترع هذه الأحذية الأفرنجية ، حتى أغرتنا بأن نَستبدل بها نعالنا البلدية . أعني (المراكيب) الحُمر .

ورعى الله أيامَ (المراكيب) الحُمر وأيامَ قَصَبة رضوان ، ولو بَقِيت لأغنتنا عن رؤية تلك الوجوه فى هذا الزمان !

(وهنا أورد المحاضر طائفةً مما وقع له من النوادر مع ماسحى الأحذية ، وبها انتهت المحاضرة)

إلحاح ! . . .*

لا أحسب أن الله تعالى بَعث خَلقاً من خَلقه أشدَّ إلحاحاً من حمّالى (شيّالى) محطة منيا القمح . ولا أشدَّ إلحافاً من ماسحى الأحذية فى منيا القمح . تكون فى المحطة صاعداً أو هابطاً . مسافراً أو مودِّعاً أو مرتاضاً . فيتهافت عليك من أولئك الحمالين من لا يُحصَون كثرة : هذا يحمل الخريطة (الشنطة) الكبيرة . وهذا يحمل الخريطة الصغيرة . وهذا ينتزع منك المعطف (البالطو) ، وهذا يسُلّ منك الشمسيَّة . فان لم تكن فالعصا الخ . فان لم يكن معك شىء من ذلك تَحَكَّكوا بك وجسُّوا بأكتافهم صدرك وجانبيك معاً . فَعلةَ خفيَّةٍ (بوليس سرى) يرتاب فى أنك تدُسّ فى مطاوى الثياب (كوكايين) أو هاروين . لعلهم يُصيبون (محفظة جيب) فيحملوها عنك إلى القِطار حملاً . فاذا أَيِسوا من هذه الناحية أيضاً، سألوك أن (يقطعوا لك التذكرة) ، فاذا أسعدك الحظ وكانت معك (تذكرة) ذهاب وإياب ، سبقك اثنان منهم ففتحا لك باب المركبة ووقفا على طريقك فى انتظار (الأجرة) ! .

أما ماسحو الأحذية هناك . فهم أَشْرهُ وأَطبع ، وهم أنكى وأوجع . لقد تضع رجلَك اليمنَى على سُلم القِطار ، والقِطار على جَناح السير . وتتعلّق يداك بمقابض الباب ، وتتهيأ لِرفع رجلك اليسرى . وفى هذه اللحظة يَلكُز المسّاحُ ساقَك اليمنَى بصُندوقه ، ويهيب بك (بويه) !!!

فاذا جَرَى عليك القَدَر بالجلوس إلى المقهى القائم بازاء المحطة فى انتظار صديق مواعدك أو مركبة توافيك ، فاللهم اشهد قسوة الإنسان على الإنسان : يَثِب إليك

* نشرت فى « السياسة » فى سنة ١٩٢٥ تحت عنوان (ليالى رمضان)



(البويجى) إذ أنت لم تأخذ بعدُ قرارَك ، فيطوّح فى وجهك بصندوقه حتى يَمسّ أحياناً أَرنبةَ أنفك . فتعتذر إليه فلا يُسيغ لك عذراً . وتتشفّع إليه فلا يَقبل فى نَعلك شفاعة . بل إنه ليجلس على الأرض ويَجذب ، برغمك ، رجلَك . فاذا ركَلْته بها جذب الثانية . فاذا أنت بين اثنتين لا ثالثة لهما : إما الرضا بهذه (المسحة) ، وإما الانتهاء إلى (المركز) فى جناية أو جنحة ! .

وقد اتّصل بى أخيراً والعُهدةُ على الراوى ، لا علىّ أنا ، أن مسّاحى الأحذية فى منيا القمح قد أَلَّفوا هم الآخرون من بينهم فِرقاً . كل فرقة ثلاثة : اثنان منهم يَحملان (فَلَقة) ، فاذا وقع للمقهى إنسان ، أسرعا (فمدّاه) ، وأقبل الثالث يمسح له الحذاء . وكان هذا لزائر منيا القمح نعم الجزاء !

يا لطيف ! *

تعلم أن رمضان يقظانُ اللَّيل نائمُ النهار . يجمُد الناس وتفتُر الحركة فى نهاره . ويسهرون ليلَه . ويقضونه فى وجوه السَّمَر . ولهذا تؤخِّر الحكومة مواعيد افتتاح الدواوين والمصالح والمحاكم والمدارس . ولهذا تعطَّل المعاهد الدينية طَوال الشهر المبارك . لأنه إذا كان قُدر على الناس أن يَسهروا عامَّة ليلهم فى رمضان ، فليس من المستطاع أن يَنشَطوا فى الصباح الباكر لقضاء مصالحهم ومعالجة أسبابهم . على أنك ، فوق هذا ، تجد سائر الأعمال جامدةً راكدةً فى نهار رمضان ، بحكم صيام الصائمين ، واختلال أمزجتهم ، وفتور أعضائهم من جهة . وبحكم قضاء الليل فى السهر ، وحاجة الناس إلى التزوُّد من النوم فى النهار من جهة أخرى . إلاَّ أن إخواننا الباعة وسادتنا الشحاذين لم يسلموا إلى الآن بقضاء الله ، ولا بقضاء الطبيعة ، ولا بقضاء العادة ، ولا بقضاء الحكومة ، ولا بقضاء أمزجة الناس . وإنك لتقضى ليلَك كلَّه فى السهر إلى الساعة الثالثة بعد نصف الليل أو الرابعة أو الخامسة، ويكون من حق الطبيعة، ومن حقِّ بدنك عليك، ومن حقِّ العمل الذى تُعالجه أن تنام ، على الأقلّ ، إلى الساعة الثامنة أو التاسعة أو العاشرة . وإلا انهدَّ جسمُك ، واختلَّت أعصابك ، وفسد عليك شأنُك كلُّه . فتصوَّر يا سيدى أنك نمت خِلَلَ تلك الساعات . فلم يرُعْك إلاَّ النداء القوى المزعج يَبعثك من أحلَى رقداتك فى الساعة السادسة : « ونبيّض النّحاس . ونبيّض النّحاس » ! أو : « البدارَى السمان » ! أو غير ذلك مما يَحمله أولئك الباعة المترقِّقون بأبدانهم المضطربون بسِلَعهم . وإنى لأسمع صرخةَ الرجل منهم فأحزم بأنه لا يَعرِض سلعتَه على أهل الأرض ، ولكنه إنما يعرضها على سكان الملأ الأعلى ، حتى إنك

---

* نشرت فى جريدة « السياسة » تحت عنوان (ليالى رمضان)



لتكون فى ضجعتك الهانئة بعد قضاء ليلك الأطول ، فاذا بك قد هَبَبْت من نومك وأنت تظن أن الحرب قد نَشِبت ، أو أن النار قد أَكلت أثاثَ بيتك ، أو أن سقوف الدار قد خرّت على عيالك . فاذا الخطبُ كلُّه أن بائعاً ينادى « البدارى السمان » أو أن شحاذاً يصيح : « من فطَّر صايم له أجر دايم هنيًّالك يا فاعل الخير » . والناس إنما يشترون صِغار الفراريج ليَطهوها لإفطارهم إذا نزلت الشمس للمغيب . ولا أدرى لماذا يشترونها فى فجر يومهم ، اللهم إلاَّ أن يكون قد دخل فى وهم أولئك الباعة أنها ستكبَر عند (الزباين) وتَسمن ، حتى إذا دخل وقت الغروب استحالت (عتاق) وأمست (بيجاوى) .

*
* *

أما أَمر الشحاذين فأعجب وأغرب « من فطَّر صايم له أجر دايم الخ » وذلك من منتصف الساعة السادسة صباحاً . أى أنَّ على الأمة أن تَسهَر، بحكم طبيعة رمضان ، إلى الساعة الثالثة أو الرابعة أو الخامسة صباحاً . ولكن عليها فى الوقت نفسه أن تهُبَّ من منتصف الساعة السادسة ، وتشمّر عن سواعدها ، وتَنشَط فى « تقشير البصل » ، و إنضاج « التقلية » ، وخرط « الملوخية » ، و « تقميع البامية » ، و « تحمير البطاطس » ، و « فلفلة الأرز » و « دقّ الكفته » و « تسوية الكنافة » ، و « قَلْى السمك البربون » ، و « نقع الخشاف » للسادة الشحاذين !

نعم يجب على الأمة كلها أن تنتر أيديها من كل عمل إلاَّ ما يجب عليها من معالجة الطعام وتهيئته لسادتها الشحاذين . حتى إذا حان وقت الأفطار قرَّبت إليهم كلّ ما ساغ من لحوم طرية ، وأطعمة شهية ، وفواكه جنيّة !

وبعد فإن على الحكومة أن تختار بين أمرين : إما منع الشحاذين وحسم الباعة من أن يصيحوا ويهتفوا فى رمضان قبل الساعة التاسعة ، على الأقل ، حتى تستطيع الأمة أن تريح بدنها وتَستجمّ لأعمالها . وإما أن تأمر بإلغاء شهر رمضان بتاتاً ، لتوفر الأمة جهودها على الباعة والشحاذين ، بحيث (تنخمد) من الساعة التاسعة مساء ليتهيأ لها أن تهُبَّ من الفجر (لتشترى البدارى السمان) ، أو (لتبيّض النحاس) ، ولتهيئ أشهى الطعام وأجنى الفاكهة لسادتها (الشحاذين) . وعلى الحكومة السلام ، وعلى الأمة هجر المنام وترك الصيام !

الشَّحاذون ... ! *

لا أعرف أن الدنيا تجمع طائفةً من الناس أشدَّ أثَرَة ، ولا أورَمَ أنوفاً ، ولا أعظم غروراً ، ولا أبلغ تَتايهاً على صرف الأيام من سادتنا الشحاذين المصريين ! .
وأقول سادتنا الشحاذين لا على حكم التأدب ولا على جهة التهكم ، كما يتبادر إلى ذهنك باديْ الرأى ؛ بل لأنه الحق الذى لا شك فيه . فهم سادتنا حقاً ، ونحن مواليهم حقاً . فان كان ما زال يَختلج فى نفسك الرَّيب ، فاسمع هذه القصة :

من يوم نَجَمْت وجَرَت علىّ تكاليف العيش ، وأنا أُحيى ليالى رمضان بالسهر إلى السحور ؛ وإلى أن يَنجلى عمود الصبح ، أسمع القرءان الكريم فى دار أبى ، وأجلس مع إخوتى وزُوّارنا للسمر ، ولقد أمْضى إلى مسجد السيدة زينب قُبَيل الفجر لأسمع من الشيخ أحمد ندا سورة طه ، يُرجِّعها صوتهُ الفاخر ترجيعاً ، حتى يخيَّل إليك أن جبريل عليه السلام إنما يتنزّل بهـا من جديد . فاذا أذّن الشيخ بعد هذا بالفجر وقمنا لصَلاته ، جلسنا إلى حَلْقة أستاذنا الشيخ محمد أبى راشد فتلقّينا علماً طريفاً تنبسط له النفس ، ولا يطاوِل فيه الفهم ، من قصص الأنبياء وكرامات الأولياء ونوادر الصالحين .

وإننى لأرى أننى قد أطلت عليك ، وما بغْنى إلاّ أن أُثبت أن سهر ليالى رمضان أصبح عندى عادة جرت منى الآن مَجرى الطبع .

ولقد كنت قاضياً فى الزقازيق سنة ١٩٢٥ . ودخل علينا رمضان المعظم ونحن فى صميم الشتاء ، وأنا أقطن (وأنف منشورات الحقانية راغم) فى القاهرة ، ويَبعث الله السماء ، فى ليلة عندى فى مُصبَحها مجلسُ قضاء ، ويتجاوز الطينُ والماءُ الطُّبْيين ،

---

* نشرت فى « السياسة » الأسبوعية تحت عنوان (يوميات) فى سنة ١٩٢٩

وبخاصَّةٍ فى أحيائنا (الوطنية) ، وأنام تلك الليلةَ وأنا على شَرَف من الساعة الرابعة . وَيبعثنى أهلى عند انتصاف الساعة السادسة . والجيبُ أصفرُ من أن يَفيض بأجرة مركبة أو سيارة إذا رضى سائقها بخوض هـذا الغمر ، فى هذه الساعة ، إلى حىّ (البغَّالة) . فلم تبق هناك وسيلة إلا طلب الترام ، والأمر لله ! .

وأتدلَّى من دارى لم أتروَّ من النوم بعد طول السهر إلاَّ ساعةً ونصفَ الساعة ، فأجمع بين يدىّ أطراف ثيابى ، وأزُمُّهـا مع رِزمة من (دوسيهات) القضايا . وأتحامل ، على هدّ القوى وتَداعى النفس ، فأُعارك الماء ، وأصاول الوحل ، وأتحسس فى الحَلَك للتحرُّف عن البِركة ، واتقاء العثرة فى التَّلعة . والذهنُ فوقَ هذا مذعور بما سألقَى فى اليوم الأطوَل من ركوب الترام إلى المحطة ، ومن ركوب القِطار إلى الزقازيق ، ثم من محطتها إلى المحكمة ، ثم من معالجة القضايا الكثيرة ، ومن مهاترة أصحاب الدعاوى ، ومن كيد بعض إخواننا المحامين ، وطول جدالهم فيما لا يُجدى ، طلباً للخروج من العهدة أمام موكليهم ، ولو على حساب الحق والكرامة وحرمة مجلس القضاء ! .

فى كل هذا العذاب الذى لا يمكن أن يَقدِره إلاَّ من عاناه ، بلغتُ بسلامة الله محطةَ الترام فى ميدان السيدة زينب ، وتمثَّلنا جماعةً كثيرةً فى انتظار قدوم أول قِطار ، وبينا نحن على هذا إذا يدٌ قاسيةٌ تزُمّ كتفى ، وإذا صوت نكير يصُكّ سمعى حتى كادت تتفرّق له نفسى : (فطور العواجز عليك يا رب ! . . . مِن فطَّر صايم ، له أجرِ دايم ، هنيًالك يا فاعل الخير) !!! فاثنيت إلى هـذا الوحش وقلت له : أفحسِبتَ أيها الرجل أننى أنام الساعة ٤ بعد نصف الليل ، وأهُبُّ من نومى الساعة ½ ٥ ، وأُصحِر لكل هذا البرد ، وأشق بهذا الجسم العليل ما شَقَقتُ من الغَمر ، وأخوض ما خضت من الوحل ، أفحسبت أننى أعانى كلَّ هذا لأهيئَ لك فطورك ؟! .

ثم تعال نتحاسب : إننا الآن على اثنتى عشرةَ ساعة من وقت الإفطار . فبأىّ حقّ تَقتضى (الأمةَ) أن تُهبّ من الساعة السادسة صباحاً ، وفى رمضان ، لتهيىء لك فطورك لا يَحين أذانهُ إلاّ فى الساعة السادسة مَساءاً ! . . . فكان جواب الخنزير : (واشمعنى يعنى الفقرا مالهمش نفس لحرين يفطروا زى الأغنيا ما يفطروا ؟). فقلت له : يا سيدى ، إن طهاة الأمراء، والوزراء ، وكبار الحكام ، وأعيان الأغنياء ، لا يأخذون فى عملهم ، فى شهر رمضان ، قبل الساعة الثانية بعد الظهر . أفلا تحب من (الأمة) أن تنتظمك ، على الأقل ، فى سلك الأمراء ، والوزراء ، وكبار الحكام . فتتفضل عليها بطلب طعام الإفطار ابتداء من الساعة الثانية مثلاً ؟ .

وهنا أقبل القِطار فخالفتُه إليه ، فراح يَسُبنى ويشتمنى بكل ما حشى أدبُ مثلِه فَمه ! . وما سألنى أولاً ، ولا سبَّنى ثانياً إلاّ لأنه يقرِّر ذلك الحقَّ علىّ ، أو على الصحيح ، يقرره على الجمهور .

أرأيت بعدُ أَثَرَةً أبلغَ من هذه الأَثَرَة ، وغروراً أشدَّ من هذا الغرور ؟! .

ومما يذكر فى هذا الباب أن صديقنا المرحوم رفيق بك العظم كانت قد عَلت به السِّن ، وألحَّت عليه العلل ، وهو من يوم نشأته مضعوف هزيل ، مُرهَف الأعصاب . وقد امتُحن فوقَ هذا كله بالأرَق . وكان فى مُؤْخِرات أيامه يسكن (عمارة البابلى) من أحياء السيدة زينب . ويدخل فى فراشه فى الساعة التاسعة ، فيظَلّ يتطاول إلى النوم ويَستدرجه بألوان التكلُّف والتصنُّع إلى ما بعد الساعة الثانية صباحاً .

وبينا هو ذات ليلة يَستدرج النوم ، والأرقُ يدافعه حتى دخل فى ذلك البرزخ الممدود بين النوم واليقظة (السِّنَة) ، تلك الرُّقعة التى تتراءى لك فيها الأحلام ، وتعى فى الوقت نفسه ما يدور حولك من الكلام . بيناه على تلك الحال ينتظر

الدخولَ فى النوم التامّ ، إذا هاتف يهتف من جانب الطريق بصوت كأنه قصف الهدّ ، أو زَمزمة الرعد : (رغيف عيش وصحن طبيخ لله !) . وإذا الرجل يَهُبّ من سِنَته على أظافره ، وإذا الحَدَث يُعجله عن اتخاذ حِذائه ، فيجمز حافيًا على السُّلم ، حتى إذا خرج إلى الطريق أهاب (بمولانا الشحاذ) . يخرب بيتك ! مِن اللِّى بِيِصْحا دِلْوقت الساعة اتنين بعد نصّ الليل ويسخّن لك الطبيخ ؟ قول إدِّونى رغيف عيش وحِتّة جبنة . أو شوية زيتون ، أو حتة مربّة ، يبقى شىء معقول ! » وتركه وصعد ليتصيّد نومَه من جديد ! .

وإن من يَغشَى حىّ المنيرة والانشاء لَيرى سائلاً أعمى (لعله من أصل مَغربى) وهو يَنطلق من الصباح الباكر فى رمضان هاتفًا : (يارب طالب منّك رغيف عيش نفطر به) . فاذا نزلت الشمس للمغيب وأفطر الصائم ، استحال هُتافه إلى : (يا ربّ طالب منك رغيف عيش نتسحر به) !

ولعل الذى يبعثه فى طلب السحور ، فى اللحظة التى يَرفع فيها يدَه عن طعام الإفطار ، هو حاجته إلى معالجة التخمة ، والخلاص من الكِظّة ، بعد طول الخَضم والقضم ، فليس أعون على هذا من الرياضة بالمَشى والطواف على الدور ، ورفع الصوت بطلب رغيف للسحور !!!

تلك بعض مظاهر الأثَرة فى سادتنا الشحّاذين . وسأقصّ عليك طَرَفًا منها فى مقام آخر إن شاء الله .

ابن العم . . . !*

لى صديق مُرهَف الأعصاب حاضر الغضب، بقدر ما هو طيّب القلب، خفيف الرُّوح، فَكِه الحديث. لقِيتُه أمسِ فاذا هو ظاهر الحَنَق حتى ليكاد يتميَّز من الغيظ. فسألته عمَّا به، فقال اسمع يا سيدى :

لى قريب ثقيل الظلّ، غليظ الطبع، شره النفس. إذا عَرَضت له حاجةٌ كان أشدّ إلحافاً من ذُباب. صبَّه القَدر علىّ أمس فقال لى : إن لى إلى فلان (من كبار الموظفين) حاجةً (وسمَّاها). ولا يَشفَع لى عنده غيرك. فقم بنا إليه. فأردت مطاولته فقلت : سأَمضى إليه، إن شاء الله، فى أول فرصة. فقال : بل الأمر من هذا أَعجَل، ولا بد من ذهابك اليوم ! فقلت : إذن أَمضى إليه اليوم بعد أن أُعالج بعض العمل. قال : بل تقوم الآن، لأن المسألة سيُبَتّ فيها غداً. قلت إذن أَمضى الآن. وتهيأت للقيام وأقبلت عليه بتحية الوَداع. فقال : رِجلى مع رِجلك ! . . . فانطلقنا، والأمر لله، حتى إذا صرنا إلى باب ذلك الموظف، دَفعت رُقعة الزيارة إلى حاجبه، فقال لى صاحبى : أَثبت اسمى مع اسمك حتى أحضُر شفاعتَك ! . قلت أَوَ تتخوّنني ؟ . قال : كلاَّ ! ولكن ليطمئنّ قلبى !

وأُذِن لنا كلينا، وبَسَطتُ حاجةَ قريبى بين يدى ذلك الموظَّف، وسألته أن يَقضيها إذا كان على حقٍّ كما يقول. فوَعد الرجلُ أن يفعل. وتهيأت للقيام، فزرّ قريبى على عينه وأومأ إلىّ أن زِد فى الرجاء. فعاودت صاحبى فكرر الوعد فى دَعة واطمئنان. ولما هممت بالقيام عاد فغمز بعينه فعاودت الإلحاح، وعاود الرجلُ ترديد الوعد. وما زلنا على هذا حتى ظهر عليه البرَم. فراح يرفع طَرفه إلى

* نشرت فى « السياسة » الأسبوعية سنة ١٩٢٩ تحت عنوان (يوميات)

ساعة الحائط مرة ، ويُشيعه فيما احتشد بين يديه من الأوراق مرة أُخرى (يريد أن يقول لنا حسبكم فانصرفوا مأذونين) . فجمعتُ كلّ ما فىّ من عزم ونهضتُ ولم أكد ، لأن عين قريبى كادت بنظرتها الحادة تُثبِتني فى موضعى أبد الآبدين ودهر الداهرين . وانطلقنا وأنا أجرّه جراً !

وحانت ساعةُ الفراق ليَمضى كل منا إلى وجهه ، فشدّ على يدى ، وكرّش وجهَه ، وزرّ على عينيه ، وقال لى ، وهو يكاد يَنشِج بالبكاء : والنبى . . . !

— ماذا تريد أيضاً ؟

— والنبى . . . !

— قل يا أخى : ماذا تريد أن أصنع . . ؟ !

— والنبى . . . !

— قل يا أخى : ماذا تبغى منى بعد ذلك ، فقد كدت تذهب بعقلى . . !

— والنبى . . . !

— آه ! لقد فهمت . تريد أن أعمَل عملاً يُكره الرجلَ إكراهًا على قضاء حاجتك !

— نعم !

— كان بعضُ صِغار الفلاحين وأشباههم إذا وقعت على الرجل منهم مَظلِمة لا يجد النَّصَفَة منها عند صِغار الحكام ، استكتب بشأنها (عرضحالاً) وارتصد لصاحب الشأن الأعلى من كِبار الولاة ، حتى إذا جاز بمركبته ، ألقى بنفسه تحت سنابك الخيل . وبذلك يَلفِت إليه الوالى ، فيَتلقّى (عرضحاله) ويُصغى إلى مَظلِمته ، وينظر فى شأنه . وليس لدينا يا ابن العم إلاّ هذه الطريقة ! فقال لى : وكيف ذلك ؟ . قلت . دعني اليوم أُسوِّى فى مسألتك (عرضحالاً) . وتجيئنى من غَدك فى الصباح الباكر ، حيث نَرصُد صاحبَنا قربَ ديوانه ، حتى إذا طامنت

سيارتُه من سرعتها ألقيت بنفسى ، وفى يدى (العريضة) تحت عجلاتها . فلا أُصاب بأكثر من كسر بسيط فى الساق ، أو اختلاف فى بعض الأضلاع يسير ، أو شجٍّ لا خطر له فى الرأس . ولكن الأمر، على كل حال ، سيتعاظم الرجلَ ويروعه كل مروّع فيعجل بقضاء حاجتك !

فقال : بارك الله فيك يا ابن العم ، ولا حرمنا همتَك . وهذا هو الظنّ بك والعشم فيك ! وتواعدنا على أن يجيئنى من غده فى الساعة السابعة صباحاً .

وأقبل علىّ صاحبى وقال : أفتدرى ماذا حدث اليوم ؟ . قلت ماذا ؟ . قال : بينا أنا فى سريرى متدثّراً احتماء من البرد القارس إذ جاءتنى الخادم تقول لى : إن ابن عمك فى انتظارك ، وهو يتعجل نزولك إليه لتمضيا إلى الميعاد الذى اتفقتما عليه أمس !!!

*
* *

أرأيت يا أخى أشره من ذلك الرجل وأطبع ، وأبرد وأصقع . وأسمج وأثقل ، وأصفق وأرذل .

فقلت له : أعانك الله !! .

ظَرف . . . !

فلانٌ المهندس، البدينُ، الغليظُ الوجه، المنتفِخُ الشِّدق ، الأزرقُ الجلد ، الدقيقُ الجبين ، النَّكيرُ الصوت . لقد جَفَّت فيه الأقلام وطُوِيَت الصحف . وشهِد اللهُ وملائكتهُ والناسُ أجمعون أنه ثقيلُ الظِّلّ ، شديدُ الوطأة على النفس . وإذا طلع عليك أحسست بغَمز على القلب ، ووخْز فى الحشا . وهو على هذا كثيرُ الانصباب على الناس . شديدُ التهافت على مجالسهم . لا يرى جماعة ممن ابتلاهم القدَر بمعرفته إلاّ جاء بكرسيٍّ وزجّ بنفسه فيهم . لا يجلس بكل ثقله على الأرض ولكن يجلس على أرواحهم . ثم يظل ثابتاً فى المجلس لا يبرح ولا يَتحلحَل ، ولا يقوم لحاجة ، ولا تَصرِفه ضرورة ، ولا يُعجله أى شأن من شئون الدنيا جميعها

ثم هو لا يدع حديثاً لهم إلاّ خاض فيه ، ولا شأناً من شئونهم إلا أمعن فى تفقُّده وتقليبه ، ولا أمراً من أمورهم إلا استخرج خافيه ، ونبش بالسؤال حاضره وماضيه . فاذا انتفض واحدٌ عن المجلس لبعض شأنه أقبل عليه يسائله : لماذا يَمضى وأين يَمضى ؟ وما طريقه وما غايته ؟ وناقشه فيما تعود به هذه الغاية من خير وشرّ ونفع وضرّ . وإذا رأى واحداً يلبس حُلة جديدة (فتح) له محضر تحقيق فى (قماشها) أولاً ، وفى لونها ثانياً ، وفى تفصيلها ثالثاً . وفى ثمنها رابعاً الخ . وإذا رأى اثنين يَتَسارَّان دسّ رأسَه بينهما ودخل معهما فى نجواهما .

ومن أحدث نوادره وأطرفها أنه كان ضاغطاً (كابساً) يوماً على بعض أولئك الصِّحاب المساكين ، فجاء عامل البريد ودفع إلى أحدهم خطاباً . وفيما كان الرجل يعالج شقَّ الغلاف عنه ، كان صاحبنا يسرع فى إخراج «نظارته» فيمسحها بمنديله، ثم يضعها على عينيه استعداداً . . . . . لقراءة « الجواب » ! ! !

أشهد أن لا إلَـه إلا الله ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ! ! !

اسعداداً لقراءة ... (الجواب) !

إلى الحكومة

الغوثَ الغوث ! النجدةَ النجدة !

ليست لى ، والحمد لله ، ضِياعٌ فأستفيدَ بتوافر المياه من مشروعات الريّ الكبرى ، ولا باستصلاح الأرضين بمشروعات الصرف الكبرى والصغرى .

ولستُ من صِغار الفلاحين فأطمعَ فى أن يُسهَم لى فى توزيع أرض الحكومة فى الفيوم أو سخا أو فى السنطة .

ولستُ من العمال حتى أبسُط الأملَ فى مسكن يُؤْوينى ويخفف عني من كراء البيت ، فوق أنني ، بفضل الله ، أَثوِى إلى منزل أملِكه .

ولستُ أسكن الريفَ حتى أفرح بردم البرك والمستنقعات خلاصاً من أذى البَعوض ، وما يَجرُّ الماء الآسِنُ من أمراض وأسقام . وعلى الجملة فإننى ما قلَّبتُ فكرى فى هذه المشروعات ، فرأيت لى بالذات حظاً فى شىء منها كثيراً كان أو قليلاً . على أنني أغتبط ، بالطبع ، كلَّ الاغتباط بكل ما يدخل على أبناء وطني من النعمة ، ويعود عليهم بأسباب الرفاهية ، ولكننى مع هذا إنسان أيضاً ، لا يمكن أن يُنسيَنى النفعُ العام الشعورَ بألم الضرر الخاصّ .

ذلك أنني من يوم شاعت فى البلد سيارات الأجرة (التاكسات) أُوثرها على مركبات الخيل ، لأسباب لا محل لبسطها فى هذا المقام . وأَهمُّها الاقتصادُ فى الوقت ، وأمنُ الشِّجار ، فى غاية (المشوار) الخ . وعلى ذكر هذا فقد تدلَّيت العامَ الماضى من الديوان فى يوم شديد القَيظ ، فلم يصادفنى فى طريقى إلا مركبة . فقلت فى نفسى (نأخذها) والسلام ! واستويت إليها وأنا لقِسُ النفس ، مجهودُ الجسم ؛

مُرهَف الأعصاب . فتدلّى الُحوذىُّ عن كرسيه ومشى فى رفق ، فانتزع المِخلاةَ من فم أحد الجوادين ، وزرّها وعاد بها كذلك ، فألقاها فى مداس قدمه من العربة . ثم عاد فألجمَ الجواد وسَوّى شكيمته ، وعدل إلى الثانى فصنع به ما صنع بالأول . كل هذا فى تُؤَدة وبُطء وعظيم اطمئنان ، إذ أنا ترتفع حرارتى ويتدارك نَفَسى ويُسرع نَبَضى . ثم تمكن من كرسيه وتناول سوطَه وأهوى به على الجواد الأيمن فانثنى إلى الأيسر ، وهذا انثنى إلى المركبة . والمركبةُ ثابتة فى موضعها . فأهوَى الحُوذىُّ بالسوط على هذا الأيسر ، فانثنيا كلاهما إلى الجانب الأيمن . ولما ضاق ذَرعى وهممت بالنزول ، وثب الحُوذى إلى الأرض ، وجرّ الجوادين معاً من خطامهما فانجرّا . ولا أُطيل عليك أكثر مما أَطَلت : سارت العربة ثم سارت وسارت ، فلم تَكَد تبلغ شيئًا حتى خيل إلىّ أننى إنما أركب ظلا يتقلّص ، تحسبه ثابتًا وهو فى الواقع متحرّك . وحتى خُيل إلىّ من بُطء المسير ، وطول المدة ، وضِيق النفس ، أننى قادم من الصين لا من شارع الفلكى .

ووصلنا ، بسلامة الله ، إلى مَيدان السيدة زينب ، فحق قول العامة : (طولة العمر تبلغ الأمل) . وإذا (الترام) يجوز وبيننا وبينه نحو أربعة أمتار . فلم يرعني إلاّ والحوذى يَجذب إليه أعِنّةَ الخيل ليوقفها ، فعجبت من فعله وقلت له فى ذلك ، فقال حتى يجوز (الترام) . فأهبت به أن امض أيها الرجل ، فحين نبلغ موضع القِطار يكون قد بلغ هو السبتية إن شاء الله !

أنا حرٌّ فى أن أركب مركبة ، أو سيارة ، أو (تراماً) أو حمار مُكَار (سكة) ، أو أن أمشى على رجلى . هذا حق ثابت لى لا ينازعنى عليه أحد . ولكن (عمّ) الأسطى خليل لا يُسلِّم لى بهذا الحق ، ولا يدَع لى هذه الحرية . وإليك الحديث:

الأسطى خليل هذا كان حُوذياً عندنا من أكثر من خمس وعشرين سنة . ولعله لم يلبَث أكثر من ستة أشهر . ثم أراحنا الله منه وابتلى به سوانا . ثم صار أمره إلى مركبة أجرة . فثبت له علىّ بهذه الأشهر الملعونة حقّ ؛ ولكنه حق غريب جداً لم يَدَّعِه أحدٌ على أحد . أتدرى ما هذا الحق ؟ هو أننى لا بد أن أركب مركبته متى شاء هو ، وفى أى وقت شاء . وله فى ذلك وقائع تخرج المرء عن جِلْده . من ذلك أنه يعلم أننى كنت أجلس فى صِحابى ولِداتى فى مقهًى فى شارع خيرت ، نقضى شَطراً من الليل فى الحديث والسَّمَر . فاذا كان هو (فاضى) ، أسرع فجاء إلى المقهى ، ووقف بمركبته بازائى ، واتكأ على يمينه ، ومَدّ وجهه إلىّ ، حتى تكاد لحيتُه الطويلةُ تصل إلى جبينى . وحدّد فىّ نظره . ونطق صنيعهُ كلُّه بفصيح العبارة : أن قم فاركب . وقد لا أكون استويت إلى مجلسى إلاّ من بضع دقائق. فلا أرى لى حيلةَ إلاّ أن أقوم فأتحولَ إلى أحد مجالس المقهى على الشارع الثانى . فيَبعث خيلَه ويتحول هو الآخرُ حتى يقف بازائى ، ما يَرِيم ولا يتحَلحَل . فلا يُنقذنى منه إلاّ أن أُسلِّم لله أمرى ، فأركب معه ليعود بى إلى الدار . لأننى إن مضَيت إلى مكان آخر ، تبعنى بمركبته وظل ثابتاً بازاء مجلسى حتى أركب أيضاً . وإما أن أَمضى فى مجلسى وأنا من الغيظ والحنق على حال لا يعلمها إلاّ الله تعالى !

وهكذا ما لقِيَنى فى طريق إلاّ اعترضنى ، وسألنى أن أركب معه . ولا رآنى فى انتظار (الترام) إلاّ وقف بإزائى . ومن أحدث نوادره معى أننى فى صباح يوم صَفَا أديمُه ، واعتلّ نسيمه ، رأيت أن أشخص إلى الديوان سعياً على قدمىّ . وفعلت مغتبطاً مبتهجَ النفس ، حتى إذا كنت بإزاء وزارة الحربية ، إذا بالأسطى خليل يطلع علىّ (بخَيله ورَجْله) ، وينادينى : « آجى أوصلك للديوان ؟ » . فهاجنى الرجل وحرّك حفيظتى وخَبَّث نفسى ، وكدّر صفوى ، وأفسد علىّ يومى . وقلت

له وأنا أكاد أتميّز من الغيظ : أجئتُ أيها الرجل من بيتى فى أقصى شارع زين العابدين إلى هنا فى التماس عربة تبلغنى هذه الستين متراً ؟ أتظن أننى طول هذا المَدَى لم أُصِب مركبةً واحدة ؟ حقاً انك بارد . ومضيت لطيتى . ولا حول ولا قوة إلاّ بالله !

*
* *

فاذا لم يُمكن إدخال هذا الحُوذىّ المؤذى فى مشروعات الردم[1]، فلنتوجه بالعياذ إلى قلم المرور ، وإلاَّ فقد طابت الهجرةُ حتى يقضى فيه القضاء ، ويُريحنى اللهُ من كلِّ هذا البلاء ! .

---

(١) يريد ردم البرك . وكانت الحكومة جادّة فى ردمها أيام كتابة هذا المقال

عَشـــاء !

قهوة اللواء . وإن شئت فبار اللواء . وإلاَّ فمطعم اللواء . هو نادٍ أو شِبه نادٍ لا يكاد يَتغشَّاه فى النهار إلاَّ جماعاتٌ من أرباب الأعمال . فاذا كان الليلُ فجماعة من أهل الفضل والأدب ، يجتمعون للأسمار وتبادل ألوان المفاكهات . ويتَّصل بهذه القهوة مطعم كامل الآلة . وقد حدثنى صديق يَختلف إلى هذا الموضع قال : كنا ليلةَ أمس جلوساً مع الصَّحب نأخذ فى حديثنا وسَمَرنا . فاذا رجلٌ من هؤلاء الذين يَصُبُّهم القدَر على رُوَّاد القهوات : منتفخ الشدق ، حاد الوجه ، يتأبط أَداته فى الحياة . وما أداتُه إلا رِزمة من الجرائد الجديدة والمجلات القديمة ، يدَّعى بحملها العلمَ والأدب والفلسفة والسياسة (وكل شىء) ! وسَلَّمَ فى تظرُّف مكروه وأدب مُبتذَل . وجرّ له كرسياً وحشر نفسه فى الزمرة حشراً . ومن باب ما يدعونه « باللياقة » صفَّق أحدُنا فجاء الغلام . فأومأنا إلى (الأفندى) ، وسألناه عما يطلب (سادة ، أو بسكر شوية) . وقد جَرَت العادة بأن يَعتذر ضيف القهوة أولاً . فاذا أَلحَّ المَزُور فقهوة أو شاى مثلاً . فاذا كانت الأُلفة متمكنة ، (فكازوزة) ، أو ما يَقرُب ثمَنُه من ثمن الكازوزة ، مما لا يَعدُو الثلاثة القروش أو الأربعة ، على أضيق تقدير . بعد هذا أتعرف ماذا طلب صاحبُنا الذى لا نعرفه ؟ لقد طلب واحد . . . . (dinner) عَشاء !!!

قرحة البطن !

بادَيتُك فى مستهلّ هذه (اليوميات) بأننى لا أُترجِم فى يومى إلاَّ عن الخاطر الذى يَشغَلنى فيه ، والإحساس الذى يَملكنى ، ولو خرج كلاماً فارغاً . وعلى هذا أُثبت لك اليومَ كلاماً فارغاً كما أثبتُّه من قبلُ فى كثير من هذه « اليوميات »

على أننى هذه المرةَ لم أكن أكثرَ من ناموس (سكرتير) يدوِّن حديثَ غيره . وإليك الحديث :

لى صديقٌ من القضاة خفيفُ الرُّوح ، حسَنُ المحاضرة ، حاضرُ النكتة . جلس إلىَّ أمسِ وجعلنا نسمُر على العادة . وفى بعض المجلس أطرق إطراقة طويلة ، ثم أنغض رأسه فُجاءةً وقال لى : اسمع يا فلان . يقول العامَّة إن (قرحة) البطن تَظَلّ عند العاقل أربعينَ سنة ، فكيف بالمجنون ؟ : فقلت له : وما الذى يُحضِرك هذا الآن ؟ . قال :

نُقلت من عشر سنوات إلى محكمة (وسمى حاضرة أحد المراكز) . ولى فى هذا المركز صديقٌ عزيز من كِبار الأعيان . وله حُرَّاقة (ذهبية) لا يسكنها أحد ، وهى راسية فى ظاهر المدينة ، وتقع من سُرَّتها على أكثر من ميل ، فدعانى ، شكر الله له ، إلى أن آوى إليهـا حتى أُصيب لى مثوى . وكان للحُرَّاقة خادم كسلان العقل ، كسلان الجسم . وفى ذات عشيةٍ رمانى البابُ بقريبٍ لصاحب الحُرَّاقة طويل جداً ، عريض جداً ، لا تكاد تَتَمَثَّله إذا أَسنعْت عينيك فى هَيولاهُ جملةً واحدة ! إنما لك أن تتمثَّله بالمُفرَّق (القطاعى) ، فإذا دنا منك سمعت له زحيراً من كثرة اكتناز الشحم !. وما أُحصِى أنه جلس إلىَّ قط إلاَّ رأيتهُ وقد شرَّد



عينيه ، وأقبل يَتدفّق بألوان الأسئلة يصبّهـا على سمعى صبّا ، حتى أرانى وكأنما فُتحت علىّ خليّةُ نحل لا أنحرف عن واحدة حتى تثور بى ثمانون . فهو يَلهث بالأسئلة ، وأنا ألهث وراءه بالأجوبة . ولكنه يجرى أمامى بسرعة (رولزريس) وأنا وراءه فى سرعة (عربة كارو) ، حتى ليكون فى السؤال الثامن والستين بعد المائة ، وأنا (ملخوم) فى جواب السؤال الرابع عشر ! (إزّىّ صحتك ؟ — بتفصّل هدومك عند مين ؟ — أبوك مجوّز كام ؟ — تحب ألمانيا أكتر والّا أمريكا أكتر ؟ رياض باشا ترك كام فدان ؟ — إلّا ليه البنّ اليمنى الأيام دى وحش ؟ — النهارده حرّ والّا برد ؟ — إلّا الانجليز وِشّهم أحمر ليه ؟ — الشيخ أحمد ندا أحسن وإلّا المزيكه الميرى ؟ — ما بيرقّوكش ليه ؟ — الحاجّة السويسية ماتت وإلا لسّه عايشة ؟ — الحكومة بتشترى الورق بتاعها منين ؟ — أُمّك لما تموت ، ناوى تعمل الميتم ثلاث أيّام ؟ — قريت المقطم النهارده ؟ — إذا ربنا غناك تشترى أوتوميبيل والّا لأ ؟ — إيه رأيك فى الحرب ؟ — ناوى تجوّز ابنك لما يكبر ؟ — كوبرى الزمالك بيفتحوه إمته ؟ — إلّا لو واحد اتعدّى عليك فى الجلسة تعمل له إيه ؟ — الساعه كام ؟ — أم سيدى أبو السعود كان اسمها إيه ؟ ؟ ؟ ! !) الخ الخ .

*
* *

قلت لك إن الباب رمانى به فى أحد الأمسية فقال لى : أتأذن لى فى المبيت فى الحُرّاقة الليلة ؟ فقلت له تفضل ، ففى غرفها متسع لنا كلينا . وقضينا السهرة فى الأسئلة اللازمة وما تيَسَّر من الأجوبة . وقمنا لنومنا ، حتى إذا أصبحنا ، استدعيت الخادم ليجيئنا بفطورنا ، وفى هذا الخادم كما قلتُ لك بلادة ، حتى ليَقضى فى المجىء بالفطور من السوق أكثرَ من الساعة ونصف الساعة . فسألتُ صاحبنا عما يشتهى.

فاعتذر بأنه ليس من عادته أن يُفطر ، فراجعته فأبَى . فعزمتُ عليه إلاَّ أفطَر معى . فجدَّد العزيمة على الإباء شاكراً مثنياً . لقد غلبنى إذ ذاك على أمرى فلم يبق لى بد من أن أطلب إلى الخادم أن يجيئنى بالقَدْر الذى يكفينى ويكفيه فضلُه . فمضى وغاب ما شاء الله أن يَغيب . ثم أذِن اللهُ أن يعود بالطعام ، ويقوم على إنضاجه . وكنت قمت لبعض شأنى ، ثم عدت وإذا صاحبنا فى حُلّته الكاملة فى طريقه إلى الشاطىء . حتى إذا لقيَنى أقبل علىَّ يودعنى . فدعوته (من باب التكريم) ليفطر معى ، فشكر واعتذر بأن له مهماً يُعجله عن اللُّبث ، ومضى عنى مهرولاً . ولم يرُعْنى ، وقد أطلَلْت على بهو الحُرَّاقة ، إلاَّ أن أرى الصِّحافَ قد لُعِقت لعقاً فلم يبق فيها فَضْلةٌ للغسل . وإذا فتَاتٌ من الخبز لا تكبر على ما يعلَق بسنّ الخِلال ! فدعوت الخادم وسألته عن الطعام فأجاب : لقد أتى عليه صاحبك ! فقلت له : ألم يُبق لى ولك شيئاً ؟ قال : كلاَّ . لم يُبق لك ولا لى شيئاً !!!

وكان وقت الجلسة قد أزِف . فمضيت أقضى على الطَّوَى بين الناس . ولا حول ولا قوة إلاَّ بالله !

ثم أقبل علىَّ صاحبى وقال : تعرف يا فلان أننى لست من أهل البِطنة ، ولا أنا ممن يحتفِلون للطعام أو ممن يهُمهم التأنُّق فيه . وتعرف أننى لا أُصيب منه إلاَّ بالقدر الذى يُمسك النفس ويدفع إلحاح الجوع . وتعرف فوق هذا أننى مَضعوف ممعود . أتجنب من الطعام غليظه ما استطعت ، ولا أتكثَّر من الدَّسَم ، خوفَ الكِظَّة والبَشَم . تعرف هذا كلَّه . ومع هذا فاننى أُقسم لك أننى ما ذكرتُ هذه الواقعةَ إلاَّ ثارت نفسى ، واضطرمت أعصابى ، وغلا الحِقد فى صدرى ، حتى لكأن تلك الحادثة وقعت لساعتها ، وقد مضى عليها الآن عشر سنين . وإنك

لَتستطيع أن تصدّق قول الشاعر : « لا بد للمحزون أن يَسلَى » ، وأن تصدّق قول كُثَيِّر :

فقلتُ لها يا عَزُّ كلُّ مُصيبةٍ إذا وُطِّنَت يوماً لها النّفسُ ذَلّتِ

تستطيع أن تصدقهما فى دعوى التسلّى بالزمان عن كل بليَّة ، والعزاء بكرّ السنين عن كل رزية ، إلاَّ عن مثل هذه الفَعْلة ، فهى أعصى على الزمان ، وأصلب من أن يُبليَها الجديدان !!! اه

*
* *

فاللهم يا من وصل شهوةَ الطعام ببعض الناس هذا الوَصل ، وأكدها هذا التأكيد . ارحم كل شَهْوان بَطين ، من ضيافة مثل هذا الحبر السمين !

تنمُّر . . . !

لاحظتُ ظاهرةً غريبة ، لا أدرى إذا كان الأطباء والباحثون فى أحوال النفس قد فَطَنوا لها أو لم يَفطُنوا . ولا أدرى إذا كان قد تقصَّاها منهم أحد ، وترسَّم عللَها وأسبابها ، وكيف تُؤثِّر تلك الأسبابُ فى خَلْق بعضِ الناس هذا التأثير ، وتصوِّره هذا التَّصوير . وتنكِّره هذا التنكير ، ثم إننى لا أدرى إذا كان أحد هؤلاء الباحثين المتقصِّين قد نشر فى هذا بحثاً فى العربية أو فى أيَّة لغة من لغات العالم ؟ . . . اللهم إننى لا أدرى شيئاً من هذا ألبتة . على أننى أنتظر من أصحاب المعرفة رأياً أتهدَّى به إلى الصواب :

شهدتُ فى طول حياتى ثلاثةً من الناس لم أشهَد غيرَهم على الحال التى سأذكرها لك . والعجبُ أن ثلاثتهم يشتركون فى دَعة النفس ، وطيبة القلب ، وارتياح الأعصاب . ما يزال هذا شأنَ كلٍّ منهم وطبعَه وجِبلّته حتى يَستوِى للطعام . وما إن يأخذ فيه حتى تراه وقد تبدَّل خَلقاً غيرَ خَلْقه ، واتّخذ صورةً غير صورته . فاذا وجههُ قد احتقن احتقاناً شديداً . وإذا أوداجهُ قد انتَفَخت انتفاخاً عظيماً ، وإذا أجفانهُ قد انفرجت إلى حدِّ التقلُّص . وإذا حدقتاه قد اتَّسعنا فى مَحجِريهما حتى كادتا تستَهلكان بياضَ العينين جميعاً . وقد لمعت عيناه لمعاناً يُخيف ويَروع . ودلَّت ملامحهُ على أقسى ضروب الشراسة ومحاولة الفَتْك والافتراس . وجعل يزخُر زحيراً عالياً أشبه بهمهمة الفهود ، وبزئير الأُسود ، حتى ما تشكّ فى أنك إنما تؤاكل نَمِراً لا إنساناً . بل لقد يوسوِس لك هذا المنظَر المُرعِب بأنك فى النهاية مأكولٌ لا آكل !

وقد تُوفِّى واحدٌ من هؤلاء الثلاثة ، وبقِىَ اثنان ، بَسَط اللهُ لهما فى صدور الأعوام ، ولقَّاهما أجزلَ الطعام ، بما يواتى غريزةَ الافتراس والالتهام ، وكتب لمؤاكليهما الأمنَ والسلام . آمين ! . . .

غـــرام . . . !

صديق (فلان) تعشّق فى شباب سنة إحدى بنات جيرانه . وقد غَلَبت عليه وذهبت بقلبه كلَّ مَذهب . ولما برّحت به آلامُه ، وفضحته فى الهوى أسقامهُ ، أدركتها رِقّةٌ له ورحمة به استحالتا من بعدُ حبًا. وهو رجل يتذوّق الأدب، ويحفظ من مصطفى الشعر صدراً . فكان إذا ذكرها وهو فينا أقبل يروى لنا أحسن ما قال قيسٌ المجنونُ فى ليلى ، وأرقّ ما أرسل قيس بن ذُرَيح من الغزل فى لُبنَى ، وأحلى ما قال جميلٌ فى بُثَينة ، وأبدعَ ما شبّب كُثَيِّرٌ فى عزة . وكلما لحِقه الولَه عليها بكى واشتدَّ نشيجه، فيواسيه صُدقانه من جميل القول بما يُطامن لَوعته ، ويكفكف دَمعته.

وقد بانت لهذا العاشق الولهان خصوصيةٌ عجيبةٌ جداً : ذلك أنه لوحظ عليه أنه كلما حدث تهاجُرٌ بينه وبين (معشوقته) ، راح يلتمس السُّلوَّ كلَّه فى الطعام ، فيُلحِق الأَكلةَ بالأَكلة ، ويُتبِع الوَجبةَ الوجبة ، إلى أن تعود إلى صِلَته فيعود إلى الاقلال والتخفيف ! . وعلى قدر شدة الصَّرْم والإلحاح فى الهجر يكون الدَّسَم . وعلى قدر فتوره وضعفه يكون اختيار الأَرفق من الألوان !

ولقد جُزتُ يوماً بشارع خيرت فى طريقى إلى الدار ، وكان ذلك بعد انتصاف الليل . فاذا صاحبُنا مستوٍ على مِنضدة فى دكان الحاج عبد الرحمن (الحاتى) ، وبين يديه صَحْفَة تحمل ستة أرطال أو خمسة . على الأقل ، من اللحم السمين ، وهو يفترسها افتراساً ، والدمع مُنهلٌ على خديه . فأدركت لساعتى أن قد تمت القطيعة ولم يبق إلى اللقاء سبيل ! . فأقبلتُ عليه أُعزيه وأُصبّره ، وهو ينزِف من الدمع من عينه ، بقدر ما ينزف من اللحم فى شِدقه . فعذرت الرجل وانصرفت عنه وأنا أدعو الله تعالى أن يرأفَ بحاله ، ويُلقِّيَه حسن العزاء !

ويُسرف المسكين على نفسه فى هذا حتى كاد يَكسِر عيشَه على القَضْم والخَضْم، إلى أن بَدُن واسترخت كَرِشُه ، ودعا بالطبيب وأظهرَه على داخل شأنه . ولما استَصعب عليه علاجُه ، سأل أهلَه أن يَنأَوا به عن القاهرة (مَثوى الحبيبة) ويُعَزُّوه ، ويختلفوا عليه بألوان السلوى ، لعله ينسَى فتصلحَ حالُه ، وتعود إليه نحافتهُ وهُزالُه !!! .

من خَلْق الله ! . . .

يظهر أن عند بعض الناس كثيراً أو قليلاً من الشكّ فى أنهم موجودون . أو على الأقلّ إنهم يَشكُّون فى أنهم من ضمن الناس . فهم دائبون جاهدون كلّ يوم ، بل كلّ ساعة ، فى جمع الأدلة على إثبات وجودهم ، أو على إثبات أنهم ناسٌ من الناس . ومن هؤلاء المساكين شاب حَدَرت له الظروفُ مالاً جليلاً يُهيِّئ له العيشَ فى أخفض العيش ، والتقلُّبَ فيما شاء من النعم ، إذ كان الإنسان إنما يَطلب إكرام نفسه وتنعيمها لإيتاء لذائذها ، لا ليثبت بمظاهر الترف وجودَه ، أو إنسانيته عند الناس !

هذا شاب غير بائن الطول ، ولا مُفرط البدانة ، وإن كان مُكتنِز اللحم متوافر الشحم . رُكِّب على جسده وجهٌ شاحبٌ غليظ ، لا ترَى فيه ضاحيةً يستريح فيها النظر . وقد ميزته الطبيعة بعينين حادّتين واسعتين تملؤهما أحداقهما . على أنك تراهما ثابتتين فى محاجرهما ، لا تنحرفان إلى اليمين ، ولا تَعْدِلان إلى الشِّمال ، حتى لكأنهما فى صورة منقوشة لا فى وجه إنسان . وإلى هنا لا أجد على الرجل بأساً ، فانه وإننى وإن صديقىّ الأستاذ توفيق فرغلى ، ومحمد بك رشدى غير مسئولين عن أننا خرجنا كذلك للحياة ! . . أما البـاقى فصاحبُنا عنه جِدُّ مسئول .

لقد أَرسَل سالفيه حتى حاذتا سُفلَى شفتيه . ورفع طرَفى شاربيه حتى شارفا أعلى وجنتيه . وبالغ فى تزيين هذا الشارب وتنسيقه ، حتى ما ترى فيه شعرة تميل عن صفّا ، أو تنحرف عن موقفها ، كأنما هو (قره قول شرف) يفتشه قائد عظيم ! وقد نَصَب على رأسه (طربوشاً) طويلاً استهلَكَ أصلُه جبينَه الدّقيق . أما (زرّه)

فقد تأنق فى ترجيله وإرسال خيوطه بنسب معيَّنة تزداد كلما تدلَّت انفراجاً . وقد رَكَّب على عينه اليسرى (مونوكل) مؤطَّراً بالذهب . ودسَّ فى فمه (سيجاراً) طويلاً غليظاً . ولستَ تراه إلاَّ ثانيا معطَفه على ذراعه اليسرى ولو نزلت درجة الحرارة عن ‹ تحت الصفر . وإن مما يُطير نومى أحياناً أننى لم أهتد بعدُ إلى الوقت الذى يَتَّخذ فيه هذا المِعطَف كما يَتَّخذه سائرُ الناس ! . . فاذا التفتَ رأيتَه يلتفت جميعاً ، كأن ما بين رأسه وكتفيه كتلة من الخشب لا تلين ولا تنثنى . وذلك كلُّه خِيفةَ احتلال (القيافة) باختلال شعر الشارب ، أو اضطراب خيوط (الزِّر) !

وإنى أؤكد لك أننى حين رأيته لأول مرة حسبتهُ فارًّا من لوح (سينما) !

وقد جمعنى وإياه يوماً شيطانٌ من شياطين الإنس . وما انتظَمَنا المجلس حتى قال لى : « أقدم لك صديقى الفيلسوف الكبير فلان بك ، أفلا تعرفه أو لم تسمع به ؟ فقلت تشرفنا ، فقال حسبه فخراً أنه صاحب نظرية (الانعكاسات اللاَّفطريه) » فأدركت أن الخبيث يُريد أن يعبث ! فقلت : وهل يجرُؤ أحد على أن يقول فى هذا بعد الذى قال أوجست كنت ؟ على أنه لم يُخرج له من هذه القضية كثيرٌ ولا قليل . فقال صاحبى . بل اهتدى إلى ما لم يهتد إليه أوجست كنت ؛ بل لقد وَفَّق بين رأى القائلين (بالأبداع التناسبى) ، وبين رأى الذاهبين إلى حماية التجارة . فقلت له إذن لقد خالف رأىَ لامارتين . فأجاب بل لقد كسَّره تكسيراً . وأفَضنا فى هذا ، وجُلنا فى الفلسفة والعلم والآداب استظهاراً لتلك النظرية . وهو يوافقنا بالإيماء ، ويَسرُد معنا أسماء لا أدرى من أين حفِظها . ثم جعل يتقبل منا الإعجاب بتلك العبقرية الفخمة .

ثم قام فى رِفق وانجلى لوجهه ! . . وقد ذهب عنى أن أقول لك إنه طَوَالَ المجلس ، لا يستقرّ دقيقةً واحدةً حتى يقوم لبعض شأنه ثم يعود مستمهلاً .

ولقد تفقّدتُه فإذا هو يمضى إلى المرآة لإصلاح ما عسى أن تكون الكلمةُ قد ثنت من شَعر شاربه ، وما عسى أن تكون الإيماءةُ قد خلخلت من رِباط رقبته ! أو حرّفت من (زرّ) طربوشه !

ولقد عرفته بعد ذلك واستقصيت أخباره ، وتقرّيت آثاره ، فاجتمع لى منها أنه رجل شغف بأن يكون فى أولاد (الذوات) فهو يأخذ إخذهم ، ويَتشبَّه بهم فى شَكلهم ودَلّهم ، وفى مشيتهم ، وطعامهم ، وشرابهم ، ولهوهم ، وعبثهم ، وسائر أطوارهم . فهو يسمع أن ابن فلان باشا (يفصّل) الثياب عند ديليا ، فيطلب ديليا ويسأله أن (يفصّل) له (بدلة) كالتى فصلها أخيراً لفلان . ثم يسمع أن الأمير فلاناً (يفصّل) عند سيفاد ، فيَمضى من فوره إلى سيفاد ، ويسأله ما سأل ديليا أمس . ثم يرى فى إصبع فلان بك خاتماً من الزمرد ، فلا يزال يتحرّى ويَستخبر حتى يَهتدى إلى الجوهرىّ الذى باعه فيشترى مثله . ويرى فلاناً بك يدخن السيجار ، فيدور يبحث ويَستقصى حتى يهتدى إلى أغلى السيجار ، فلا يفارق بعدَها فمَه أبداً . وما هو (بخرمان) ، ولا هو ممن يتذوّقون الدخان !

*
* *

ثم هو رجل (شيك) فتراه يطلب جروبى القديم الساعة ١٠ من صباح كل يوم ، فلا يزال هناك حتى الساعة الواحدة . ثم يركب سيارته إلى (سان چمس) فيتغدّى . ولكن ماذا يَتغدّى ؟ ما دلّته تحرّياته على أن فلاناً طلبه أمس . ثم فى تمام الساعة الخامسة يكون فى جروبى الجديد . وهناك شبابٌ من أبناء (الذوات) متعلمون يخوضون أحياناً فى العلم والأدب والفلسفة ، فهو يأخذ معهم فيأخذون معه أيضاً على النحو الذى رأيت . فإذا كانت الساعةُ الحادية عشرة ، استوى فى (الكازينو ديبارى) ، فدار يبحث عن أىّ الغانيات راقت الليلة

الماضية فلاناً بك ، أو التى تحدث عنها فلان بك . فأسرع فدعا بها وطلب لها أغلى الشراب ؛ وقرّب إليها أفخر الألطاف .

ومن أظرف ما سمعته فى هذا الباب ما حدثنى به شاب ممن يَغشَون هذه الأماكن قال : دخلت المكانَ الفلانىّ فرأيت منظَراً عجباً . رأيت أبرع الفتيات هناك جمالاً، مستوية على منضدة، وبين يديها أفخر الشراب وأنضر الزهر وأبدع التحف . وفلان (يعنى صاحبنا) جالسٌ بجوارها وقد ولاّها ظهرَه ، أما وجهُ كلُّه فإلى الباب . فوقفتُ وقفةً طويلة لعلى أراه ينثنى ناحيتَها فلم يفعل . فدرت حتى وقفت بإزائها ، وسألتها هامساً بالتليانية عن شأنها مع هــذا الرجل . فأجابت ضاحكة ساخرة : إننا على هذه الحال من ساعة ونصف !

*
* *

وبعد ففى الناس كثيرٌ إذا لم يَبلغوا مبلغ هذا الرجل كلّه . فهم على كل حال لا يعيشون لأنفسهم ولكنهم يعيشون للناس . لأنهم شاكُّون في وجودهم أو فى إنسانيتهم . فهم جاهدون دائماً فى أن يُثبتوا وجودَهم أو يُثبتوا أنهم من الناس

*
* *

بعد كتابة هذا الكلام وجمع حروفه (على رأى المقطم الأغر) ، انتهى إلىّ أن الرجل ، مع الأسف ، قد لحقه الفقر ، وحلّت به الفاقة ، وركبته الديون ، فباع السيارة وكل ما أحرز من كرائم الجواهر ونفيس الآثار ، من صنع (كريچر) فى باريس وميل فى لندن . وسكن فى الخارطة الجديدة بعد الزمالك . ولم يحتفظ من آثار (العزّ) إلا بسيجار واحد (يركّبه) فى فمه ليخوض به فى دير الطين ، بعد التخطّر فى شارع المناخ وشارع عماد الدين !

ما شاء الله ! . . .

أرى شاباً لا أعرِف له عملاً إلاَّ الطَّواف بمتون القهوات ، والوقوف على من يَعرِف من الناس ، والتحدث إليهم فى الأسباب الدائرة فى البلد . فاذا حدثُ حَدَثٌ في الهندسة ، وكان لاسماعيل سرى باشا رأىٌ فيه ، وقف بك وطرح عليك الأمر ، وكَرَّش وجهَه ومطَّ بوزه . وقال لك فى استخفاف واستهزاء : « لم يبق علينا إلاَّ أن يتكلم إسماعيل سرى فى الهندسة ! » . فاذا كان الحديثُ فى الطب ، وأُثِر عن على بك ابراهيم عملٌ جراحى له خطر . قال لك فى تلك الصورة : « لقد هزلت حتى إن على إبراهيم يتعرض لاجراء عملية جراحية ! » . فاذا كان الأمرُ فى القانون . وكان لبدوى باشا رأى مأثور قال لك : « ما شاء الله ! . حتى عبد الحميد بدوى هو الآخر يتكلم فى القانون ! » . وإذا كان الحديثُ فى الأدب وكان للدكتور طه حسين فيه مقال قال لك : « لقد طابت الهجرة من هذا البلد . لم يَبق علينا إلا أن طه حسين يتكلم فى الأدب » ؟! ثم يهز كتفه ويوليك قفاه . ولعله أكرم على الله وعلى الناس من وجهه . ويَنطلق عنك المسكين وهو يظن أنه قد قَضَى حقَّ العلم أولاً ، وحق الوطن ثانياً ، وحقَّ التعالى على هؤلاء الذين يَسلكهم إجماع الناس فى توابع الدنيا . وتدسَّى بعد ذلك فى فراشه ، ولا يكاد يَتَّسع ما بين الأرض والسماء لعبقْريته الهائلة !

لست أجد أيَّة غضاضةٍ على العالمَ فى أن يَفسَح لمثل هذا المسكين فى سعادته تيك ، ما دام أذاه لا يتجاوز ذلك التصوّر . وخيرٌ أن يَبقى فى « القسم الخارجى » من أن يُجشِّم الحكومةَ نفقاتِ طعامه وكسوته وملاحظته فى احدى (السرايات) القائمة فى أقصى العباسية ! ! !

غـــرور ... !*

إذا لم تكن رأيتَ عبد الحميد بدوى ، أو على إبراهيم ، أو أحمد أمين ، أو أحمد شوقى ، أو غيرهم من هؤلاء الذين يُدَوّى بعبقرياتهم السّهلُ والجبَل ، لتَمثَّلوا لك على صُوَر غير صوَر سائر الناس . وحسِبت لهم حديثًا غير أحاديث سائر الناس . وأنهم يأخذون فى أسبابهم فى غير ما يأخذ سائر الناس . وأن فيهم من الزَّهو ، والذهاب بالنفس ، والتتايه على الخلق ما يَملكهم عن مجالس الناس ، إلا أن يتشرَّفوا عليها تشرُّفًا . فاذا أنت رأيتهم ، وهُيّئ، لك أن تعرفهم وتجلس إليهم ، رأيتهم مِثلَنا فى كل شىء ، لا يمتازون إلا بالتواضع ، وطيب الخُلق ، وضبط اللسان عما لا يَعنى من شئون الناس !

وإنك مع هذا لقد ترى شابًا أَخذ نفسَه من الأناقة بأعظم مأخذ ، وقد وضع على يسرى عينيه (المونكل) ، ورشق بين شفتيه طرف (سيجار) كجذع النخلة، وثَنَى معطفه على ذراعه اليسرى . وجعل يتخطّر فى الطريق ، تكاد تتمزق من حوله الدنيا بما يَضغطها من صَلف ومَخيلة . فاذا جاز بك لا يراك كفؤا لأن يُرسل عليك نظرَه كلَّه ، أو نصفه أو ربعه ؛ إنما هى اللمحةُ الخاطفة يَتفضل بها عليك لتعود على معارف وجهه بآثار التتايهُ والعُجْب من أن الطبيعة ترسل مثلك إلى الأرض . حتى ليخيل إليك أنه موفَد من قبل المرّيخ (ليفتّش) على عالم الأرض ، ثم يعود فيقدم تقريره بما ينبغى لهذا العالَم المسكين من ضروب الإصلاح ! .

وتعود إليه نفسِه فلا تقع منه إلا على فتى غِرّ جاهل مفتون ، سائل الخُلُق ، متزايل الشمائل ، لا أثر له فى الدنيا إلا أنه مُستهلك لا فضل له ألبتة فى إنتاج فى أية ناحية من نواحى الحياة ! .

---

* نشرت فى السياسة الأسبوعية تحت عنوان « يوميات » سنة ١٩٢٩

رجل غريب ! *

أعرف رجلاً من أولاد الأعيان أزلّ له الأرثُ ثروةً جليلة، فما برحت يدُه تجول فيها بالسفه حتى كادت تأتى على آخرها ! ولعله بعد قليل ينقل اسمه من (جدول) سادتنا الأغنياء ، إلى (جدول) إخواننا الأدباء !

وأنى لأُخاطر على أن ذهنك يَدور الآنَ فى التماس كلّ أسباب السَّرَف فى الدنيا ، لعله يحرز أيَّها الذى يَستهلك ثروةَ صاحبنا ، ويَقُمّ ماله ، فى هذه السرعة، قمّاً .

وإنى لَأخاطر ثانياً على أنك لن تقع على السبب الصحيح حتى ينحدر نظرك إلى صميم هذا المقال .

ولا تحسبن الرجل من أهل المكارم يتفقّد العافين ، ومن تغيَّر لهم الدهر فيُجرى عليهم الأرزاق ، ويَصِلهم بكريم الصِّلات .

ولا تحسبن الرجل متبذِّخاً فى عيشه يَلبَس الحرير والديباج ، ويركب الجياد الفارهة والسيارات الفخمة ، ويسكن القصور يفتحها لصُدقانه ، والوافدين عليه ، فيتبسَّطون على طعامه ، ويُقلِّبون أعطافهم فى نِعَمه . فما رأيتُه قط إلاّ فى ثوب خلَق . ولا شهدته قط إلاّ راجلاً أو (مترماً) على رأى الأستاذ الخضرى ، ولو كره الأستاذ السكندرى . ولا أعلم أنه سكن فى غير بير المشّ ! أو كفر الزّغارى ! أو درب الوطاويط ! ثم هو لا يستريح من الناس إلى صاحب ، ولا يأنس بخليل .

ولا تحسبنَّه مقامِراً ، ولا مضارِباً ، ولا مستهتَراً بشراب ، ولا ممن يَتخذون الخليلات فيَسخُون بكرائم الأموال فى حُليّهن وأسباب زينتهن ، ولو أتى هذا على كل ما مَلكت أيمانُهم من جليل الأموال .

---

* نشرت فى « السياسة » تحت عنوان (ليالى رمضان)

وأخيراً فلا تحسبنَّهُ معتوهاً يتغفَّله الشُّطَّار، فيستخرجون ماله بوجوه (النصْب) وأسباب الحيَل . لا تحسبنَّه شيئاً من ذلك ، ولا تظنَنَّ أن ثروته تُبتذَل فى مثل هذه الوجوه المأثورة عن تُعَساء الوارثين . . . !

كلُّ خَطب الرجل أنه يُحب القضايا ويَكلَف بها كلَفاً شديداً . ولست أُبالغ إذا قلت لك إن غرامه بالقضايا وبالتقاضى يَرجَح على غرام المجنون بليلَى ، وابن ذُرَيح بلُبنَى . وروميو بجولييت !

هو مغرم بالقضايا غراماً يُسيل الكبد ، ويمزّق شَغاف القلب تمزيقاً . يحب القضاء ويحب التقاضى ، ويحب المحاكم ويحب المحامين ، ويحب المنازعات ويحب الخصوم أيضاً . ويا ويل الأرض منه والسماء إذا لم يجد مَدخَلاً لخصومة ، ولم يُصِب مَدرَجاً إلى محكمة ، ولم يُلفِ وسيلة يشاغب بها الناسَ أو يشاغبه بها الناس ! فإذا طلع عليه نهارٌ وليس له فيه قضية فواحرّ قلباه ! فما الصبُّ كشَحه كاشح فى هواه ، ولا (المجنون) وقد ملك عنه العاذل لَيلاه ، بأشد منه حُرقةً ولا أفدح وجداً .

وهو رجل لا يَصبِر على الأذى ، ولا ينزل على الضيم ، ولا يسلم نفسه لطوارق الأيام . ففتَق له العقلُ أن يتخذ ذخيرة من القضايا (Stock) يُكفَى بها الإعواز ويَتّقِى بها — وقاك الله — شرَّ الحاجة . فجدَّ واجتهد حتى أَجدَّ ثمانمائة قضية دفعة واحدة ، فرّقها على ألوان المحاكم : أهليـة وشرعية ومختلطة . جزئية وكلية واستئنافاً أعلى . وفرض كذلك نصيباً لمحاكم الأخطاط ، والمحاكم القنصلية ، ولم ينس المجالس الملية ، بحيث يَستمتِع كلَّ يوم بـ ١٠ — ١٥ قضية إذا حسبت حساب (التأجيلات) . وبحيث انه — لا سمح الله — كلما انتهت قضية ، صنع بدلها قضية ، حتى تظل الثمانمائة وافرةً لا تُـكلَم على الأيام !

وإنك لَتراه خارجاً من محكمة الأزبكية ، مسرعاً يَطلب محكمة مصر الكلية ، ثم ينكفئ منها إلى المحكمة الشرعية . فاذا كانت الساعة الحادية عشرة ، (استقلّ) قِطار (بور سعيد) إلى محكمة بنها ، فاذا يسَّر الله ونظرت قضيته أو قضاياه سريعاً ، أدرك القطار المفتخر ليحضر قضاياه فى طنطا ، (والبركة) فى المحامين فى حضور باقى المحاكم لتولِّى سائر قضايا اليوم . هذا رزقه فى (الماتينيه) . أما فى (السواريه) فهو من الساعة الثالثة بعد الظهر مُغِذٌّ فى طلب مَكاتب المحامين : أهليين وشرعيين ومختلطين ، فيظل يحاورهم ويناقشهم فى قضايا الغد حتى يفرغ منهم أو يفرغوا منه بانقضاء المواعيد . ثم يَمضى ومن خلفه غلاماه يحملان خريطتين مشحونتين بالأوراق ، فيطلب أحد المقاهى الهادئة ، فيستوى فى ركن منه إلى منضدة ، ويُقبِل على أوراقه يهيئ دفعاً فرعياً فى هذه القضية ، وقضية استرداد لهذا الحجز ، وطلب ردٍّ لهذا القاضى ، وإشكالاً فى هذا الحكم . ودفعاً بعدم اختصاص تلك المحكمة الخ الخ الخ

وأنت فى هذا كلِّه لا تراه إلاّ طرِباً طرَب العقّاد حين يَسيل فى (تقاسيمه) فيستثير المرَح والإعجاب !

*
* *

ولقد لقيتهُ مرة فى فترة العُطلة القضائية ، فرأيته متخاذلاً لَقِسَ النفْس: فقلت له كيف حالك يا فلان ؟ فقال (زىّ الزفت) ! قلت له ولماذا ؟ فقال : (الحالة نايمة ولا فيش شغل) !

وصادفته فى القِطار يوماً فى طريقى إلى (بورسعيد) ، فلما جزنا محطة منيا القمح ، وقعت عينه على محكمتها (الجميلة) الواقعة على بحر مويس ، فسألنى عن ذلك البناء ،

فقلت له . إنه المحكمة الأهلية . فتغزّل فى موقعها قليلاً ثم قال : (والله الواحد حقه يشترى له هنا قدّ فدان وإلاّ نصف فدان) . فقلت له : وما حاجتُك إلى هذا ولك فى بلدك مئاتُ الفدادين ؟ فقال : (علشان الواحد يبقى ييجى يتسلّى بكام قضية هنا !!!)

* * *

هذا رجل ، وهذا غرام ، وتلك ثروة ، فسبحان من قسم العقول . وسبحان من قسم الحظوظ !

ناظر وقف جدّه ... !

أُقسمُ لكم ، يا معشرَ القُرّاء ، بالله العظيم ، وبنبيِّه الكريم ، وبحقّ زَمزَمَ والحَطيم ، أن هذا الذى أرويه لكم حقٌّ يقين ، لم تشُبْه مبالغة ، ولا تَداخَله تندُّر ، ولا عوج من التخييل ، بكثير ولا قليل !

وقعَت لى أمسِ رُقعةُ زيارة (كارت ڤيزيت) ، وقد طُبع عليها :

فلان الفـــلانى

ناظر وقف جــده

وليس لدىَّ على هذا ، بحمد الله ، أىُّ تعليق !!!

إقناع معـدة . . . !

أعرِف شاباً من ذوى البيوتات ذكيّاً غنيّاً، يضطرب دَخله بين الثمانية الآلاف والاثنى عشر ألف جنيه فى كل عام (عدا وظيفته التى يُجريها عليه المنصِب فى كل شهر) . وهو فوق هذا ظريف حاضر النكتة، وانه لَيعرف كيف يَصوغها بالقلم كما يحذِق إطلاقها باللسان .

وإذا أنت لابَسته واطّلعت على دخيلة شأنه حيّر رأيك فيه ، فما تدرى أهو أكرم الناس أم أبخل الناس ؟

والواقع أن مما يَغلِط فيه سوادُ الناس ، ظنهم أن البخيل من لا يجود بالمال ، ومن تغلِب عليه عادة الشُّحّ به ، وشدة الحرص عليه ، وأن السفيه من لا يعتدُّ بالمال، ومن يبادر الى إتلافه ما وقع إلى يده ، وقد دلّت المشاهدة على أن هذا على إطلاقه غيرُ صحيح ، فانك لتجد فى الناس من يحرص على الدانق ، ويضِنّ حتى فى موضع المرُوءة بالسُّحتوت . وتجده نفسه لا يكترث بالآلاف ، ويعمِد ، فى غير حاجة ، إلى السَّرَف والإتلاف . وذلك شأنُ صاحبنا الذى أومأنا اليه فى مستهلّ هذا الكلام : ولقد يعلم أن من عماله على ضِياعه من يَفتلذ من غَلاّتها الآلاف ، فلا يَكرُثه الأمرُ ولا يَعنيه . ولقد يُولم لأصحابه ، بل لمن لا ترتَبِطه بهم الصداقة القوية ، فيقرِّب إليهم أشهى الطعام . وأفخر الشراب ، ويُسمعهم أحذق المغنّين . وقد يدعو لهم بفاخر الطُّرَف وغالى الألطاف ، ثم تراه من غَده يشح بالدرهم ، ولو سُئِلَه لتغيّر وجهُه وتقلّصت شفتاه ، وظهر عليه من الكزازة والكيَص ما لا يرضى به لنفسه أحدٌ فى الدنيا . ولقد يكون فى المجلس المونق ، يَغمُره لطف الحديث أو حلو الغِناء ، فينتفض عنه فُجاءة زاعماً أنه قائم لبعض شأنه (وما به من حاجة) ، ولكنه

إنما يطلب مرافقَ الدار أو المقهَى ليُشعل سيجارة ، خِيفةَ أن يفتح فى المجلس علبة سجايره ، فيتورَّط فى الميل بها على من إلى يمينه أو من إلى يساره !

ومن عجيب شأنه في حسابه أنه قدَّر لنفقته اليومية الخاصَّة قَدْراً لا يَعدوه أبداً . فجعل لسجايره عشرةَ قروش مثلاً ، ولنُزهته عشرين ، ولعَشائه خمسة عشر . الخ . فإذا اختلَّ حسابُه بالزيادة فى أحد هذه الأبواب ، التمس القصدَ فى غيره والتعويضَ من سواه . وراح يُجرى ألوانَ التعديل فى أبواب (الميزانيـة) ، حتى لا يَزيد الخارج فى النهاية دِرهمًا واحداً . فإذا زادت نفقةُ الطعام قرشين مثلاً عوَّضها من باب (البنزين) ، فردَّ السيارة من مطلع شارع الهرم . وإذا زادت نفقةُ السجاير قرشاً مثلاً ، أسرع إلى (التليفون) فأمر الخدم أن يُطفئوا نور الدار ، ولا يُطلِقوا إلاَّ مصباحاً واحداً . وإذا تورَّط فى عشرين قرشاً لم تدخُل فى حسابه، اعتلَّ على أحد الخدم فطرده ثلاثة أيام أو أربعة ثم أعاده . وهكذا . .

ومن أظرف نوادره فى هذا الباب أنه اعتاد العَشاء فى أحد المطاعم ، وكان فيها (حاتٍ) ، وكانت وَجْبتُه فى كل ليلة رِطلاً من الكباب . فلوحظ عليه ذات عَشيَّة أنه دَعا بنصف رِطل فقط . وتبين بعد ذلك أنه تورَّط فى عشرة قروش لم تكن فى حسابه ، فأراد أن يُعوضها (خصماً) على (بند) العَشاء ، فأتى على نصف الرطل . ولكن المسكين لم يَشْبَع ، لأن معدته لا تزال تتطلَّع إلى مزيد !

وهنا تستطيع أن تَتمثَّل أبدع حِوار جَرَى بين إنسانٍ وبين مَعِدته : هو يحاول إقناعَها ، بالحجة الكلامية ، بأنها قد شبِعت . وهى تردُّ عليه ، بالحجة الفعلية أنها ما برِحت جَوْعَى . فيكرُّ عليها بالدليل العقلى أنها قد أخذت قِسْطَها ، واستوفت من الطَّعام حقَّها . ويَستشهد على دعواه بفلان وفلان ممن لهم فى نصف الرطل أو في ربعه مَقنَع ! فتَدمُغه بتهييج الشَّهوة ، وتفتيح اللَّهوة ، وسَيلان اللُّعاب ،

على ما يَضْطرب به الخَـدَم من صِحاف (الكُفتة) والكباب . فيناديها بأنها ما دامت قد انحرَفت عن سبيل القَناعة ، وتمرَّدت على رأى الجماعة ، فإنهُ مضطرٌ إلى أن يردَّها إلى حدود الطاعة ، بإنزالها على المخمَصة وتعذيبها بطول المجاعة ! فتجيبه فى عزَّةٍ واستكبار ، وعزم لا يُطاوِله وعيدٌ ولا إنذار : إذن أُهُدَّ حَيلَك ، وأؤرِّقَ لَيلَك ، وآخذَك عن نَفْسك ، فما تدرى أفى يقظَة أنت أم فى منام ، وحقيقةٌ ما يَتنظَّر لك من ألوان الطعام ، أم هى أضغاث أحلام !

***

ولما أعْنتَته بطول نشوزها على رأيه ، وشدَّة تمرُّدها على حكمه . جمع كلَّ عزمه ، وشدَّ مجامعَ أَعصابه . وتَنحنح وتَسَعَّل ، ثم استمكن من كرسيِّه ، وأعلن فى صراحة وحَزم ، أنه قد شَبِع والحمد لله ! .

ولكى يَضَع مَعِدته أَمامَ الأمر الواقع ، كما يقولون ، دعا بفنجان قهوة (سادة) ، وشربه ولعق ما ترسَّب فى قراره ! وجعل يَتشاغل بالحديث عن المقيم المقعد من أمر تلك المعدة ، عليها خيبةُ الله !

ثم أَطرق إطراقةً طويلةً لم يَدْر حاضروه ما عِلَّتها . ثم بان أنهُ يُحاول المِعدة ويُصاولها ، ويُصابرها ويُطاولها . وما زالت حجتُها عليه تقوَى وتشتدّ ، وسَطوتُها به تقسو وتَحتدّ . وما زال عزمُه أمامَها يَضْعُف ويتخاذل ، ويَسترخى ويَتزايل . ويَظَل على هذا قَرابةَ عشر دقائق . ثم إذا هو يَهُبّ فُجاءةً ويصفق ، حتى إذا أقبل الخادم ، عاجله بطلب . . . . . (واحد رزّ) ! !

ويحسن أن أقول لك : إن ثمن صفحة الرزّ فى ذلك المطعم هو قرش صاغ واحد ولله فى خَلقهِ شئون !

ملحـــق . . .

ومما يَتَّصل بهذا الباب ، ويُضَمُّ إلى هذا الجنس ، حديثُ (فلان بك) رحمه الله . وكان معروفاً بسَعة العلم ، وشدَّة العقل ، وكان شديدَ البخل ، قاسياً فى الضَّنّ على النَّفْس ، وقد أُلحِق فى شَباب سنِّه بخدمة الحكومة ويده لاصقة بالتراب من شدة الفقر ، فكان يدّخر وظيفته الشهريةَ كلَّهـا إلاَّ ما يكفى لشراء رغيف (وطعميتين) كلَّ يوم . وأما الثِّياب فلا يكفى لتغييرها أن تَحُول ، أو يَلحَقَها النُّصول ، أو أن تَبلَى خيوطها ، أو أن تتخرَّق عُروضها ، فهو لا يتركها بل هى التى تتركه حين يُدركها الفَناء . فتَطايرُ عنه تطايُرَ الهَباء . وعاش كذلك يجمع الدرهم إلى الدرهم ، ويضم المِلّيم إلى المِلّيم ، حتى اجتمع له فى غاية عمره نحو أربعمائة فدان من أجود أطيان الدنيا ، وحَوالَىْ عشرة آلاف الجنيه ، أرضخها للوارث نقداً وعداً .

وليس شئ من كل هذا بعجيب ، إنما العجيب ما استُكشِف من خلاله فى مؤخِرات سِنِى حياته . ذلك أنه ظهر ، بحكم إحدى المصادفات ، وللمصادفاتِ أبلغ الفضل فيما يَجرى فى هذا العالَم من وجوه المستكشَفات — أقول ظهر أن الرجل لم يكن يُحب المال ولا يَحفِل به ، ولا يَعنيه أن يجتمع له منه كثيرٌ ولا قليل ، ذلك أن كلَّ همِّ الرجل وكلَّ خلته أنه لا يحب المتاع ، ولا يُطيق التقلُّب فى النعمة ، فاذا أكل أصاب أيسر ما يُمسك الحَوْباء ، وإذا لبِس ففى سَتر الجسم بالخَلَق غَناء . وإذا استَصبح تَغنَّى بالزيت ، وإذا أَوَى استغنى بالكوخ عن البيت . فهو إذا جمع بعد ذلك المال ، فليس يجمعه لحب فيه أو شهوة إليه . وإنما يجمعه لأنه لا يجد له مفيضاً عن الكَفاف وهو غايةُ مناه !

قلت لك إن هذه الخَلة قد استُكشِفَت فى أخريات سِنيه . وذلك أن بعض من يَحمِلهم لاحظوا ، بعد طول ما اعترُوا به من ضِيق الحياة وشَظَف العيش فى كَنَفه ، أنه لا يَضنُّ عليهم بشىء ممَّا يطلبون من الأموال ، بالغة ما بلغت ، على شرط أن يَستأثِروا بالمتاع بها وحدَهم . فلا يُشرِكوه فى طعامهم ، ولا فى شرابهم ، ولا يُفرِغوا عليه مثل أرديتهم ، ولا يُرقِدوه على مثل فَرشهم ، ولا يُدخلوا عليه شيئاً من رفاهيتهم ولين عَيشهم !

*
* *

بَقيتْ هنالك مشكلة . وهى أنهم يحبون أن يَستصبحوا بالكهربا ، وهو لا يُطيق أن يُطلق النظرَ على ضوئها ، فكيف الحيلةُ فى هذا الأشكال ؟ لقد ظَلَّت المشادَّةُ دَهراً بين الطَّرَفين ، حتى عَرَض هوحلاً معقولاً : ذلك أن يَستأجِر لهم داراً فى حىّ المنيرة ذات غرف وأبْهاء ، ليزيِّنوها بما شاءوا من ثُرَيَّات الكهرباء . على أن يدَعوه فى مثواه ببير المشّ ، يَستصبح بالزيت ويفترش القَشّ !

*
* *

فى الحق أن المؤلفين فى علم الأخلاق فى حاجة إلى مراجعة كتبهم لاستقصاء مثل هذه الأحوال ، وضبط الكلام فيما تدل عليه من الغرائز والخِلال .

اقتصاد سياسى ! . . .

(فلان بك) ، عليه رحمة الله . قَضَى ولم يَتشرّف بعدُ على الخمسين . وكان يعيش فى هذه الدنيا فرداً . فلا أم ، ولا أب ، ولا زوج ، ولا ولد ، ولا خادم . وكان واسعَ الغنى وافرَ المال . على أنه قد حَبَس ما فى يديه من النّقْدين على إقراض المحتاجين ، ولا يُقرض منهم إلاّ موظّفى الحكومة . فيُخرِج الجنيهَ بريال يستحقّ فى أول يوم من الشهر القابل ، سواء أأقرضه فى أول يوم من الحاضر أم فى ١٥ أم فى ٢٧ منه . ثم هو لا يَعقِد السُّلفةَ إلاّ إذا أخذ توكيلاً من الموظف المقترِض بقَبض راتبه عنه . فاذا فضَل منه بعد استيفاء القِرضة شىء ردّه إلى صاحبه . وكان فى ذلك ، والحق يقال ، أميناً شريفاً .

وأَعرِف موظّفاً مستهتَراً كان فى وزارة (. . .) وألحّت عليه الحاجة إلى العبَث فى يوم ٢٢ من الشهر . وسأل صاحبَنا قَرضاً بخمسة جنيهات يُؤدّى ، على العادة ، فى أول الشهر التالى ستة . فتثاقل عليه . وكلما ألحّ صاحبُ الحاجة ازداد صاحبُنا تعلُّلاً . وأخيراً ، وبعد طول مفاوضات ومساومات ، عُقِد القرضُ بالشروط الآتية :

(بند ١) مبلغ القرض خمسة جنيهات مصرية تُدفع ستة فى أول يوم من الشهر التالى من ماهية الطرف الأول بمقتضى توكيل منه للطرف الثانى

(بند ٢) يَشتركُ الطرفان فى إنفاق هـذا المبلغ فى اللّهو والعَبَث فى الأماكن التى يُعيِّنها الطرف الثانى بدون معارضة من الطرف الأول

(بند ٣) للطرف الثـانى الحريةُ المطلقةُ فى إنفاق المبلغ كله فى ليلة واحدة أو أكثر

(بند ٤) أمانة الصندوق من حق الطرف الثانى

ونُفِّذ العقد بجميع شروطه من المتعاقدَين معاً .

*
* *

ولهذا (البك) ، رحمة الله عليه، رُقْعة واسعة فى أحد أطراف مدينة القاهرة، ولا أعيِّنها لكيلا أعيِّنه . ويقع فى وسطها تَلٌّ مرتفعٌ يُصعَد إليه بدروب من جميع أقطاره . وقد بنى عليه مئات من البُيَيتات ، اتَّخذ سكناها رعيلٌ من النساء اللائى جرى عليهن القَدَر باتخاذ أتعس المِهَن . وقد أطَّر هذه الرُقعةَ الواسعةَ من جانبيها اللذين يقعان على شارعين حافلين بما لا يُحصَى من الدكاكين . وأرصد كلَّ واحدة منها لصاحب مِهنة خاصَّة .

فالدكاكين رقم كذا ورقم كذا لا يؤجرها إلاّ لمزيِّنين . والدكان رقم كذا لكوّاء . ورقم كذا لقصاب (جزّار) . ورقم كذا لخضرى . وأخرى لبقَّال . وغيرها لبدَّال . وغيرها لحاتٍ . وسواها لطبَّاخ . وغيرها لفوّال ولسمكرى . ولحدَّاد . ولخيَّاط . وهكذا مما يَستوْفى مطالبَ الناس فى أسباب معايشهم . ولو قد خَلَت دكان من هذه الدكاكين ، لجاء صاحب حرفة أخرى ما أمكنه منها ، ولو أضعف له كراءها ثلاثة أضعاف .

فإذا كان الصباحُ انطلق إلى دكان اللَّبان أو الفوال ، ووقف بصاحبها وناداه : يا حَجّ أحمد . أو يا عم مصطفى : هاتِ الأجرة (وفى لسانه لثغة تُخرِج الراء بين الراء والطاء) . فيجيبه الرجل : « يا فتَّاح يا عليم . رايح أجيب لك الأجرة دلوقت منين ؟ إحنا لسَّه استفتحنا يا سعادة البيه ؟ » . فيحتدّ (البك) ويَصيح فى وجهه : إذن تَحوَّل (يالله عزِّل) . فلا يزال الرجل يستعطفه ويترضّاه ، حتى يَسْتدرجه إلى منضدة ، ويقدّم له اللبن الحليب وطبق القشطة . أو الفول المدمس مُعالَجًا بالزُّبد . وما يَبرَح يبالغ فى إلطافه وإيناسه حتى ينطلق راضياً بتأجيل كراء

الدكان أياماً أُخَر. ثم يَميل إلى صاحب المقهَى فيَصْنع معه ما صَنَع بالأول، وتنتهى المسألة بتأجيل الأجرة بعد تقديم (كنكة) قهوة (بسكَّر شويَّة)، ونَرْجيلة. حتى إذا بلغ من ذلك حظَّه، قام فعدَل إلى الحلاَّق فطالبه بالأجرة. وانتهى المشكل بحلق رأسه أو إحفاء لحيته، وتطييبه وتعطيره!

فإذا انحرفَت الشمسُ عن كبد السماء، انخرط إلى (الحاتى) فطالبه بكراء الدكان، فيعتذر بضيق ذات اليد (ووقوف السوق) فيكرر عليه، فى حدَّة وحزم، طلبَ الأجرة أو التحوُّل (العِزال) من غَدِه. والرجل يُطامنه ويَسْتعتبه حتى يَرضى بالاستواء إلى إحدى المناضد، فما هو إلاَّ أن يَجدَ بينَ يديه رِطلاً من الكَباب وآخرَ من (النيفة)، وألواناً من الكوامخ والمشهِّيات. فإذا أَصاب من ذلك كفايته، مضى إلى الحلوانى، فانتهى الأمرُ بقطعتين من الفطير وثلاث من (الهريسة). ثم قام إلى الفاكهانى، فأَصاب ببركة تأجيل دفع الأجرة، ما شاء من تفُّاح وموز وعنب.

فإذا كان المَسَاء أعاد الكَرَّة، ولكن على غير من اعترامهم فى نهاره. وللكوَّاء يومٌ فى غسل الثياب وكيِّها. وإذا انصدعت أنابيب المياه فى البيت أو فسدت صَنابيرُها، فهناك السَّبَّاك. وهناك الزَّجَّاج لما يتكسر من زجاج الشَّبابيك. والنجار لإصلاح ما يَتصدَّع من الأبواب. وهكذا!...

فاذا أراد الشرابَ فى إحدى لياليه طلبَ حانةَ أنستى أو بَنْدلى. وهما من سكَّانه أيضاً. وصنع مع الأروام ما يصنع بأبناء البلد.

ولعله إذا كانت ليالى الجُمَع صَعِد إلى أعلى التَّلّ فاقتضَى سكانَه المساكينَ الأجرة أو.... (العزال)..!

رحمه الله رحمةً واسعة؛ وعزَّى (الاقتصاد السياسى) فيه أحسنَ العزاء!

فى البخل ! . . .

قرأت كتابَ « البخلاء » للإمام الجاحظ أكثرَ من مرّة . ومما وقع لى فيه أنه ما من رَجل مُبَخَّل ، إلاَّ يحتجّ للشحّ والتوفّر على الجمع ، بالضَّنّ بالولد على الفقر ، وترك ما يَدفع عنهم الحاجةَ والابتدالَ فى طلب القوت .

ولقد دَمَغ الجاحظُ احتجاجَهم هذا بحجَّة رائعة . وتلك أن الخِصيان (الأغوات) جميعًا يَشيع فيهم الشُّحّ ، وتغلِب عليهم شهوةُ الجمع والادّخار ، والضَّنّ على النفس بالدانق والسُّحتوت . وليس لأحدٍ منهم ولد ، ولا يُمكن أن يكون له ولد ! . فلمَن يَكنِز الأموال ؟ ولمن يُضيّق على نفسه فى حياته ، ليوسّع عليهم و يرفّه عنهم بعد مماته ؟

الواقع أن شهوةَ الحرص وجمع المال ، هى فى نفسها عند البخيل لذّة لا يَكاد يَعدِلها شىء من لذائذ الدنيا . هى فى نفسها لذّة غيرُ موصولة بعلّة ، ولا ممدودة بسَبب . لأن الإنسان إنما يُحبّ ولدَه لأنه يُحبّ نفسَه ، وولدُه بعضُ نفسه . ولا يُعقَل أن يؤثر الفرع على الأصل ، أو يرجّح البعض على الكلّ !

والبخيل يُقتّر على نفسه وعلى ولده معًا . وقد يكون عنده من جليل الأموال ما إن وسّع منها على نفسه وعلى عياله معًا ، لبقِىَ منها ، بعد موته ، ما يتضمَّن لهم العَيشَ فى السّعة ، والتقلُّبَ فى النعمة . ومع ذلك فانه لا يَفعل . بل تراه يتعمَّد الحِرمان لنفسه ولأولاده ، ويَثبُت لحِقدهم عليه ، وتعجُّلهم لأَجَله ، ليستمتِعوا بالنعمة إذا هو اندسَّ فى التراب ، وأضحى أكيلَ الدوابّ !

على أننى وقعتُ على لونٍ من البخل ، لعلك كنت تراه غريبًا ، وأحسبُك الآن تراه غيرَ غريب : فلقد جَرت سُنّةُ البخلاء على أن يقتروا على أنفسهم وعلى

عِيالهم معاً . فاذا كان لولدِ أحدهم شيء من السَّطوة عليه ، استَخرَج منه الأموال ، فأخرجَها له مُرغَماً مغلوباً ، لا إيثاراً للولد . وبَقِيَ هو فى شحِّه على نفسه ، ارتكاباً لأخفّ الضررين (التوسيع على النفس وعلى الولد معاً) !

أما النوعُ الذى وقعتُ عليه من البخل ، وتحسبه غيرَ مألوف ، فلقد كان لى صاحبٌ عَلَت به السِّنّ ، ورُزق الضدَّين (الغنى والعَيلة) . فقد اجتمع له ، من زوجاته الثلاث ، ما لا يقلّ عن اثني عشر ولداً . ولا بدّ له ، رضى أو كره ، من أن يَحمِلهم . وكان ، رحمه الله ، رجلاً شديدَ الحِرص عظيم الطمع . يَجمع الدانق على الدانق ، ويرصّ المِلّيم على المِلّيم . ولا يكاد كيسُه يتفصَّد إلاَّ فى بناء دار أو شراء ضَيعة . ولكنه كان يخالف سُنَّة البخلاء فى خَلَّة واحدة : ذلك بأنهم ، كما تعرِف ، يقترون على أولادهم وعلى أنفسهم معاً . ولكن هذا إنما كان تقتيرُه موجَّهاً على عياله وحدَهم . أمّا نفسه ، فكان لا يَحقِن فيها شهوة ، وبخاصَّة شهوة الطعام . بل لقد كان يبلغها من هذا غايةَ مناها !.

وكان ، رحمه الله ، إذا سافر رَكِب من القِطار فى الدرجة الأُولى . أما أولاده فيشحنهم فى (الترسو) أو ما دون (الترسو) لو كان له دون !. وإذا لَبِس فمن (تفصيل) دبليـا أو فستا . أما بنوه ، فعليه أرخص القماش ، وعلى أمهاتهم (التفصيل) ! وإذا نام افترش الحرير ، وتوسَّد ريشَ النَّعام ، أما البنون ، ففى (الكليم) متَّسَع للجميع !

أما الطعام ، وما أدراك ما الطعـام ! فالخبزُ أولاً يُصنَع فى البيت كلَّ أسبوع ، على ألاَّ يُنفَى من الطَّحين إلاّ النُّخالة ، وسائره للعجين !. وأما الإدامُ فهيهاتَ للحم أن يزور دارَه (العامرة) ، فلقد أخذ بنيه فى هذا الموضع بالوَرَع ، وجَلاَ عليهم الحِكمةَ فى الحديث الشريف : (نعم الإدامُ الخَلّ) . فللغَداء

الكوامخ (السَّلطات) أشكالاً وألوانًا ، و (لأمّ الفلافل) وأخواتها من الخوان المقامُ الكريم !

وأما العَشاء ، فله فيــه صُنعٌ بديع ! :

يَدخل وقتُ العشاء ، فإذا صاحبُنا قد سَلَف وأعدَّ بعدد الأولاد ملاليم . فإذا اجتمعوا إليه مستشرفين لعَشائهم ، قال لهم : (اللّى ياخد مليم ما يتعشَّاش ، واللّى يتعشَّى ما ياخُدش مليم ! . مين اللى ياخد مليم ؟) . ويدفع أحَدهم فيقول . (أنا !) ، وعلى حكم غريزة التقليد فى الغِلمان ، يُسرعون فيتصايحون : (أنا ! أنا ! أنا !) . فيدفع إلى كلٍّ منهم مليّمه ، وكفاه الله مؤونة العَشاء ! أعني عَشاء الأطفال !

وبعد ، فللفطور قِصَّةٌ أخرى : ذلك بأنه زعم للزَّيات القائم على رأس الشارع ، أن لديه حَمَلاً يربّيه ويحبّ أن يُسمنه ، ويُجزل لحَمه وشحمه . وليس يَعقِد له ذلك ويُسرع فيه أفضل من خُلاصة[1] (تصافى) قِدر الفول يَطعَمها فى الصَّباح . فيحتفظ له الرَّجل (بخُلاصة) قِدر العَصر ، ويبعث إليه بها فى الصَّباح الباكر ، والأولادُ بعدُ نيام . فيفرغها فى صَحفة كبيرة ، ويعالجها بقَدر من الخَلّ ، ويُصَفّف حولها كسَر الخُبز التى أفضلَها الأولادُ فى غَداء أمسِهم . حتى إذا هَبُّوا من النوم ، وأحشاؤهم تَتنزَّى من شِدَّة الجوع ، فتواثبوا إلى الطعام ، صاح فيهم : (اللّى عاوز يفطر يجيب المليم !) ، فلا يسَع كلا منهم إلاَّ أن يَطْرحه إليه ، مواتاةً لألحاح البطن ، وإيثاراً للعافية . فسَرعان ما تعود تلك الملاليمُ إلى عُشِّها ، وتَعتصم بوكرها !

*
* *

أما هو نفسُه ، فإنه يخرج فى الصباح من داره على الطَّوَى . فيَميل فى طريقه إلى الديوان على دكان لبّان ، فيُصيب فيه ما شاء اللهُ أن يُصيب من الحليب ،

(١) الخلاصة : ما بقى فى البُرمة من تُفل أو لب أوغيره .

أو اللبن الخاثر (الزَّبادى)، أو (القشطة) . وقد يَميل إلى (حلوانى) ، فيُصيب عنده ما شاء اللهُ أن يُصيب من لبَن وشاى ، وفطائر مَدحُوَّة ، وأخرى بالفُستق والزبيب محشُوّة . الخ الخ . فإذا فرغ من عمله فى الديوان ، عرَّج ، فى مَقفله إلى الدَّار ، على الحاتى أو على غيره من المطاعم الفاخرة ، فأَوْصى وتخيَّر . وتبسَّط على الطعام ، حتى إذا سدّ نَهوته ، وكظَّ لَهوتَه ، انكفأ إلى البيت راضياً هانئاً

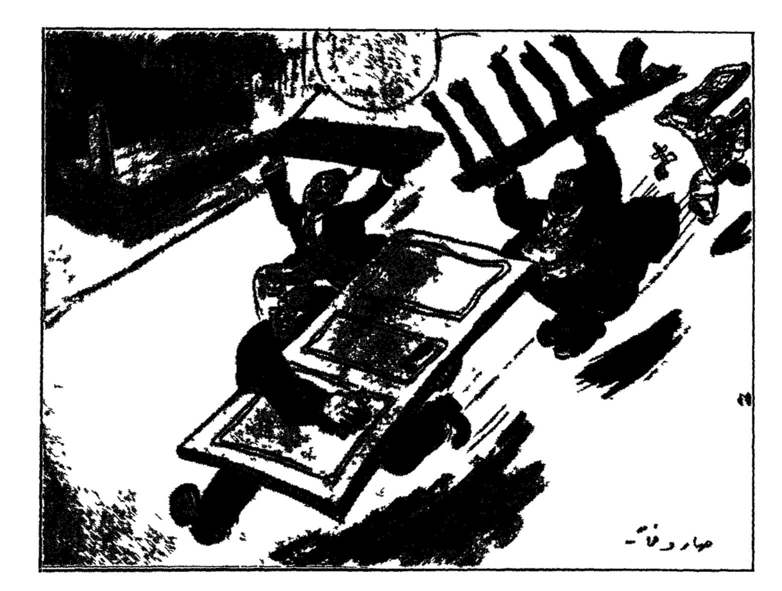
أما العَشاء ، فإنه يُصيبه فى البيت قبلَ أن يتدلَّى إلى السَّهرة . وذلك أن يَبعث الخادمَ ، فى سِرٍّ من بَنيه ، فيأتيه بقَدر كفايته من خفيف الطعام وفاخره ولا يَنسى أن يأتى معه بنصف أُقَّة عنب ، أو بزَوْعة (شقة) بطيخ أو ثلاث كُمَّثرَيات ، أو غير ذلك من فاكهة الأوان . حتى إذا دسَّها له فى غرفته الخاصَّة ، قام إلى الباب فأحكم رِتاجَه ، وجلس مطمئنًّا إلى العَشاء !

ومن أظرف ما يُذكر هنا أن الأولاد ، وبخاصَّةٍ صِغارهم ، كانوا يَرتصدون لهذه الساعة ، حتى إذا اجتمعَ أبوهم للعَشاء ، تواثبوا إلى الباب (ليتفرَّجوا عليه من الثَّقب . فترى هذا يتوسَّل إلى أخيه أن يُخلى بينه وبين الثَّقب ، وهذا يثب وثباً ، ويدفع صاحبَ النَّوبة دفعاً . وهكذا . وكانت تكون جَلبةٌ وصياح وعويل . والأبُ مُمعِنٌ فى طعامه ، لا يُعنَى بأن يَسأل عما وراء الباب !

*
* *

وفى يوم موته ، رحمه الله ، لم ينتظر هؤلاء الأولادُ حتى يقسِّموا التركة ، ويهتدوا إلى اسم المصرِف الذى يكنز فيه (المرحوم) مالَه . بل لقد كنتَ ترى أحدهم يُهرول فى الطريق وعلى رأسه (شُبَّاك) . والثانى وعلى كتفه مِصراعُ باب . وثالثاً يحمل بين يديه طَستاً . ورابعاً يحمل مِقطفاً مُلئ بالصنابير (الحنفيات) . وهكذا ! .

فهل هذا أيضاً كان يَجمع للولد ليَعصِمَهم من الفقر ، ويَكُفَّ عنهم عاديَةَ الدَّهر ؟ !



خير البرّ عاجله ! . . .

أصحاب اللُّقَط والتعويض !

تلقيت أمس الكتاب الآتى :

حضرة محرر اليوميات :

أرجو إن سَمَحت ، أن تنشُر خطابى هذا وتتفضَّل بالإجابة عما عزَب عن علمى ، وتَحيَّر فى تعليله فَهمى ، ولك الأجرُ والثواب ، من الكريم الوهاب :

رَوَى لنا التاريخُ أن السُّلطان سليماً ، كافأه الله بما يستحقّ ، لما تمّ له فتحُ مصر واعتزم القُفول إلى بلاده ، جَمع فيما جَمع أمهرَ الصناع وأحذقَهم ، ممن لا تزال آثارُهم فى المساجد ، والأسبِلة ، والرِّباطات «التَّكايا» ، وماحوت المتاحف ، ناطقةً بما بلغت مصر من علوّ الكعب ، والبراعة البارعة فى مختلف الفنون والصناعات وبلغت عدَّةُ هؤلاء المفتنِّين والصناع فى رواية بعض المؤرخين عشرةَ آلاف ، وزاد بعضُهم عليها ، ونقَص بعضُهم منها ، وأشدُّ المؤرخين قَصداً من قدَّرهم بألف . وعلى كل حال فقد انحطت الصناعة على أثر ذلك فى مصر واضمحلّ منها كثير .

على أننا ، لأول عهدنا بالحياة ، شاهدنا كثيراً من الصناعات البَلدية تعالج كلاً منها طوائفُ من الناس ، ويَتَّخذ كلٌّ أرباب حرفة ، وبخاصة فى القاهرة ، رُقعةً معيَّنة ، فصُنّاع القِرَب مثلاً فى القِرَبية . وصُنّاع الأحذية البلدية (المراكيب) فى السُّروجية . وصناع الشمع فى السُّكّرية ، وخراطو الخشب تحت الرَّبع ، والقرّادون (القرداتية) فى حوش بَردَق ، (والأدباتية) والحواة فى (عشش الترجمان) . والشحاذون فى عرب اليسار الخ الخ .

وما بَرِحت هذه الحِرَف تَنقبض وتضمحلّ رويداً رويداً ، بما يَهجُم عليها من مصنوعات الغَرب وأسبابه . فحلَّت (السَّيارةُ) محلّ البغل ، ومياهُ الصنابير (الحنفيات) محل قِرْبة السَّقَّاء ، و (السينما) محل خيال الظِّلّ ، وموسيقى

الأروام ، التى يطوفون بها المقاهى ، محل جوقة (ألاَ يا بدر لم أنظر مثالك) . واللاعبون من أولئك بالـكمان محل (رَمز) الخ الخ .

ولم يبق ثابتاً قوياً يزداد على الأيام إلاّ طائفة الشحاذين (والبركة فيهم) !

وكل هذا ، لسوء الحظ ، معقولٌ مقبول ، ما دامت سُـنَّة الكون واحدة لا تتبدَّل ولا تتحوّل ؛ وهى بقاء الأنسَب ، وعدمُ ثَبات الضَّعيف أمام القوىّ .

ولكن الذى لا يُعرَف سببُه ، ولا تُفهَم علّتُه ، زوالُ مِهنتين قوّيتين كانت تحتكر كلاًّ منهما أُسرةٌ واحـدة ! والاسرتان كلتاهما كانتا تسكنان حارةَ اليهود .

وفاتنى أن أذكر لك أن هاتين المِهنتين كانتا تدرّان الرزق على أصحابهما ، فكانوا يَعيشون فى أوسع عيش ، ويَتقلّبون فى أنضر نعمة ، ألاَ وهما طائفةُ (الملاقياتيّة) ، وطائفةُ (التعويضجيّة) ، وكذلك يُدعَون فى عُرف العارفين .

وأفرادُ الطائفة الأولى ، كانوا يَخرجون بُعَيْد انصداع الفجر ، فيَتقسَّمون بينهم مناطقَ حىِّ الأزبكية : هذا يَطلب مَيدان ابراهيم باشا ، وهذا يَطلب شارع (وجه البركة) ، وهذا شارع (كلوت بك) الخ . فإذا بلغ الواحدُ منهم أولَ المنطِقة مشى وَئيداً ، وهو متَـكِئٌ يحدّد نظره فى الأرض ، ويَتفقّد كلَّ دقيق على ظهرها ، حتى إذا انتهى إلى آخر المنطِقة ، عاد فى خطٍّ مؤازٍ للخطِّ الذى قدِم منه . ولا يزال كذلك رائحاً غادياً فى خطوط متساوية ، فِعلَ الحرّاث فى الأرض . وكلما أصاب لُقطةً من كيس ، أو دينار ، أو درهم ، أو حِلية ، أسرع فالتقطها ودسَّها فى جيبه . ثم عاد إلى داره يَعيش أَخفضَ العيش ، بفضل هذا الغُنْم الذى لم يُجشِّمه إلاّ ما رأيت !

أما (التعويضجيّة) وكفاكَ اللهُ السوء ، وعَصَمك من المكروه ، فهم أكثرُ من إخوانهم مالاً ، وأوسعُ نعمة . وربما رأيت فيهم من يَلبس الحرير ، ويَتختَّمُ باليواقيت ، ومن يحوز السيارة ، ويَقتنى خيلَ السباق ، ذلك أن مهنتهم الاستهدافُ ، بقدرٍ مّا ، للأخطار ، والتعرّض لألوان من الأذى ، ليقتضِى المكلوم على ما حلّ به ، التعويضات . فتراه يَقِف على سُلَّم الترام مثلا . حتى اذا أغذَّ السيرَ قفز منه الى الجهة المعارضة فشدِخ رأسُه ، أو رُضَّ كتفُه . وإذا أبصر بسيارة مقبلة تغفَّل سائقَها فسَنَح (لرفرفها) فخمش ساقه . وإذا أصاب جماعةً يلعبون (بالبليارد) جلس خلفَ أيسرهم حالا ، وحرّر عينَه لكعب العصَى (الأستيكة) وهى مرتدَّة عن مَضرِبها . وهكذا . وإما الصُّلح بعد هذا ، وإلا فالقضاء لطلب التعويض !!!

فما عِلّة انقراض هاتين المِهنتين ؟ إننى فى انتظار الجواب .

وتفضل . . . (م)

(اليوميات) أؤكد لك ياسيدى أنني لا علم لى بشىء مما ذكَرت . على أننى سأبحث الأمر . وأُجيبك بكل ما أُحصِّل من العلم فيما سألت . على أننى من الآن أَلفت نظرَ جمعية تنشيط الصناعات الوطنية إلى هاتين المهنتين ، فلعلّ فيهما مُرتزَقاً لهؤلاء الذين ضاق بهم العيش فركنوا الى التبطل ، أو نَشِطوا إلى الاتّجار فى السُّموم الكاوية من الكوكايين والهاروين . وموعدنا إن شاء الله بالبيان قريب .

رزق... !*

وكان صلّى الله عليه وسلم يمزَح ولا يقول إلاّ حقًا. وسأمزَح أيضًا ولا أقول إن شاء الله إلاّ حقًا. وكيف أتفرَّج من هَمّى بمثل هذا ؟ ولا أحسب القراء إلا أطابَ منى لمثل هذا الفرَج !

على أننى لا أكون مصوِّراً فى هذه المرة . إنما أنا ناقل فقط ، فليس لى فضلٌ إذا راقتك هذه الصورة ، وليست علىَّ تَبِعة إذا هى عَدَلت منك عن موضع الأعجاب : من عشرين سنة مضت كان فى مصر رجلٌ صاحبُ نجوم ، وعلم بالكفّ ، وزجر الطير ، والسحر ، والعيافة ، وتسخير ، الجن ، واستخراج كنوز الأرض . وكانت له جريدة جليلة تضرب فى هذه المباحث . وتشقّ الطرق بين يدى طلاب الغنَى ، وأصحاب المنَى ، فما تترك مرضًا إلاَّ تصف له علاجًا ، ولا تذكر من أغراض الدنيا غرضًا إلاَّ تدل فيه على أحسن حِيلة ، وتَهدى إليه بأنجع وسيلة ، ولكن العلم أمانة !

ولعلوم الغَيب أسرارٌ لا يَضطلع بها إلاَّ الراسخون من أصحاب الأقدام ، فكيف تريدون ابتذالَها للدَّهماء من سواد القراء ؟ الحق أن الخَطب فى هذه المسألة سهل . فاذا وصلنا إلى مواطن السرّ أَغنَى الرمزُ والإشارة ، عن التصريح بالعبارة . فاذا وَصفَت الجريدة علاج الصَّرع وإخراج (إخواننا)، ذكرتْ لك عَقَّاراً أو بضعة عقاقير معروفة تشتريها من العطَّار بنصف قرش . على أنها لا تَنجَع فى العلاج إلاَّ إذا أُضيف إليها نصف أوقية من (السرواق) ، وعليك أنت أن تطلبه ولو فى جزائر واق الواق !

وإذا هى علَّمتك استحضارَ الجنّ وصَرفَها ، جلَت عليك آية مبيّنة ، ودعاء واضحًا (وقَسَماً مفهومًا) . ولكن هيهات أن تُقبل عليك الجنّ . وإذا هى أقبلت

* نشرت فى « السياسة » سنة ١٩٣٥ تحت عنوان (ليالى رمضان)

فهيهات أن تَنصرف عنك إلاَّ إذا تلوت (القَسَم) الأعظم ، وهو سرٌّ تُقَدّ دونَهُ الغَلاصم وتُقطع البلاعيم !

أما فتح مغاليق الأرض، واستخراج ما فيها من معاليق الجوهر والدُّرّ والمرجان. والجونة التى تحتوى خاتم سليمان ، فعليك أولا أن تتوضأ بِنحْيٍ من اللَّبن ، ثم تصلّى لغير القِبلة ، وتهمهم بكيت وكيت. ثم تحرق الجاوى بعد أن تبلّه بماء الورد البلدىّ . ثم لن ينصدع بطن الأرض عن كنزك الموعود حتى ٥٧ — ٣٤ — ٨٢٥ — يانا . . . ف . . . ك . . . ياطانورش . . . يا شمهورش . . . يا عولص . . . يا ابن بولص . . — ١١ . . . ٣٤٥ . . . . . . وفى الناس الصَّرعى وفيهم الزَّمْنَى. وفيهم من ركِبته العفاريت الُحمر. وفيهم من أعياه طلب الغنى . وفيهم من ألحّت على قلبه الصبابةُ والهوى . وهل لمثل هؤلاء صبرٌ على مطاولة الدهر فى حلّ هذه الرُّموز ، لتَسقُط ما حَجبت السماء من غيب وما أجنّت الأرض من كنوز ؟

لا والله ودارُ الشيخ أقرب ، وأجرُه أسهل وألين

وكان فى مصر فتى يعالج ما كان يعالجه بعض أصحاب الصحف الأسبوعية فى ذلك الحين . وطوّعت له نفسه أن يَشخَص إلى الآستانة ، لعله يُفيد ببعض العبث السياسى مالاً . وما كاد يهمُّ هناك بشأنه حتى تناوله المرعب الذِّكْر فهيم باشا (السرخفيّة) ، وزجَّ به فى الطابق، فلبث فى السجن بضع سنين لا يرى الشمس ، ولا يحسُّ النسيم ، ثم تهيأت له فرصة للفِرار ، ففرّ على باخرة كان علاجُه للخدمة فيها أجرَ سفره عليها . ودخل مصر بسلامة الله آمنًا . وعاد إلى مهنته القديمة ، فأخرج جريدة أسبوعيةً ، لم تكد تُجدِى عليه كثيراً من الرِّزق ولا قليلاً . وجعل يتحدث فيها عن (دار السعادة) ، وجيش (دار السعادة) ، وأُسطول (دار السعادة) ، والمناصب التى تقلّب فيها ، وماله عند رجالها من جاه وصَوت الخ الخ . .

كما جعل يَتصيدُّ ضِعاف الأحلام من طلاب رتب (دار السعادة) ، ويُدخل فى نفوسهم أن له فيها من الوسائل والأسباب ، ما يواتيه بكلّ ما شاء من الأوسمة والألقاب ، وأنه كان وسيلة فلان إلى رتبة (الروملى بيكلر بك) ، وفلان إلى رتبة (البالا) ، وفلان إلى (العثمانى المرصع) . ويَستخرج منهم كلَّ ما قدَر على استخراجه على هذا الحساب .

وأخيراً اجتمع مع صاحبنا المنجِّم ، وعقدا محالفةً دفاعية هجومية كانت آية فى اللُّطف والإبداع . فقد اتفقا على أن يَتظاهرا بالخصومة ، ويَتباديا بالعداوة ، وأن يلوّن كلٌّ واحد منهما لصاحبه الشتم والسب والإقذاع . ولكن على الطريقة الآتية :

تَخرج صحيفةُ المنجِّم فإذا فيها : (أن فلاناً يدَّعى أنه كان أقربَ المقرَّبين فى دار السعادة ، وأن له فيها جاهاً لا يتسع له جاه ، وسلطاناً لا يَعلُو عليه سلطان ، وأنه تقلَّد أرفعَ مناصب الدولة وتولى أعلى مراكزها ! . . ووالله ما عرفنا له جاهاً يدانى جاهَ صاحب الدولة عزت باشا العابد ، ولا سمعنا بأن له كلمةً نافذةً إلاَّ عند الصدر الأعظم ، والسيد أبى الهدى الصيَّادى ، وتحسين باشا باشكاتب المابين ، وأمثال هؤلاء . ولا علمنا أنه تقلَّد من مناصب الدولة إلاَّ أنه كان رئيساً لمحكمة التمييز ، فمستشاراً لوزارة المعارف ، فعضواً فى مجلس شُورى الدولة ، فسفيراً للدولة فى برلين . وأى شىء هذا كله ؟ فاذا لم يَرْعو هذا الدعىُّ عن تبجُّحه ، فسيكون لنا معه شأنٌ يُخزيه ، إذ يَندَم ولات حين مندم » !!!

وتخرج بعد يومين جريدة صاحبنا (السياسىّ) فاذا فيها حملة شعواء على صاحبه المنجِّم من الطِّراز الآتى : « إن جريدتنا تترفَّع عن مجاراة رجل منجِّم فلكىّ فى بَذاءته وقلة حيائه . ولنفرض أننا لم نتقلّد من مناصب الدولة إلاَّ ما ذكر ، فما الذى تقلَّده هو من المناصب ؟ نظن أنه تقلّد علمَ الفلك ، وصفة دوران السيارات ، ومجال

الكواكب، واستخراج الغيوب، وقراءة الكفوف، ومداواة الأمراض المستعصية بالطرق الشائنة. ونحن نمسك القلم الآن، ونُنذره عدمَ العودة إلى هذه الوقاحات، وإلاّ فنحن غير مسئولين عن كشف مخبآته، وإظهار سَوءاته، ومن أنذر فقد أعذر. والسلام» !!!

وتخرج صحيفة (المنجِّم) على رأس الأسبوع فإذا فيهـا: «يهدِّدنا صاحب جريدة... بكشف مخبآتنا، فليكشفها فنحن لا نخشى أمثاله. ولكن ليقل لنا هو عما يَخدع به الأغرارَ والمفتونين ؟ يدّعى هذا الدعىُّ أنه يأتى للناس برُتَب الدولة وأوسمتها، ما شاء الله !! فهل يستطيع أن يأتى بأكثر من رتبة (بالا)، أو (روملى بيكلر بيك)، أو المجيدى الأول، أو العثمانى الثانى. وأىُّ شىءكل هذا ؟ وفى استطاعة مثل ناظم باشا أو عزت العابد باشا، أو باشكاتب المابين، أو حتى السيد أبى الهدى أن يأتى بمثله. فإن كان يدَّعى فى دار السعادة جاهاً حقاً، فليَجِىء لأىٍّ كان برتبة الوزارة أو بنيشان الامتياز المرصَّع. ونحن ننصح لكل من يستهويهم هذا الرجلُ من طلاب هذين الإنعامين ألاّ يصدقوه. وقد أديتُ حق النصيحة. «إنْ أُرِيدُ إلاَّ الإِصْلاَحَ ما اسْتَطَعْتُ، وما تَوْفِيقِى إلاَّ بالله» !!!

وتخرج صحيفة صاحبنا (السياسىِّ) بعد يومين، فإذا هو لم يُبقِ لصاحبه من فنون الشتم ولم يَذَر: «مكانَكَ أيها الرجل، وإلاّ بلغنا عنك النيابة. فما زلت تَغُشّ المساكين وتَخدعهم: تدعى أنك تُبرِئ من العمَى. فهل لك أن تدلنا على حادثة واحدة أبرأت فيها أكمهَ واحداً[1] ؟ وتقول إنك تُخرج العفاريت. سلمنا ! فهل تستطيع أن تسخِّر الجنّ أيضاً ؟ وإذا سخَّرتهم، فهل تَقدِر على التصرُّف فى سلطان الجنّ الأزرق ؟ فان أجبت بالإيجاب، فأنت غاشٌّ كذَّاب ! ثم تدعى أنك تَستخرج الكنوز. فخبِّرنا كم كَنزاً فتحته فى هذا الشهر ؟ إن زعمت

(١) الأكمه: من ولد أعمى

أنها أكثرُ من أربعة ، فأنت والله مزوِّر نصاب . ثم هل تَجرُؤ أن تصرح بأنك فتحت كَنزاً لأحد قبل أن تُبهظه بنفقات البخور ، وأجور من تستخدمهم من أعوانك فى سهر الليالى للقراءة والسِّحر ، وفى مراقبة النجوم ، لمعرفة الوقت المعلوم . وقد يَقتضِى ذلك الخمسين والستين جنيهاً . تَنحِتونها من الرجل نَحْتاً ، وتأكلونها حراماً وسُحتاً ؟ ؟

ثم لا تستحى من أن تعالج أهل الصبابة والهوى ، وتُبرد ما فى صدورهم من نيران الحب والجوَى ، ولا تَستخذِى من أن تَكتب الرُّقَى لمهجورهم ، فما هى إلاّ لمحة حتى يذِلّ بين يديه من أَرهقه بطول الصدِّ والدَّلال، فان لم يُسعِده سِحرُك بشخصه أسعده بطيف الخيال !

أين الشرف ؟ أين المرُوءة ؟ أين الدِّين يا حماةَ الدِّين؟ وكيف تسكتون عن هذا الخَناس الوَسواس ، الذى يوسوس فى صدور الناس ، من الجِنَّة والناس ؟

فهنيئاً لك وحدَك يا رجل ما أنت فيه من ذِلة وهوان ، ولن تكون عاقبةُ فتنتك للعالَمين إلا الهلاكُ والخسران » ! اه

وهنيئاً بعدُ هذا للرجلين كليهما بمن يَحتَشِد إليهما من طلاب الغنى والجاه والعافية من السَّقَم ، والتقلّب عفواً فى جميع وجوه النعم!

وهل تستطيع أن تقطع عن الأرض أسبابَ (النَّصْب) والاحتيال ، إلاَّ إذا أَخليت وجهها من المشعوَذين وسَواد الأغْفال ؟ ؟

ولن يستطيع العالَمَ أن يبلغ هذا ولو بعد حين ، وسيبقى أبداً (رزق الهبل على المجانين) !!!

ولع ! . . .

لبعض الناس ولعٌ غريب بهتاف الصحف بهم وترديدها لأسمائهم ، فهم دائبو الجهد فى اختلاق المناسبات مهما تَفُهت ، ليَحملوا عليها أسماءهم إلى الجرائد . وإنى لأعرف رجلاً أتلف ثروة ضخمة فى سبيل بسط الثناء عليه ، وترديد اسمه على متون الصحف ، كما أعرف موظَّفينَ لا شأن لمناصبهم فى الحكومة ولا خَطَر ، لقد يسافر أحدهم ، فى غير حاجة ، لتنشر له الصحفُ خبر عودته (بالسلامة) ، وأنه : « ذهب توًّا إلى مكتبه بوزارة (كذا) أو بمصلحة (كذا) . » تشبهاً بما يُكتب عن كبار الحكام ! . . والله يعلم أنه ما ذهب (توًّا) إلاَّ إلى إدارات الجرائد لتزفَّ إلى جمهرة القراء بشرى عودته الميمونة ! .

وأغرب ما رأيت فى هذا الباب أننى مضيت فى إحدى الليالى لزيارة صديق لى يتولى رياسة التحرير فى جريدة كبيرة ، فلم أجده ، فاستوَيت إلى مكتبه لأُثبت له رُقعة بحضورى لزيارته ، وبثّ الأشواق التى جرت العادة بينهما ، والله يعلَم إن كانت مما يَطوى القلب أو مما يَنشر اللسان ! وإذا رجل فى حدود الأربعين يلبس قَباء أرسل عليه معطفاً استرسل إلى كعبه ، وعلى رأسه طربوش متواضع جداً . وكان جاء لينشر فى الجريدة إعلاناً يتعلق (بدائرة) مولاه . فلما فرَغ من شأنه التمس غُرفة رئيس التحرير فدلُّوه عليها . فأقبل علىّ فى خشوع وشدة تظرُّف ، وجرى بيننا ، بحضرة بعض المحرِّرين ، هذا الحديث :

— السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ! .

— وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته ، وأزكى تحياته ! .

— محسوبك فلان ناظر زراعة سعادة فلان باشا .

— تشرّفنا !

— بَسّ من فضلك . . .

— من فضلى ماذا ؟

— من فضلك يَعنى . . .

— من فضلك أنت ، ماذا تريد من فضلى ؟

— بسّ تسمح (تنشرنى) فى الجرنال !

— أنشرك بأى مناسبة ؟

— يعنى تقول فلان !

— أقول فلان ماله ؟

— يعنى تكتب فلان !

— يا سيدى ، فلان هذا مبتَدأ ، وكل مبتَدإ لا بدّ له من خبر . فنحن إذ نذكر فلاناً ، لا بد أن تقول شيئاً جرى له أو جرى عليه . فكيف تحبّ أن تقول ؟

— تقول : فلان جاء عندنا فى الإدارة .

— كل يوم يختلف إلى الإدارة خمسمائة رجل ، فلا ينشر عن واحد منهم فى الجريدة كلمة واحدة !

— أُمَّال إيه الطريقة علشان أنْكِتِب ؟

— ذِكر الناس فى الصحف إنما يكون لمناسبة كوقوع حادث ، أو القيام بعمل عامّ أو خاصّ له بعض الشأن ، كإقامة حفلة عُرس ، أو مأتم ، لا سمح الله . ونحو ذلك . فهل عزمت على الزواج ؟

— أنا متزوج .

— ألَك ولدٌ أقدمت على تزويجه فننشر لك نبأ عُرسه أو خِطبته ؟

— ولدى ما يزال صغيراً .

— إذن فاختِنه واحتفل بختانه .

— سبق أن ختنته من مدة طويلة !

— لم يبق يا صاحبى إلاَّ أن تمرَض وتنشر خبر مرضك و إبلالك !

— وحياة النبى يا بيه إن (أشْيِتِى عيَّانه) !

— فما شَـكاتُك ؟

— يعنى ما فيش مُرُوَّة زىّ زمان !

— إنما أريد المرضَ الذى يُلزم الفراش، ويَستدعِى الطبيب ، ويبعث القلَق فى الأهل والأصدقاء !

— طيّب وأعمل ازّاى فى الحكاية دى . . . ؟ (وقد أطلقها فى قلق وحيرة وانكسار) !

— قلتَ لى كيف تصنع؟ وإنى لأدلّك على السبيل: ما عليك إلاَّ أن تَمضى من هنا قُدُماً إلى البلد ، فتتقدم إلى أهلك بأن يُحمُوا لك الفرن ، فتظل قاعداً بأزائه حتى تتفصّد عَرقاً ، ثم تستحمّ من فورك بماء بارد . ونحن ولله الحمد فى صميم الشتاء ، فتأخذك الحُمَّى يومين أو ثلاثة ، وتبرأ بعدها فنسوق للقراء خبر مرضك ، ونزف إليهم البشرى بشفائك !

فبسَط الرجل كلتا يديه ، وأدار وجهه إلى السماء ، وأقبل يدعو جاهداً : (الله يخليك ! الله يعمر بيتك) !

وانطلق إلى حيث يخرب بيته هو ! .

شفاه الله إن كان حياً ، ورحمه الله إن كان فى الأموات ، وغفر لى فى الحالين .

والولعُ بالذِّكر فى الصحف فنون . . . ! .

عبقـــرية !

جلستُ اليومَ إلى جماعة من أصحابى ومعهم (فلان) من رجال التربية والتعليم . وجرى الحديثُ فى أمثَل الطرُق لتربية الأولاد وإعدادهم للحياة . وراح كلٌّ منهم يُدْلى برأيه وتجاريبه فى هـذا الباب ، وما أخذ به بنيه الكِبار ، وما أضمره لطِفْله الصِّغار . فقلت ، بنوبتى : لقد ذقتُ الأمرَّين فى تعليم الأولاد ، حتى عزمتُ ، إذا وصَل الله فى أجَلى وأجَل محمد أصغر أولادى ، حتى يَبلغ السادسةَ ، أن أُسلِكه فى كلية (فـكتوريا) برمل الإسكندرية . فلقد نَصَح لى بذلك من لا أشك فى صدق تجاربهم . فابتدرنى هذا المربِّى الفاضلُ بنصيحة غالية حقًّا ، نافعة حقًّا . وهى أن أُلحِق طفلى فى تلك الكلية بالقِسم الداخلىّ ! . .

ولقد صكّت هـذه (النصيحة) جهازَ عصبى ؛ على أننى كتمت عَجبى ، وتظاهرت بالتطامن ، وتسريح الفكر الوادع ، وقلت له : لقد أشَرتَ يا سيدى بالرأى ، فإننى إذا لم أفعل وجد الغلامُ بعضَ المشَقة فى الشخوص إلى الإسكندرية سُحرةَ كل يوم ، والعودة منها قَرَابة منتصف الليل ! . . فأقبلَ علىّ فى ابتسامة الذاهب بجَودة رأيه ، الشاعر بتقدير الناس له وقال : (مش كده والاّ إيه ؟) !!!

فرحت أَزُفّ إليه أبلغ الهناء ، على تسعُّر هذا الذكاء . فتفضل بقبول الشكر ، فى شىء من التواضع . . . ولا فخر ! !

مفتش عموم . . . !

اعترضنى اليومَ فى مَقفلى من الديوان شابٌ أنيق المَلبس ، لعله طالبٌ فى إحدى المدارس العالية ، أو فى السنين الأخيرة من التعليم الثانوى . وقال لى : (يا عمّ) كم الساعةُ الآن ؟ فطالعت ساعتى وقلت له : الساعة ٢ وسبع دقائق . فحَسَر كُمَّه الأيسر، فانكشف عن ساعة يد ذهبية ، ونظر فيها وقال : لا ! لا ! ساعتك مؤخّرة أربع دقائق ! ثم خَلَّى بينى وبين الطريق ، وانطلق لطيته !

*
* *

وبعد أن أَجلْت ظنى فى شأنه ، أدركت أنه ربما كان . . . . « مفتش عموم الساعات » !

الغـــــرام المجانى !

هناك فى ميادين العتبة الخضراء ، والخازندار ، والسيّدة زينب ، وباب الخلق ، وغيرها من المواطن التى يَكثُر فيها الصاعدون إلى مركبات الترام ، والهابطون منها . فى هذه المواطن ترى طائفةً من الشّبان ماثلين دائماً ، وقد رَجّل كلٌّ منهم شَعرَه ، وأمال طربوشه ، وحمَّر شفتيه ، وصَقَل عارضيه وحِذاءه ، وتأنَّق فى سائر ثيابه ، ودلّى طَرَف مِنديل حريرىّ على نَهده الأيسر ، وراح يَتمشّى على الطِّوار (الرصيف) فى لين وتكسُّر ، حتى ما تَدرى حقيقةَ شأنه : أهو فتى متأنِّث ، أم آنسة مُتفتّية ؟ ! ولا يزال ذلك شأنه حتى يُقبل القِطار ، فإذا انحدرَت منه سيدة أو فتاة عذراء عليها مَسْحة من جمال ، أسرع فتَراءى لها وهو يصُفّ خيوط « زرّه » ، ويُسوّى شعرَ حاجبيه ! ويضبط ربطةَ عُنقه . وتأخذ السيدةُ أو الفتاةُ سَمْتَها ، فيَمشى وراءها ، فإذا تَيامنَتْ تيامَن ، وإذا تَياسَرَتْ تياسر خلفَها ، حتى لتحسبه من بعض ظِلّها . وهو يتمتم بكلام غير واضحٍ ولا مفهوم ، حتى إذا أمِنَ غفلةَ العيون ، أسرع حتى حاذاها وعرض عليها نُزهةً فى الجزيرة ، أو حدائق القبة مثلاً ، فلا يكون شأنُ الحرائر دائماً مع هؤلاء العشّاق إلا السكوت المطلق ، أو سوء الردّ بالسبّ والشّتم . ومع ذلك فهيهات أن يَنثنى (صاحبنا) أو يَتداخله شىء من الحياء أو القنوط . بل ما يزال على ذلك حتى يُبلِغها الدارَ التى تَطلبها ، ولا يرجع إلا أن تَصُكّ مصراعَ الباب فى وجهه صَكّةً يُسمَع لها دوىٌّ كهدّة الهدم . ويعود إلى (الموقف) الذى اختاره لهواه ، وتَعاهَدَه لغزَله ، وقَصْد صبابته ، وهكذا مايزال هذا شأنه وديدنه من الساعة الثامنة صباحاً إلى ما بعد الساعة التاسعة مَساءً !

ولعله ، لكيلا يُضيع ساعةَ الهجير فى الانقلاب إلى البيت للغَداء ، إن كان لمثل هذا بيت ، يَدُسّ من الصَّباح الباكر غَداءه فى جيبه ، فيجرّد (للهوى) عامّةَ نهاره وليله !

*
* *

وإنك لو فَتّشتَ نفوسَ هؤلاء وامتحنتَ عقليّاتهم ، لخرج لك من بحثِك شىءٌ عجيب : ذلك أنك تَحسب أنهم يؤمنون إيمانًا وثيقًا ، ويعتقدون اعتقاداً راسخًا أن جميعَ نساء القطر المصرى وساكناته مباحاتٌ مبذولاتٌ الأعراض لهم، اللّهم إلا البَغَايا فقط ، فهؤلياء وحدَهن العفيفاتُ الشريفاتُ المصونات ، اللائى ينبغى إذا طَلَعن عليهم أن يُطأطِئوا رؤوسَهم ، ويَغضُّوا أبصارَهم ، ويَعقِدوا ألسنتَهم !

وذلك الظنُّ يَخرج لك من أنك تراهم لا يتبعون إلا مُحتشِمةً فى طريقها ، متوقّرة لا تَتثنّى ولا تَتخلّع ، ولا تُرسل على النّاس نظراً حاداً . أما المائعةُ المترجِّحةُ فى مِشيتها ، المفتّنةُ فى إبداء زينتها ، الدائمةُ التلفُّت إلى يمينها ويسارها ، المثبتةُ نظرَها فى كلٍّ من لقِيَها ، فهذه يولونها ظهورَهم ، لأنها لا مَطمَع لهم فيها ولا أمل ! !

والواقع أنك يا سيدى فيما استنتجتَ من شأن هؤلاء جِدُّ مخطىء ، ولو أردتَ أن تقَع من أمرهم على الصَّواب ، فاعمِد إلى أىٍّ واحدٍ منهم ، وفتّش بأيّة وسيلة جيوبَه ، فلن تظفَر فيها إلا بثلاثة قروش (تعريفة) على الأكثر ، وصورة فتاة رائعة الجمال استلّها من علبة دخان ، وكتاب خَطّه بيده لنفسه ، على لسان فتاة تكاشفه بهواها ، وتصِف ما لحقها عليه من الولَه ، (وكان الله بالسر عليما ! !) . وهذا الخطاب وتلك الصورة هما كلُّ أداته وعُدّته فى مُهِمّه ، وهما كلُّ وسيلته فى الإعلان عن نفسه ، وأنه ملتقَى الأنظار ، وقِبلة القلوب الولْهَى عندَ أصحابه المغفلين ! !

لهذا لا تراه يتقدّم إلى بَغِيّ ، أو نصف بَغِيّ ، لأنها ستجيبه إلى طلبه ، وهو يعلم أنه صِفْر الكفّ خالى الوِفاض ! ولو قد تَشجّعت سيدةٌ ممن يَتبعهن ، ويضايق أنفاسَهن ، فسألتْه أن يَجيء بمركبة أو بسيارة (تكس) ، ليخرُجا للنزهة التى يدعو إليها ويُلحّ فيها ، لرأيته قد دار على كعبه وطار على جناحىْ نعامة !

*
* *

ولهؤلاء الغِلمان صَفاقةٌ عجيبةٌ ، وفتنة بالنفس مدهشة . وهذا شيء تَشهَده كلّ يوم فى شوارع القاهرة وميادينها . فإن الرجل المحترم لَيكون فى مركبته أو سيارته مع زوجته أو أخته أو بنته ، وتقف بهما فى بعض الطريق لأيّ عارض ، فلا يستحى الغُلامُ من هؤلاء أن يقف فى مقابلة السيدة ، ويحدّ فيها عيناً ما يَختلِج لها جَفن إلّا بالغَمَزات ، وإظهار التَّصابى ، وترى دعوتَه واضحةً صريحة ، بحركاته الكثيرة المضحكه ، إلى أن تَستأذن السيّدةُ أو الفتاةُ زوجَها أو أخاها أو أباها ، فى النزول إلى « حضرته » لتروِى غُلّتها من غرامها بهذا العاشق (السَّرِّيح) ! !

ولقد شَهِدت بنفسى فى هذا الباب حادثاً ظريفاً : ذلك أننى ركبتُ الترامَ يوماً من المحطة التى أمام المدرسة السَّنية ، وصَعِدتْ سيدةٌ جميلةٌ واضحةُ النُّبْل والغنى والحِشمة ، وأخذَت مجلسَها فى المكان المحرَّر للسيدات . وما إن رآها (الكمسارى) حتى لجأ إلى الوقوف بباب (الحريم) ، وجعل يَفتل شاربَه ، وتارةً يُميل طربوشَه ، وأخرى يُسوِّى رداءه الأصفر (الرسمى) ، وحيناً يثبِّت (النمرة) النحاسية فى موضعها من عنقه . إذ عيناه وحاجباه أثناء ذلك لا تَفتُر عن التَّلعُّب وشدة التحرُّك والاختلاج !

ولا يترك هذا الموقفَ ولا يَتحوّل عنه إلاَّ إذا وقف القِطار . وما هو إلا أن ينفخ فى زَمّارته حتى يَثِب إلى موقفه ، فيُصلح من ثيابه ما كَرَّشَت منها حركةُ

النزول والصعود ، ثم يعود إلى شأنه مع تلك السيدة . وظَلّ على هذا لا (يَصرف لراكب تذكرة) ، ولا يبالى من هَبَط ومن صَعِد ، حتى بلغ القِطار مَيدانَ الأزهار . فثار لهذه الحال ثائر بعض الركاب ، وإن سُرَّ آخرون بما وفر عليهم من قروشهم . فوثب إليه من بين الركب رجلٌ غيورٌ من الظرفاء ، وصكّه على صُدغه بجمع يده ، وقال له : يا ابن ال . . . هَبْ هذه السيدةَ وقعت فى شَرَك غرامك ، وسألتك النزولَ معها لنزهة تقضيان فيها حقوقَ الغرام ! فلمن تدفع الآن هذا الخُرْج المعلّق فى رقبتك بحمائله ؟ وأىُّ فَم يقوم مقام فمك لهذه الزّمّارة التى فى يدك ؟ ! فكان اغتباطٌ وكان ضَحِك !

*
* *

فإذا بحثتَ بعد ذلك عما يَبعث هؤلاء الفتيانَ على كل هذا ، مع ما فيه من كدٍّ لا فائدةَ فيه ، وعَناء لا رجاء وراءه ، إلى ما فيه من الهوان وشدّة الابتذال ، والتعرُّض للأذَى بالشّتم ، أو الضّرب ، أو السِّجن ، فلا ترى الأمرَ كلَّه يَعدو أن يكون هوايةً (غيّه) حمقاء لا أكثر ولا أقلّ . أو كما قال المثل العامى : (اليد البطّالة نجسة) .

وصدق من قال : (أصحاب العقول فى راحة) ! !

بطـــولة ! . . .*

— ١ —

وإنها عندى ، لَبُطولة حقٌّ لا تقل قَدراً ولا خطراً عن أيَّة بطولة فى أى سبيل آخر . وإن صاحبها (البطل) لحَقيقٌ ، من نفسه ، بالزَّهو والتَّايُه ، وإنه لحقيقٌ من الناس بأجلِّ الاعظام وأبعد الإعجاب !

قلت لك إنها بطولة (عندى) لأنها كذلك فى الواقع . ولك أنت أن تُخرجها عن دائرة البطولة . ولك أن تضعَها من الخِلال حيث شئت . ولك أن تُجرى عليها ما تشاء من الأَحكام . ولكن الذى ليس لك ، والذى لا آذنُ لك به أن تَدخل بينى وبين رأيى ومعتَقَدى ، فتُضيف إلىَّ ما تشاء ، وتَنفى عنى ما تشاء . وأظن أن هـذا أقسَى ما عرَفت طبائعُ الاستبداد من العَصْف بحرِّية الآراء !

لك أن تقول إن مذهبى فى هذا فاسد ، وإن رأيى فيـه قبيح ، وإن سوء التفكير أزلقنى فى الأمر إلى الضَّلالة . أما أن تَزعُم أن ذلك ليس من رأيى ، وأننى أُسِرّ الخلافَ له فى أطواء نفسى ، فذلك ما لا أحسبه مما كان فى الزمان ، ولا أحسبه مما يكون . فليس يعلم ما تُسِرّ القلوبُ إلاّ علامُ الغيوب !

وهؤلاء (الأبطالُ) أُحبّهم وأُجلّهم ، وتكاد تَتعلّق نفسى من شدّة الإعجاب بهم كلّما رأيتُهم ، وسمح لى الزمان بالجلوس إليهم ، وإن الزمان بمثل هؤلاء لجِدُّ بخيل !

---

* نشرت فى جريدة « المصور » فى يناير سنة ١٩٣٥

هؤلاء هم أبطال (الحديث) . وللحديث ، لو عرفتَ ، أبطال ، كما للحروب أبطالُ ، وللسياسة أبطال ، وللآراء فى العلم والأدب والاجتماع أبطال .

على أن هؤلاء (الأبطال) وإن اشتَعَبوا مذاهبَ البطولة ، وتفرّقَت عبقرياتهم فى مناحيها ، فإنهُ تجمعهم طائفةٌ من الخِلال الكريمة ، ما تكاد ترى لأحد منهم فضلاً فيها على أحد . ومن هذه الخِلال فرطُ الأدب ، وشدّةُ التواضع ، ولينُ الجانب ومنها حسنُ التوافى للناس ، والإقبالُ على مجالستهم حيث كانوا ومؤانستهم ، والتسلية بفاخر الحديث عنهم ، ولو لم تجْرِ الصداقة بينهم وبينهم على أىّ عِرْق ، فبِحسْبهم من كل هذا الكرم (المعرفةُ) المجرّدةُ والسلام !

ومن هذه الخِلال الظّرف ، فإن أعوَز ففى التظرُّف المتسَع . ولقد يكون من هذا التظرُّف لفتُ الغافل عن (الحديث) ، وتنبيهُ المشغول عنه بشأن آخر . ولقد يكون هذا اللَّفت والتنبيه بالكلام اللَّيِّن من نحو : (واخد بالك يا سيدى !) و (خليك معنا من فضلك !) . ولقد يكون باللّـكزة الرّفيقة فى الخاصرة أو فى ثنايا الضلوع ! . وكثيراً ما يمتدّ هذا الكرم إلى جَهد النفس فى إنشاط المتثاقل ، وإضحاك العابس ، وإدخال العَجَب على المتغافل !

وإن مدينةً فى مصر ، وإن حاضرةً من حواضرها ، بل إن قريةً من صميم ريفها ، لا تخلو من بطل من هؤلاء أو من أبطال . وأنت خبيرٌ بأن البُطولة من المقُولات بالتشكيك ، على تعبير أصحاب المنطق . فهى على ذلك مما يَتفاوت فى الناس كثرةً وقلة ، وقوةً وضعفاً . فلو قدرت النهاية العظمى بمائة درجة مثلاً ، فانك واجدٌ من غير شك من قد أَحرَزها وأصابها ، كما تجد من تقاصر حظه إلى الثمانين ، ومن تَدَلَّى إلى الستين ، ومن استرخَى وهو دونَ العشرين . على أنك لا تستطيع بأى حال ، إلا أن تَسلُكه فى جماعة الأبطال !

ومهما يكن من شيء ، فانك تستطيع أن تقسم ، على العموم ، هؤلاء (الأبطال) إلى قسمين إخصائيِّين ومُطلَقين . أما الإخصائيون فقد توفّر كلٌّ منهم على فنّ من فنون هذه البطولة . وترى من بين هؤلاء الإخصائيين من برَعوا فى بطولة الفروسة وقِراع الأهوال ، فى البحار والجبال والأدغال ، وصِراع كل صائل من السباع والجوارح والأغوال !

ومنهم الإخصائىُّ فى فنّ الغرام ، واصطياد كل شاردة من الآرام . وما يمنعه ؟ وله من جفنيه أشراك ، هيهات ما لآبدة منها فَكاك . وإن له من لحظه لما يَستنزِل إليه الأراوِى العُصْم ، من صَياصى الجبال الشمّ . فاذا جاءك أن غادة فى الأرض قد تَعذَّرَت عليه فى خِدْر ، أو اعتصمَت دونَه وراء سِتر ، فانك عنده حقيقٌ بالرحمة والرِّثاء ، لما تجهل من حقائق أحوال النساء .

وما له يَجهَد فى طلبهن ويَسعَى ، وما له يَكِدّ فى استدراجهن ويَشقَى ، وها هن أولياء يَعترضنه كلّ يوم مواكب ، ويَتهاوَين بينَ يديه كواكب ؟ ولو كُتب لك يوماً أن تَشهَد مَورِد بريده فى الصباح وفى المساء ، لَتعاظَمَك ما ترى من أحمال ثقال ، وقد اجتمعت من الكتب الخِفاف . وكلها موشّى الحوافى منَمنَم الأطراف . وإنْ منها إلاّ ما يَضُوع شَذاه ، حتى لَيكاد يُسكِر بطيب رَيّاه : هذه تخطب وُدَّه ، وهذه تشكو قِلاه وصَدّه . وتلك تَحكِى ما صَنَع الهوَى ، وأخرى تصف ما برّحت بها بُرَح الجوَى . وخامسة لها عند الغرام مظلمة ، فهى لا تَسأل إلا العدلَ والمرحمة . وسادسة قد عَزّ عليها الوصال ، وشَفَّها طولُ التجنِّى والدَّلال ، فأضحت لا تطمع فى أكثر من نظرة إلى ذلك الجمال !!!

فاذا ما راجعتَ هــذا الجبَّار العاتى ، وسألتَه شيئاً من الرقة لهؤلياء الوالهات المتدلِّهات ، والعَطف عليهنّ ، ولو من قبيل (جبر الخواطر !) ، وفيهن أغلى الدرر ،

من بنات أعظم الأُسَر ، ومن لم يُقلّبن الأعطاف إلاّ فى النعيم ، ولم يلابسن فى أسباب العيش إلا كلّ جميل وثمين وكريم . وكلهن ، بحمد الله ، أحلَى من البدر ، وأشهَى إلى النفس من ليلة القدْر :

لقد تراجعه فى هذا فسَرعان ما تثور ثوائرُه ، وتقسو عليك بوادرُه . فيلقاكَ فى هِياجه ، بأشد حِدَّته وأحدِّ احتجاجه . فيقول لك مثلا : حقاً لقد قست القلوب وتحجرت ، حتى أصبحَت الرحمة لا تجد إليها سبيلاً ! . وهل جاءكَ يا سيدى أننى من بعض الحجارة أو من بعض الحديد ؟ . وإن الحجارة لَتتفتّت وإن الحديد لَيذوب ! وكيف حيلتى فى كل هذه الجيوش التى لا يَلحَقها عدد ، ولا ينقطع لها على الدهر مَدَد ؟ وهل قلتُ لهن أحببن وتولّهْن ، واعشقن وتدلّهْن ؟ . وتُرَى هل خَلاَ وجه الأرض من الرجال ، فلم يبق غير «أخيك» هدَفاً لصَبابة ربّات الحِجَال ؟

وهنا أردتَ ، يا سيدى ، أم لم ترد ، تحس عاطفةً قويةً نحو هذا (البطل) ، هى عاطفة الرحمة والإشفاق . حتى إنك لَتفكر ، إن كنت من أهل السلطان أو من المتصلين بأصحاب السلطان ، فى السَّعى لدى وزارة الأشغال لتُدخل فى مشروعات الرى والصرف الجديدة ، إنشاء قَدْر كبير من التُّرَع والمصارف ، ليتحوّل إليها جانبٌ من هذا الغرام الطاغى ، وإلاّ ساءت الحال ، وحق على البلاد الوبال !

ولقد تُبادِى صاحبَك بالاستراحة إلى عُذره ، فسَرعان ما يَسْجُو طَرفُه ، وتَشيع حمرةُ الخجل فى وجهه ، ويجيبك فى لهجة تحسُّها مَزْجاً من الفرح والشعور بالانتصار : (مش كده والاّ إيه ؟) . كان الله فى عون هذا (البطل) المسكين ، وأمدَّه من حوله وطوله بما يستطيع معه النهوضَ بأعبائه الجسام ! !

ومن هؤلاء (الأبطال) الإخصائيون أيضاً فى الجِياد ، وفى حذق فنّ الجياد ، وفى اقتناء كرائم الجياد ، مما يفوق فى صفته ما خلا من أخبار عاد ، وما لم يَركب

مثلَه عنترةُ بن شدَّاد ، وما لم تَعهد مثلَه العرب والأَعجام ، وما لم يَتعلَّق بوصفه شِعرُ البحتريّ ولا أبو تمام ! . وإن عنده من كرائم الجياد لما يَلحَق البرق إذا برق ، ويسبِق السِّلك إذا خَفق ! !

* * *

ومنهم كذلك أبطال الطعام . ولهؤلاء من الخبرة بالطعام ، وقوة تذوُّقه ، وعظم تجويده ، والتأنُّق فيه ، وحسن تخيُّره ، وانتقاء أطايبه ، ما لا يَنفُذ إلى مكنون سرّه ، ولا يُحيط بظاهر أمره ، إلاَّ من رُزِق الموهبة . فلفنّ الطعام ، لو تعلمون ، مواهب لقد ترفع أصحابَها إلى جبابرة الأبطال !

ولربما أقبل عليك (البطل) من هؤلاء يسألك ويمتحنك ، ويدلّك على قدرك فى هذا ، أو على الصحيح ليبعَث فيك الحسرة على ما فاتك من أسعد حظوظ الحياة . وراح يُلقِى عليك درساً سابغاً فيما يَحسُن أن يزيد بَقْله ، وما يَجمُل أن يَكثُر زيته ويَقلّ خلّه ، وما يُصهرَ فى الشمس قبل قَلْيه ، وما يُطمَر فى (الدّمس) قبل شيّه ، وما يُترَك للندَى بعد غَلْيِه ، وما يُحشَى زبيباً ولوزاً ، وما ترصَّع حواشيه صنوبراً وجوزاً . وما يُسكمَّخ سكرُه فى بصلة ، وما يُخلَط عسلُه بخردله . الخ . ثم جعل يقصّ عليك ما أصاب فى غَدَائه ، فتلا عليك ، بظهر الغيب ، قائمةً طويلةً لو كُتبَت لعَانَى النظرُ فيها سَفَراً طويلاً . ولو تهيأ لجرَّاح أن يَبقُر بطنَه لساعته ، لكشف المِبضَع عن أفخر مَعرِضٍ لأفخر الأطعمة فى العالم !

* * *

وهناك بطولات وبطولات فى غير هاتيك الفنون .

ولقد طال هذا الحديث ، فحسبنا هذا القدرُ اليوم ، على أن نُتم الحديث فى (الأبطال) المطلَقين . وفى إيراد صَدْر من نوادر هؤلاء جميعاً ، وذلك فى العدد القادم إذا أحيانى الله ! .

بطـولة ! . . .*

— ٢ —

رأيتَ فى العدد الماضى من (المصوّر) بعضَ صِفَة سادتنا الإخصائيين من هؤلاء (الأبطال) . وعرَفتَ كذلك بعضَ الفروع التى تَخصَّص فيها كلٌّ منهم . والآنَ نحدثك عن (الأَبطال) المطلَقين أو (العموميين) . وهؤلاء الذين لا تَتوفَّر بطولتُهم على فنّ ، ولا تقتصِر على فرع ، ولا تَنتهِى من أسباب الدنيا عند حدّ . فهى تَتناول كلَّ شىء ، ولا يَنشزُ عنها فى جميع مظاهر الحياة شىء !

ولعلك رأيتَ أو سمعتَ بمحل (سلفريدج) مثلا فى لندرة . ففيه مكتبٌ للسِّياحة ، وفيه مكان لبَيع جميع صحف العالم . وفيه مطعم فاخر ، وبَهو (صالة) لتناول الشاى ، ومكان للمطالعة ، وآخر لبيع جميع المأكولات . ومخزن كبير لبيع الأَثاث القديم ، و (صالونات) فاخرة للحلاقة ، للرجال وللسيدات . وغير ذلك كثير . فاذا أَعوزَكَ شىءٌ مما ليس عنده ، وافاك به عَجِلاً ولو كان فى أقصى أطراف المعمور . ومِثل هذا المحل فى بلاد الغرب كثير !

أما أنا فلم أَشخَص طَوَال حياتى إلى أوربا ، ولا إلى أمريكا ، ولا أُستراليا ، ولم أشهَد حتى بيت المقدس ، ولا الصخرة المقدسة ، ولا المبكَى الشريف الذى تدور حوله كل هذه المعارك بين المسلمين و بين من صَبَّهم وَعدُ بلفور عليهم من الصهيونيين !

ولكن أرجوك ، يا سيدى القارىء ، أن تصدِّقنى إذا زعمتُ لك أننى سافرت إلى بنها ، وأعنى بنها العسل ، وكان هذا السفرُ من نحو ثلاثين سنةً خَلَت . وكُتِب

---

* نشرت فى « المصور » فى فبراير سنة ١٩٣٥

لى يومئذ أن أشهَد فيها متْجَر المرحوم ابراهيم باشا عبده (سرّ) تجارها يومئذ . فاذا هو أشبهُ بسوق عظيمة رُفِعَت من بين خاناتها ودكاكينها الحدودُ والحوائل . ومن هذا المتجر تشترى الحرير ، و «الباتستا» ، والبياض . ومنه تشترى الفحم ، والجير ، والأسمنت . ومنه تشترى المصوغات الذهبيّة والفِضيّة ، كما تشترى الحديد والخشب والطوب الأحمر !

ثم إنك لواجدٌ فيه حاجتَك من الجوارب و (الفانلات) ، والقُفّازات ، كما أنت واجدٌ فيه مَطالبك من النظارات ، وساعات الجيوب ، وساعات الحائط أيضاً ! . ولا تنس السُرُر وأصناف الأثاث « الموبليا » وأُصُص « قصارى » الزهور !

ثم هناك تجد آنية النُّحاس على اختلاف أشكالها وأحجامها ، كما تجد أصناف العطارة من أولهـا إلى آخرها . وهناك السَّمنُ والعسل ، وهناك الزّيتُ والخلُّ والبَصل ، وهناك كلُّ ما شئت من أدوات المائدة ، وفراجين (فرش) الحلاقة ، والحَلوَى ، و (الشربات) ، و (الكازوزة) والطرابيش ، والأحذية ، وحُلَل (بدل) السيدات والرجال والأولاد ! وهناك الورق والأقلام والمحابر والمفكرات والكراسات والدفاتر

هناك كلُّ شيء . ولا شيء إلا وهو هناك !

وتسألنى : أ كان هذا الضَّرب من المتاجر فى بلادنا مصر ؟

وأجيبك : نعم ! وكان فى بنها ! وكان ، كما زَعمتُ لك ، من نحو الثلاثين من الأعوام .

وموضعُ الشَّاهد فى هذا أن صاحبنا « البطل » المطلَق أو العمومى ، لا يقلّ عن مثل هذا المتجر الضَّخم العظيم كِفايةً ولا غنًى ولا مُواتاة ، ولا إسعافاً (للزبائن) بما يريدون من جميع الطلبات !

تُذكَر أمامه الفُروسيَّة فى الحرب ، فيَذكر لك ما أبلَى فيهـا من كرٍّ وفرّ ، وكيف سدادُه فى البِراز والنِّزال ، وكيف يَحمِل وحدَه على الجمع الكثيف من الأبطال . ولا تسل كيف يَصنَع فى هذه الحملة ، من قَطِّ الرؤوس وبَرْى الرِّقاب (بالجملة) !

فاذا كان الحديثُ فى النساء وغرام النساء ، أسرع فحمِد الله تعـالى على أن المرحوم « ڤالنتينو » قد مات وأكله الدود ، وإلاَّ لكان الآنَ فى التماس النظرة على رصيف سيدى أبى السعود !

وقُلْ مثلَ هــذا وأبلغَ منه إذا كان الحديثُ فى جِياد الخيل أو فى الطَّعام والشَّراب ، أو فى الأَثاث والثِّياب ، أو فى الصَّيد والقَنْص ، أو فى الحَجْل والرَّقْص . أو فى الموسيقى وفنون النَّغَم ، أو فى تنسيق الحدائق وتربية الطَّير والنَّعَم . وادخل فيما شئت أن تَدخل فيه ، فانه (بيطولته) ولاشك موافيه . حتى لو عَرضتَ لكنس الدار وغسل (الحِلَل) ، لجلَى عليك من نفسه فى هذا بطلاً أىَّ بطل !

*
* *

و بعد ، فاننى أتشرف الآن بأن أقصَّ عليك طائفةً يسيرةً من أحداث بطولات هؤلاء (الأَبطال) ، سواء أكانوا من الإخصائيين ، أم من الشائعة بطولتُهم الجبَّارةُ فى جميع شُعَب الحياة .

ولعلك لم تنس أنه قد سبق لى أن وصفتُهم بكرم الخُلُق ، والتَّواضع ، وشدة التَّوافى للناس، حتى لمن لا تَربطهم بهم إلاَّ (المعرفة) البسيطة فى أضيق الحدود . والآن فاسمع أعاننى وأعانك الله : لقد تكون جالساً فى مقهًى عامّ كالنيو بار ، أو الإسبلندد بار ، أو بار اللواء ، أو فى جروبى قديمه وجديده ، أو ليمونيا الحلوانى فى القاهرة ، أو فى فرعه فى مصر الجديدة ، فلا يروعك إلا أن يطلُع على مَدخَل

المقهَى (بطل) من هؤلاء الأَبطال . ثم تراه قد ثَبَت فى موقفه لا يتقدَّم ولا يتأخَّر . ولا يَتزحزَح ذاتَ اليمين ولا ذاتَ الشمال ، ولا يتحرَّك منه إلاّ عنقٌ كالَّولَب ، يتجه إلى هنا ثم يتجه إلى هنا ، صُنعَ مروحة الكهربا المتحركة . وقد أرسل (البطل) نظراً حديداً يدور ، بالضرورة ، مع رأسه حيثما دار . فلا يزال يَنقُد الجالسين نَقداً ، ويَفحَصهم فرداً فرداً . فاذا أصاب فيهم بعد طول التفقُّد والاختبار صديقاً أو شِبهَ صديق ، ولو كان جالساً فيمن لا يَعرفهم ، أعني البطل ، ولم يرهم من قبل ، أسرع فأَهوَى إليهم (كجُلمُود صخرٍ حَطّه السَّيلُ من عَلٍ !) ، وبادر فسلَّم على صديقه أو (بُجيث) صديقه فى شوق ولهفة . ثم استدار فسلَّم على أصحابه فى تأدُّب وتظرُّف ، قد تَزينهما بعضُ الضحكات الناعمات !

فان لم يُصِب صديقاً ولا شِبهَ صديق ، (فالمعارف) بفضل الله كثير ! ومهما يكن من أمر ، فان أدبه وتواضعه لَيَأبَيان عليه إلاّ أن يمدّ يده فيمهِّد له بين الجماعة كرسياً . ولو غَفَلوا هم عن دعوته ، أو تجافَى بهم سوء الأَدب عن أن يبادروا فيَفسَحوا له فى مجلسهم موضعاً . وكذلك تكونُ مكارمُ الأخلاق !

ويَهبِط (الجرسون) ليسأل (البيك) حاجتَه . فيُسرِع (البطل) إلى الحلِف بأنه لا يستطيع أن يَتناول القهوة لأنها تُسهِّد ليلَه ، وتُطير نومه . أما (الجاتو) ، وأما (الكريم بالفواكه) ، وأما ما يُؤكَل على وجه العموم فلاحظَّ له فيه ، فقد أفرط فى غدائه حتى أدركه البَشَم ، ووقاك الله غائلةَ التُّخَم . فان كان ولا بدَّ من شيء ، والأَمرُ لله ، فانه يفضِّل (الكازوزه) لعلها تُسلِك من مجرى النفَس ، ما انسدَّ بكثرة الطعام وما احتَبَس

* * *

ولعل القوم كانوا فى حديث يَهُمّهم ويَشغَلهم فقطعه صاحبُنــا عليهم . والآنَ لا بأس عليهم من معاودته ، بعد إذ قَرَّت الجنوب ، وجاء (الجرسون)

بالمشروب . على أن صاحبنا أرفقُ بهم وأ كرمُ من أن يَدَعهم حَيارَى فى إيثاره (الكازوزة) على سائر ما يُطلَب ، مما يُؤكل وما يُشرَب . فَيصيح فيهم ، وقد يَهُزّ صاحبَ النَّوبة فى الحديث . وهذا ليَلفتهم إليه ، ويعطف أسماعهم عليه :

تسألوننى السرَّ فى إيثارى (الكازوزة) على سائر ما يُقدَّم هنا . ولكم كلُّ الحقّ . وإذا عُرِف السبب ، بَطَل العَجَب ! وكلُّ ما فى الأمر أن الله حَبَانى بطاهٍ لم يُسمَع فى الزّمان بمثله . وأين منه محمود القرَه وغير محمود القره[1] . وحين زار مصرَ جلالةُ ملك إيطاليا وتَغدَّى عندى سرًّا ، رَجانى فى أن يُرسِل إلىّ رئيسَ طهاته فى رومةَ ليتمرَّن على يَدَى هــذا (الولَد) فى طَهْى بعض الأطعمة التى أعجبت جلالتَه . وصدِّقونى إذا قلتُ لكم إنه كان من بينها (الأسباجتّى) !

ويَصيح الجميعُ فى نَفَس واحد : (الأسباجتّى) ؟ !

فيُجيب (البطل) : نعم يا سادتى ، وهذا موضعُ العجب . وذلك سرٌّ لا يعلمه إلاّ الكُنت دى بليانو[2] ، وسعيد باشا ذو الفقار ، و (أخوكم) بالضرورة .

ولا أحبّ أن أُطيل عليكم . فقد جلسنا للغَداء فاذا حَمَل (قوزى) محمر لم تَقرَبْهُ النار ، بل لقد طَمَره اللئيم فى الرَّمل حتى نَضِج وتورَّد بحرارة الشمس . ووالله ! وما لكم علىّ يَمين ! إن شرائح لحمه ما تكاد تقترب منها الأناملُ حتى تَزحَف هى إليها زَحفاً . فاذا انحدر اللحمُ إلى الحلق تَحلل فيه وسال من نفسه ، ما أعوَزه قَضْم ولا هَرس ، ولا جهدت فى علاجه سِنٌّ ولا ضِرس !

ويأذن الله أن تُرفَع أنقاضُ هذا الحمَل ، فاذا ديك رومى قد حُشِى بالسمان المحشوّ بالبُرغُل . أما فرشُه فالرزّ الأحمر ، فيه البُندُق والجوز والزبيب والصَّنَوْبر .

---

(١) الأسطى محمود القره كان أشهر الطهاة فى مصر من خمسين سنة مضت

(٢) الكنت دى بليانو كان وزير إيطاليا المفوض فى مصر أيام هذه الزيارة

وهنا ترى (البطل) المسكين وقد جَحَظت عيناه ، واتَّسعت حَدَقتاه ، واحتُقِن وجهه ، وانتَفَخت أوداجه ، وسال لعابه ، وأصبح شِدقه كالطَّبل المشدود . وترى له إلى هذا اختلاجاً عصبياً . هل رأيت النَّمِر وقد تهيأ للافتراس ، وكشَفَ عن الأنياب والأضراس ؟ !

ثم يدخل بك (البطل) فى باب السَّمَك ، حتى إذا خاض بك لُجَج البحار ، وأراك القَروص وموسى والمرجان والبُورى والوَقار ، عطف بك على قِسم الخُضْر حتى أتى على جميع أسواق الخضار ! . فاذا شاء الرحمنُ و بلغ الركبُ غاية السَّفَر فى هذه الرحلة ، فوصل سالماً إلى صفحة الخبِّيزة أو الرِّجلة ، انعطف بالجماعة إلى مَعرِض الحلوَى ، فعنده للحلوَى مَعرِضٌ لا يتَّسع لمساحته التصوُّر ولا يرتقى إلى حلاوته الخيال

ثم يتحوَّل بك إلى قسم الفاكهة ، وهنا يَتجلَّى تواضُعهُ فلا يَعرِض عليك إلاَّ عشرة ألوان أو اثنى عشر لوناً مما صُفَّ على مائدته فى غَدائه . ولقد تسأل عن هذا الزُّهد والأقلال ، فيكون الجواب الحاضر : « بقى كلام فى سرّك ! أخوك مالوش نُقل على الفاكهة ! »

*
* *

ولقد يَعُدّ لك خمسين أو ستين صَحفةً من صِحاف اللحم ، والطير ، والسمك ، والخضر ، والحلوى . وهى جملة ما تَغدَّى به فى يومه . ومع هذا لا يفوته أن يقف على رأس كل صَحْفة ، فيصف لك كيف طُبِخَت وكيف طُهِيَت ، وكيف قُلِيَت وكيف شُوِيَت ، و بماذا تُبِّلَت و بماذا حُشِيَت . وماذا عولجت به من فنون الصُّنْع ، حتى تم لها كلُّ هذا البِدْع !!!

— هذا أيها الاخوان ، هو السرّ فى إشلرى (الكازوزة) ، ألست معذوراً ؟

فيُجيبه الجميع :

— معذور ، والله ألف معذور !

ولعل خبيثاً ممن لا يُحبّون الصدق ، ولا يَستريحون إلى كلمة الحق ، يقول له :

— والله يا أخى لو شَرِبت مع هذا الخواجه (اسباتس) كلّه لكنت معذوراً !

فيكون الردّ :

— (مش كده و إلاّ إيه ؟ ليلتكم سعيدة لأن عندى ميعاداً مهمّاً) !

*
* *

ويَنصرف (البطل) لعله يَلقَى بعضَ الأقوام ، فيفتح لهَوَاتهم بالحديث فيما أصاب فى غَدائه من ألوان الطعام !!! . . .

بطـولة ! . . .*

— ٣ —

واليوم يَأذَن اللهُ بالحديث فى (الأبطال) المطلَقين أو (الأبطال) العموميين . وهؤلاء ، كما عرفتَ ، الذين ليس لهم فى (البطولة) اختصاصٌ معيَّن . والذين تَشِيع عبقرياتُهم الجبَّارةُ فى كل أسباب الحياة والموت معاً ، فهى تَتناول كلَّ شىء ، ولا يَتَعاصَى عليها فى الدنيا شىء !

ولقد أوردنا عليك فى حديث الأُسبوع الماضى بعضَ نماذج (عيِّنات) من المحلات التجارية فى أوربا وفى مصر ، تكاد تُسعِف الإنسانَ بجميع حاجاته فى مطالب الحياة ، إن لم يكن مما عندها فانها تَستَدركه من غيرها . أما هؤلاء (الأبطال) فأَبلغُ استعداداً ، وأَوفرُ عُدَّة وعَتاداً . فانك ما يكاد يَجرى على بالك خاطر ، أو تَسنَح لذهنك شاردةٌ حتى من خيال ووهم ، إلا كان من حاضر جِراب العبقرية لها أصلٌ وفصل ، واسمٌ ولقب ، وحِليَة ونَسَب ، وحديث يلذّ ويَشوق ، وسَمَر يَصفو ويَروق !

خُضْ فيما شئتَ من المعانى ، واعرِض لما تريد أن تَعرِض له من الحديث فى القديم والجَديد ، والطَّريف والتَّليد ، وما رَوَى القُصَّاصُ من غرائب الأَخبار ، وما يزعم الرحَّالون من عجائب البحار ، فان (البطل) لَمُعجِلك عن إتمام حديثك بما وقع له هو بذاته فى هذا الشأْن ، مما قد يَشيب لهوله الولدان . ومما لم يكن يصدَّق أن مثلَه مما يقع في الزمان . فلا شىء فى مفاخر الدنيا أخطأ سُبلَه ، ولا شىء من عجائب الأرض والسماء إلاَّ وقع له !

---

* نشرت فى « المصور » فى فبراير سنة ١٩٢٥

ولقد يَعرِض الكلامُ فى العلم والعلماء ، فيبادر بمطالعتك بما كان منه فى مؤتمر (استكهلم) الذى ألقت إليه أُمّ الأرض جمعاء ، بمن فيها من أفذاذ العلماء . وقد أجمعوا فى غاية الأمر على الرأى فى قضية (نظرية) علميــة طريفة . وما كادوا يَفرُغون من هذا ، ويَنعَمون بالاستراحة إلى نتيجة المسعَى ، حتى نهض هو ففنّد هذا الرأى تفنيداً ، وبدّد تلك (النظرية) تبديداً ، بعد ما أشبَع أشياعَها تهكماً وتنديداً . ولا تَسلْ عمّا لقِىَ (البطل) من تصفيق يصمّ الآذان ، وهُتاف تجاوبت صداه الآفاقُ من كل مكان . ولا تَسلْ عمّا عُقِد له ، بعد هذا ، من أكاليل الفخر ، وكيف حَمله العلماء ليجوزوا به تحتَ أقواس النصر !

ولقد يَلتفت المجلسُ إلى الحديث فى الموسيقى ، فسَرعان ما يَستدير له (كاللّولب) ، ويهزّ المسكين رأسَه فى أناة ، وقد أرسل جفنيه ، وأشعرَك حالَه بما يزحم ذهنَه من خواطر عنيفة . ثم يُرسل آهةً شديدة ، يُخيَّل إليك أن كبده تَسيل فيها على حَلقه ، ثم يُقبِل عليك يحدثك بما عانَى فى بعض المؤتمرات الموسيقية العالمَية فى مسألة (الأوزان) ، وما كافح أقطاب الموسيقى فى قضية ضبط الأوزان ، وكيف تجادل الجماعة فى نظريته وتَحاوروا ، وكيف تألّبوا عليه وتآمروا . ثم كيف نصره الله فرداً عليهم فأطاعوا فى النهاية وسَمِعوا ، وذَلُّوا لحكمه وخَضَعوا !

*
* *

ولقد يجىء الكلامُ فى الخَيل ، واقتناء كَرائم الخيل ، فَسرعان ما يحدّثك عن زَوج من الجياد أَتى به من بلاد المجر بعد طول تفقد واختيار ، وبعد امتحان واستخبار . ولم يُجشّمه فى ثمنه ونفقاته إلى الإسكندرية أكثر من ١٩٧٨ جنيهاً مصرياً ! فقط (يا بلاش) فراضه على جرّ (الفيتون) الكبير . ولقد حدَث أنه كان يسوقه بنفسه ذاتَ يوم ، فاعترضته فى بعض الطريق سكة حديد حلوان ، وكانت بوابة (المزلقان) مقفلةً لمرور القِطار ، فلم يَرعْه إلاّ أن يرى نفسَه وخيلَه

و (فيتونه) فى العُدوة الأُخرى من شريط سكة الحديد ! فلقد عزَّ على الجياد الانتظار ، والأمرُ أيسرُ ما يكون بوثبة واحدة لا جهد فيها ولا إقلاق ولا إزعاج .

ولقد بدا له يوماً أن يَجول به فى ساحة عابدين ، فلم يرُعه إلاَّ أن يَسمَع من التصفيق ما يُشْبه الهَمْس ، ورفَع رأسَه إلى القصر ، فاذا ولىُّ الأمر الأسبق واقفٌ على الطُّنُف يصفِّق ويومىء بالتحية ، ويظهر أعظمَ دلائل الإعجاب !!

وبعد أن يَقصّ على (البطل) هذه القصة البديعة يأبى ، حفظه الله ، إلاَّ أن يَجلو علىَّ صورةً طريفة يمثِّل لى بها (تُرتّ) جياده ، إذا هو شدّ على لُجُمها كى تَمشى الْهوَينا ولا تطير بين الأرض والسماء . و (التُرتّ) هذا بضم التاء الأولى والراء ، يليهما تاء مشددة ، هو فى عُرف هواة الخيل وساستها ، الحركة المنظَّمة التى يَرفع بها الجواد رجلَه ، ثم يعود فيَضرِب بحافره وجهَ الأرض .

وهنا أشعر أن وجه صاحبى قد استطال حتى أشبه وجوه الجياد ، وأرى أُذنيه قد تَدلَّتا حتى كادت تُصيب أطرافُهما مَعقِد الفَكّين . وأرى وجهه قد تَربَّد ، وعينيه قد احمرّت أحداقهما ، كأنه مقبل ، والعياذ بالله ، على شرّ كبير . وإنى لأُحسّ فكّيه تُقضقِضان قَضقَضةَ المَقْرور . ثم ما هو إلاَّ أن يَثِب فى الغرفة فيتخطَّر جيئةً وذهاباً ، وهو يَثنِى ساقَه كلما رفعها عن الأرض حتى يضرب بكعب رجله أعلى فَخِذه . حتى إذا أتى على (شَوطه) ارتدَّ إنساناً ، ورأيتُ عليه من دلائل الفَخَار ، ما هو جَدير بأن يخلَّد له على وجه الأدهار ، ما عاقبَ الليلُ النهار !!

*
* *

ولقد يَدخل المجلسُ بالحديث فى الصَّيد والطَّرد ، ومعاناة الأهوال ، فى مقارعة الفِيَلة والأَوْعال ، فيُسرع (البطل) أيضاً ، وأعنى بِهِ هذا الذى كان منهُ كلُّ ما مرَّ بك من الكلام ، فيقول : بينا نحن فى الصَّيد والقَنص فى إحدى الغابات



الرجل الجواد !...

المهولة . وهنا أرى واجباً علىّ أن أنبهك ، يا سيدى القارئ ، إلى أنهُ ليس من اللّياقة ، ولا من الذّوْق ، ولا من أدب الإصغاء إلى الحديث ، أن تَعترِضهُ بالسؤال عن موضع هذه الغابة . وهل يكون فى الهند ، أو فى أواسط افريقيا ، أو فى جنوب أمريكا ، أو فى بلاد المجر ، أو فى حديقة الأزبكيــة الخ . فإنهُ ليس لك عليهِ إلاّ أنها غابةٌ مأهولةٌ بسباع الوحش والطّير ، من أُسودٍ وغُمور ، ووُعول وفِيَلة ، وأيائلَ وقِرَدة ، وبواشقَ وصُقور ، وبوازٍ ونُسُور !.. ليس لك إلاّ أن تعلم أنها غابةٌ حافلةٌ بكل أولئك . ولْتقع هــذه الغابةُ بعد ذلك من أرض الله حيث تشاء !

ويُتِمّ (البطل) الحديث ، فإذا بهِ قد انفرد ذات يوم عن الرُّفقة من الصّادة ، وإذا أسدٌ ضارٍ يَخرج عليــه يَمشى نحوه (مترفّقاً من تِيهه) . ويتفقّد صاحبُنا (المسدّسَ) فإذا رَصاصاته قد نَفِدت كلها ما بقيت منها واحدة ، فكيف العمل ، والأمرُ خطير والخطبُ جَلَل ؟

لَخيرٌ أن يبادر الأَسدَ بالوَثْبة ، ويعاجله بالهَجمة . فيتناول بيسراه أسفلَ صُدغه ، أى صدغ الأسد ، عند مَعقِد الفكّين ، ويَضغطهما ضَغطةً شديدة يَنفغِر بها فمه ، ولا يستطيع له بعد ذلك تحريكاً ، ثم يُسرِع فيدسّ يمناه فى جَوفه حتى تصل إلى قرارته ، ثم يَجذِبه من أسفله جَذبةً عنيفةً حتى يُخرج ذيلَه من فمه . أفرأيت كيف يُقلَب الجوربُ بأيسر جُهدِ اليد ؟ وكذلك أضحَى الأسد ظاهره باطنه ، وباطنه ظاهره ، كما أضحَى رأسه فى مكان ذيله ، وذيله فى موضع رأسه ؟!

ثم لقد يَتلطّف فيسأل الجماعة أن يزوروه فى داره يوماً ليُطلِعهم على هذا المنظَر العجَب !!!

*
* *

وبعد ، فلو عَرَض الحديثُ لكنس الدار ، أو لغسل (الحِلل) ، أو لجلاء (عساكر السّرير) ، أو لتمزيق الوَرَق ، أو لكيفية تجفيف العرَق . لما عَزَّه أن يَجلوَ عليك (بطولة) له فيها ، يَعضُدُها بمختلف الشواهد ، ويَنظِم لها ألوانَ الغرائب عقوداً وقلائد ! ! .

*
* *

أما الغرامُ وأحاديثُ الغرام . فذلك ما سارت به الأَخبار ، ورَوته عن صحفها الرُّهبانُ فى الأَديار . ولستُ أُطيل الحديثَ عليك ، يا سيدى القارئ ، فلو قد ذهب ذاهبٌ إلى استقصاء ما وَقع فى هذا الباب (لبطل) واحد من هؤلاء (الأَبطال) ، لما وسِعته الأَسفارُ الضِّخام ، ولَاستهلكَ تدوينُه الشهورَ والأَعوام . وعلى ذلك فقد عزمتُ على ألاّ أروى لك إلاّ نادرةً واحدةً من تلك النوادر ، ولك أن تَقيس عليها آلافَ الآلاف ، مما يقع لهم فى كلّ ليل وكلّ نهار ، على توالى الأَزمان وتعاقب الأَدهار :

كنت جالساً ذاتَ عشيَّة على حاشية أحد المقاهى ، فصَبَّ علىّ القَدرُ (بطلاً) من جبابرة هؤلاء (الأبطال) ، وما كاد يَستوى إلى مجلسه من المنضَدة ويسترجع نَفَسه من جُهد السير ، حتى قال لى : لقد حدث لى ليلةَ أَمس يا فلان شىء عجيب !

قلت : وكيف كان ذلك جُعِلتُ فداك ؟

قال : بينا أنا جالس هنا وقد انحرَف عَقربُ الساعة عن العاشرة ، إذ جاء غلامٌ من ماسحى الأَحذية ، وأَسرَّ إلىّ أن هناك مَن ينتظرنى فى منعَطَف الحارة ، ثم تركنى ومضى مُهروِلاً فتبعْتهُ ، فإِذا سيارةٌ من طراز (اسبانيوسويس) ، وبابُها مفتوح ، وقد قَبض على (أكرته) الفِضية (جروم) فتى كأنما صيغ من

خالص الجوهر ، وإذا صوتٌ كأنهُ صوت كَرَوان تحمله نَسَمة من نَسمات السَّحَر . وسمعت كلمة « ادخل » ! فرفعت بصرى فإذا جوفُ السَّيارة يُضئ ولكن من غير سِراج . فأدرتُ بصرىَ الحائر ، فإذا مَبعَث الضوء وجهٌ يَتألّق تألُّق البدر ، ليلةَ انتصاف الشهر !

— ادخل ! ادخل سريعاً !

— لعل فى الأمر خطأ يا سيدتى ؟

— ليس هناك خطأ ، ألستَ فلاناً !

— نعم يا سـيدتى !

— إذن فأنت طَلِبَتى ، ولست أنا ممن يُخدَع على هواه ! . .

وما كدت أُظهر التَّثاقل والتمنُّع حتى جذبتنى من يدى ، وجعل (الجروم) والسائق يَتظاهران كلاهما على دفعى من خَلفى ، وسرعان ما أُغلق الباب ، وأخذ كلٌّ من السائق و (الجروم) مجلسَه فى أسرع من ردِّ الطَّرْف . وطارت بنا السَّيارة كلَّ مَطار ، حتى صارت بنا إلى غاية شارع الهرم ، ثم انحرفت بنا فى طريق الصَّحراء . وتدلَّى السَّائقُ وصاحبُه ، فعصَبا عينىَّ بمنديل حريرىّ موشّى الحواشى بالذَّهب ، فارتعتُ وأخذ منى الذعرُ كلَّ مَأخَذ ، فأفرَخَت رَوعى ، وحلَفت لى بكل مُحرِجة من الأَيمان أنهُ لا يُراد بى مكروهٌ أبداً . وما زالت بى تلاطفنى وتؤانسنى حتى تطامَنْت وثابت لى نفسى .

وسرنا على هذا ساعة . ثم أَحسستُ السَّيارةَ قد وقفت . وسمعتُ صرير بوابة تُفتح . فنجوزها ثم تُغلَق . وبعد دقائق جزنا ، على هذا ، ببوّابة أخرى . ثم بعد دقائق جزنا بثالثة . وأنا أشعر أثناء ذلك كله أننا نخوض حدائق غَنَّاء ، تَتضوّع أزهارُها ، وتتغنَّى أطيارُها . وأسمع لخُلجانها آذِيًّا وهديراً ، ولجَداولها

مَضمَضةً وخَريراً . ثم وقفت السَّيارة وتدلَّى عنها الرَّكْب ، وقادتنى السيدةُ بيدها الناعمة فصَعِدنا أولاً بِضعَ سلاليم ، ثم سارت بى قليلاً وتقدَّمتْ إلى الخدم فرفَعوا العِصابة عن عينى ، فإذا بى فى بَهو لا يَتصوَّر العقلُ سَعة جنباته .

ثم جعل يَصِف لى ما حُلِّىَ به من دُمًى وتماثيــل ، وصور وتهاويل . ومنها ما نُحِت من المرمر ، ومنها ما رُصِّعَت أطرافُه بالدرّ والجوهر . مما لم يَرِد مثلُه عن الإيوان . أو عن قَصر غُمْدان .

ثم مضت به إلى الطابَق العُلوى . ولا تنس أن الخِصيان والجوارى (البيض طبعًا) وقوفٌ صفين على طول الطريق ، فى أيديهم الشُّموع والمَجامِر تَضوع بفَتِيت العَنبر . وبالمسك الأَذْفر . حتى يأذَنَ الله وينتهى المسير بإيوان . وإذا فيه أربعمائة فتاة كلهن أحلَى من البدر . وأنضرُ من الزَّهر . وأبدع من الدَّهر إذا أَقبل الدَّهر . وإذا هُتافٌ يصمّ الآذان ، وتصفيق يَرجّ الإيوان ، وإذا صاحبتى تَصيح صياح مؤذِّنٍ جاهدٍ فى الأَذان :

— لقد كَسَبتُ الرِّهان . فقد جئتكن بفلان !!

وتَعزِف الموسيقى وكلُّ العازفات من الكواعب الأتراب . ولا تسل عن تهافت الفتيات عليه وتباريهن فيه إذا كان الرقص ، وكان هَصرُ القدود ، أو كان عَصرُ الخدُود !!!

*
* *

فاذا أنكرتَ علىّ ، يا سيدى القارىء ، إيمانى بهذه (البطولة) ، وإعجابى بهؤلاء (الأبطال) . فأنت امرؤٌ لا حظَّ لك فى تذوُّق الشعر ولا فى تقدير قَدر الخَيَال !

غـــواة !

فإذا أباها علينا صديقنا الأستاذ صادق عنبر قلنا هواة ، وأمرنا لله ! .

الواقع أن بعض إخواننا الموظفين هُواة ، أو على الصحيح عند العامّة غُواة ، شديدو الكلَف (بالغيّة) ، وليس يقع هواهم على شيء مما يتكلّفه الناس فى هذا الباب ، من حذق تصوير ، أو حفر ، أو تجويد ضرب على عود أو قانون ، أو تربية الأزهار وتوليدها وتلوينها ، أو الملاعبة بالحمام ، والاشتغال بنطاح الكباش ، ومهارشة الديكة ، أو . أو . الخ، فان هَواهُم أو (غيّتهم) إلى شيء آخر ، أفتدرى ما هذا الشيء ؟ هو الكلام فى (الحركة) . فإذا كانوا من سلك القضاء ، كان الكلام فى (الحركة) القضائية ، وإذا كانوا من رجال الإدارة ، فالكلام فى (الحركة) الإدارية ، وإنه لهَوًى يَملِك عليهم عواطفَهم ، ويَستهلِك أوقاتِهم ، فيطغى على لذائذهم جميعاً .

وإنهم ليتعاهدون مكاناً من فُندُق ، أو موضعاً فى مقهى ، أو منظرة فى دار . إذا كانوا فى الريف . فإذا فرغوا من أعمالهم ، انتظم مجلسهم ، وبدأ الكلام فى (الحركه) ، وميعاد صدور (الحركة) . وراح كلٌّ يروى ما اتّصل به من ذلك : فمن قائل إنها ستصدر بعد ثلاثة أيام ، ويُسند هذا إلى خبر ثقة فى وزارة الحقانية ، فيتدره ثانٍ بأنها لا تكون إلاّ بعد شهر على الأقلّ ، ويحتجُّ لهذا ثالث بأن هناك إشكالاً فيمن يُختار للمنصِب الفلانى . . .

ويدور الَجدل والحِوار فى هذا ساعةً أو ساعتين . . . فإذا فرغوا منه أقبلوا يتفقّدون مَن (عليهم الدّور) فى الحركة المقبلة . ومَن هم الذين سيقع لهم الحظّ فيها ، فيجرى الكلام فى الترشيح للمناصب الخالية . وفيمن يَخلُف كلٌّ من يُفارق

منصِبه إلى أعلى منه ، وفيمن عليهم الدَّور للدرجة الأولى فى القضاء ! ثم مَن عليهم الدور للدرجة الأولى فى النيـابة . ثم فيمن عليهم الدور للنقل إلى محكمة مصر . ومن ذا الذى سيُنقَل إلى قنا . ومن ذا الذى سيُندَب للجنة المراقبة . ولا يزال يدافَع الرَّجم والتخمين بالرَّجم والتخمين ، وتَرتفع الأصوات بالتمـاس العلل ، والاحتجاج للرأى ، حتى يَنتصف الليل أو يكاد ، ويَنفضّ المجلس ويَنطلق كلٌّ إلى مثواه . فاذا كان أصيلُ اليوم الثانى ، عادوا إلى مجالسهم ، واستأنفوا شأنَهم ، وأعادوا ما بدأوه فى أمسهم ، لا يخوضون لحظة واحدة فى غير حديثهم . فاذا كان يومُ عطلة ، عقدوا فيه جلسة (ماتينيه) للكلام فى الحركة أيضاً . وإنك لا تسمع أحداً منهم طول حياته يَلُوك بيتاً من الشعر ، أو يُقلِّب لسانَه فى سبب من أسباب الحياة ، أو يُجرى عليه نادرةً ظريفة ، أو طُرفة تَنتعش بها النفس ، أو مُلحة تملأ الشدق بالضحك !! ولا تراه يوماً يَغشَى مجلسَ غِناء ، أو تمثيل ، أو نحو هذا مما يطلبه الناس للرياضة والتفرُّج من كدّ العمل ! . . إنما لذةُ العيش ، وقرةُ العين ، ومُتعةُ الحياة وأنسُها وبهجتُها — كل أُولئك فى الكلام على (الحركة) وحدَها . حتى إذا غَشِى واحدٌ من هؤلاء الهواة مجلسَ آخرين من إخوانهم ، ممن لا يَكرثُهم أمرُ (الحركة) ، ولايقتلون وقتَهم فى الحديث عنها ، لأنهم لا يَشغَلون وقتَ فراغهم إلاَّ بما يَشغَله به سائرُ المتعلمين ، من حِوار فى مسألة علمية ، أو حديث فى الأدب ، أو جِدال فى المسائل العامّة ، أو رواية حادثة غريبة ، أو إرسال نكتة بارعة — أقول إذا غَشِى واحـدٌ من أولئك مجلسَ جماعةٍ من هؤلاء رأيته غريباً بينهم ، منقبضاً عن شأنهم ، غافلاً عن حديثهم ، حتى لَتحسبنَّه لا يعرف لغتَهم ! وإنه لَيُهمُّ المرَّة بعد المرَّة بتوجيه مجلسهم إلى الكلام فى (الحركة) ، فاذا لم يَسترسلوا معه فيه تسلَّل عن المجلس بسلام !

وإن أنسَ لا أَنسَ أننى وصديقاً لى ، دخلنا (كازينو) الشاطبى أصيلَ يوم

من أيام الصَّيف . فإذا الناسُ فيه متشرِّفون على الشاطئ ، يستقبلون الهواء ، ويمتعون الأنظار بجمال البحر هناك ، وإذا (فلان) جالسٌ وحدَه وقد وَلى البحرَ ظهرَه ، فمال علىَّ صاحبى (وهو من القضاة أيضاً) ، وقال لى : أتعرف لماذا يجلس (فلان) هكذا ؟ قلت لا ! . قال : إنه يَرتصِد لأىِّ قاض ليتكلم معه فى (الحركة) المقبلة ! فاعدِل بنا عن طريقه ، لا أمتعه الله بهذا الكلام !

والعجب العاجب أنك قد تسأل جمعَهم عمّن يرقُب نصيبَه منهم فى تلك (الحركة) ، فيجيبونك كلُّهم (لِسَّه ماجاش علينا الدور) ! ولقد سألت واحداً من هذا الضرب مرة : متى ترقى يا فلان ؟ فدسَّ يده فى جيبه واستخرج كشفاً طويلاً فنظر فيه وقال : (فاضل قدامى ٧٣ واحد) !!!

وإنك لتُصيب هذا الضرب من الموظفين فى كل وزارة ، وفى كل مصلحة تقريباً ، وبِحسبك أن تطوف بالأماكن العامّة وقتَ الغروب لترى للمتحدثين فى (الحركة) من موظَّفى كلٍّ منها مجلساً معقوداً .

ولعل لإخواننا هؤلاء بعضَ العذر أو كلَّه ، فإنهم إنما يتقرَّون مستقبلَهم ، ويَتعجّلون الأيامَ لينتهوا منها إلى عُليا المناصب . ولكن ما عذر هؤلاء الذين أُفضِى إليك بحديثهم ؟

من جيراننا كان المرحوم أحمد ثابت بك ، (والد صديقنا الأستاذ الدكتور محجوب ثابت) . وكان أوْجَه من فى تلك الرُّقعة من رجال الإدارة المحالين إلى المعاش ، فكانت دارُه مَثابةَ إخوانه المحالين على المعاش ، تَنتظمهم (المنظرة) فى الشتاء ، وتنعقد حَلقتهم على باب الدار فى الصيف . وفيهم من قوَّسَت السنون ظهرَه ، وفيهم من كُفَّ بصرُه ، وفيهم من أَبطل الفالجُ نصفَه . وإنهم ليَعقِدون مجلسهم من الساعة التاسعة صباحاً حتى يقوموا لغَدائهم . ثم يستأنفوا شأنه إذا جاء

العصر . فلا يَبرحون إلا إذا تنصّف الليل . وعلى صاحب الدار الإكرامُ لهم بالقهوة (السادة) ! والقهوة (بسكّرشوية)، أو السو بياء والليموناده فى الصيف، أو القرفة أو الخُلُنجان إذا كان الشتاء . أما حديثهم كله فى مُصْبَحهم ومُمساهم ، وفى غدوهم وآصالهم ، فمن لون واحد . هو الكلام فى الحركة الإدارية . ودارُ ثابت بك على مذهبى فى غُدوّى ورَواحى . وما جُزتُ بهم مرةً من يوم نشأتُ إلاّ سمعت قائلهم: وعبد الغنى شاكر ؟ فيبادره آخر : فى ميت غمر — وخليل نايل ؟ — فى قنا — وحدّاية ؟ فى طنطا — وقطرى ؟ فى أسيوط — وعبد العزيز يحيى ؟ فى بلبيس — وإبراهيم نبيه ؟ الخ . الخ حتى لقد حفِظت ، فى صَدر سِنّى ، وعلى الرغم منى ، أسماء جميع المديرين ، ووكلاء المديريات ، والمحافظين ، والحكمدارين ، ومأمورى المراكز ، ومواضعهم وما كان وما يكون من تردُّد كلٍّ منهم بين مختلف المناصب فى مختلف المواطن !

ولولا أن ألوى الرّدى بالمرحوم ثابت بك لكان الهُتاف الآن بأسماء صادق يونس ، وعبد السلام الشاذلى ، وأحمد فهمى حسين ، وأحمد زكى مصطفى الخ وسبحان مَن أَودع كلّ قلب ما شَغله !

فن الوظيفة !

تدور فى هذه الأيام كلمةُ (الفنّ) ، تُنفَض نفضاً على كلّ من له عِرْق فى تصوير أو نحت أو غِناء أو تمثيل . إذ هناك (فنٌّ) أَدقُّ وأبرع ، وأَجدَى على (الفنَّان) وأنفع . ومع هذا لم يَعرِض له النَّقَدة ، ولا هَتفوا به فى مقاولاتهم . وإن شئت أن تعرِفه ، فهو « فنّ الوظيفة » .

و « فنّ الوظيفة » هذا شرح الله صدرَك ، وأطال عمرَك ، ورفع فى المناصب قدرَك ، فنٌّ واسعُ الأَطراف ، رحبُ الأكناف . مؤصَّلُ الأُصول ، مفصَّلُ الفُصول . مُقعَّدُ القواعد ، مبسَّطُ الأَمثلة والشواهد . لا يَحذِقه الفتى إلاَّ بعد الجهد وشدَّة المطاولة ، وسهر الليالى فى التفكير والتدبير . وتمرين الأعضاء فى كيفية القعود والقيام ، والسكوت والكلام . والدخول والخروج ، والهبوط والعروج . والتشييع والاستقبال ، والخنوع والاستبسال . والإنقباض والتبسُّط ، والرضا والتسخُّط . وإرْهاف الأنف حتى يَشَمّ الريحَ على أميال ، ويُدرك مَدَى تحوُّل الجوّ من حال إلى حال .

وهذا (الفنّ) الجليل لا يكفى فى تحصيله والتبريز فيه كلُّ هذا ؛ بل لا بد من التهيؤ والاستعداد ، وأن يكون للمرء طبيعة وموهبة ، شأنَ سائر الفنون الجميلة !

ومن أُولى مزايا هذا (الفنّ) الجليل تخليد (الوظيفة) للفنَّان على الزّمان ، ولو عَصَفت أحداثُ السياسة بِلداته جميعاً ! . ومنها الوثب فى الدَّرجات مثنى وثُلاث ورُباع ، وخُماس وسُداس وسُباع .

وإنى لأعرِف طائفةً من هؤلاء (الفَنّانين) مَهّدَ لهم (الفنّ) الدَّرج كله ، فتناولوه وِثابًا فى كل وزارات : عدلى ، وثروت ، ونسيم ، ويحيى ، وسعد ، وزيور ، وعدلي ، وثروت ، والنحاس ، ومحمد محمود ، حتى بلغوا القُنَّة بدقة الفن وحدَه . ناعمين بثقة الجميع ، ولا إيمان لهم بواحد من الجميع ! .

ألاَ حيًّا اللهُ هذه الهِمَم ، وحيًّا معها تلك الذِّمم ! ! .

امتحان ! . . .*

أنكدُ أيامى فى القضاء الشرعىّ، هى تلك الأيامُ التى قضيتُها فى محكمة (كذا) الجزئية التابعة لمحكمة (كذا) الكلية . ولهذه المحكمة رئيسٌ وافرُ الذكاء شديدُ المكر . وفيها نائبٌ وقاضٍ لا أصفهما لك إلاّ بما جرى بيني و بينهما فى هذا الحديث .

فى يوم أيْوَمَ تلقيتُ كتاباً من (الرياسة) بندبى إلى (الكلية) لتكملَة (الهيئة) لجلسة امتحان المأذونين . وفى اليوم (الموعود) مضيتُ كارهاً . ورأيتُ ألاّ أُضيع الوقتَ سُدَى . فأنشأتُ وأنا فى الطريق أَضَع الأسئلة التى تطلبها لائحة المأذونين . سواء فى الفقه الحنفى ، أو فى الأحكام النظامية للزواج والطلاق ، أو فى الحساب ، أو الاملاء ، أو الخطّ . وسَوَّيت كلّ سؤال على صورة حادثة مما يَعرِض للمأذونين فى مهنتهم كلما دُعُوا إلى زواج أو إلى طلاق .

و بلغتُ المحكمةَ فاذا حجرتُها الكبرى تموج بحضرات المتقدمين للامتحان ، وقد كُبُّوا على الأرض كَبّاً . وأعنى الأرضَ نفسَها لأنها متجردة ليس عليها بساط ولا حصير . وهم بين متربع ، و بين مُقْعٍ ، و بين معتمِد على كعبيه وقد تَعلَّق سائرُه ، و بين جالس على إحدى ركبتيه . وفى يمين كل منهم قلم . وفى يساره كاغد و بين يديه دواة من فَخَّار . وفى صدر الحجرة دَكَّةٌ انحطّ عليها صاحبا الفضيلة النائب والقاضى ، والجميع جاثمون فى انتظارى ، فاتخذت لى بين الشيخين مجلساً . وأومأت إليهما فتجمَّعَت رؤوسنا نحن الثلاثة . وقلت لهما هامساً : لقد هيأت أسئلةَ الامتحان ، فاذا راقت لكما ألقيتها على المشايخ . و بذلك يتهيأ لى أن أعود الى محكمتى فى الحال ، ففيها عملٌ كثيرٌ يحتاج إلى طول علاج . فقالا : هات ما أعدَدْت !

* نشرت فى جريدة « السياسة » تحت عنوان (ليالى رمضان)

فتلوته عليهما ، فهبَّا فى نفَس واحد : لا . لا ! . وهتف النائب عن يمينى : نحن لا نوافق . فرجَّع القاضى عن شمالى : أبداً أبداً ! وهمس النائب : (إحنا ما نُخرجوش عن اللائحة) . فردَّد القاضى ، بعد أن رفع كلتا يديه حتى حاذتا فَوْدَيه ، وأهوَى بهما على فخذيه : (لا لا . ما تقدرشى نخرج عن اللائحة) . فخفنت غيظى وقلت لهما فى رِفق : فما حُكم اللائحة فى ذاك ؟ فدعا النائبُ باللائحة فجاء بها الحاجب ودفعها إليه ، فَفرَّها حتى وقع منها على الفصل الذى تجرى فيه أحكامُ الامتحان . وتلا ما معناه : يؤدِّى طالب المأذونية امتحاناً فى أحكام الزواج والطلاق وما يتعلق بهما شرعاً ونظاماً . وفى الأملاء والحساب والخطّ . ثم أقبل علىَّ وقال : أرِح نفسَك ، فقد وضعنا أسئلة تنطبق على أحكام اللائحة تمام الانطباق . قلت : فهاتها. فتلا علىَّ ما يأتى :

السؤال الأول : ما هو الفقه على مذهب أبى حنيفة ؟

السؤال الثانى : ما هى الأحكام النظامية للزواج والطلاق ؟

السؤال الثالث : ما هو الحساب ؟

السؤال الرابع : ما هو الأملاء ؟

السؤال الخامس : ما هو الخطّ ؟

وهنا لم تَعُد جدران صدرى تقوى على حَقن الغيظ ، فانفجر انفجاراً ، وصحت فيهما :

ما الخط ؟ أجيبا أنتما على هذا السؤال ! . فأجابا فى نَفَس واحد . لا نَخرج عن اللائحة . لا نَخرج عن اللائحة ! فقلت لهما (وإنى لأول مرة أُفشِى سرَّ مداولة) إننى غير موافق ! فصاحا : ولكن الأمر تم بالأغلبية . فقلت لهما : إذن فامضغا هذه الأغلبية . وتركتهما ونهضت من فورى أطلب وزير الحقانية لأتغدَّاهما قبل أن

يَتعشَّيانى . وكان صاحبَ الدولة المغفور له عبد الخالق ثروت باشا ، وقصَصتُ عليه القصة ، فضحِك رحمه الله حتى انكشف ناجذه . ولم يُصارحنى برأى . على أننى قد اطمأننت إلى أننى لن يمسَّنى سوءٌ من أثر فَعلتى . وأحمد الله تعالى أن أحد هذين الشيخين قد خرج بالسن ، ولا أدرى ماذا صنع الله بالآخر . وأمثالهما ، لا أكثر الله من أمثالهما ، فى القضاء غيرُ كثير

وهنا مسألةٌ يجب أن تُثار وأن يُبَتّ فيها بالرأى : إذا مالت أغلبية القضاة إلى حكم واضح الشذوذ أو ظاهر السخف ، فهل يحق للقِلّة أن تنسحب ضَناً بكرامتها على الابتذال ، أم يجب عليها الخضوع لحكم الكَثرة طوعاً لظاهر نص القوانين ؟ اللهم إن كان الثانى فياويل الأقليات من الأكثريات !

ولعل لى عودة إلى بعض ما عانيتُ من هؤلاء فى محنة القضاء !

يا خســـارة ! . . .

لى صديقٌ شابٌّ أحرز إحدَى الشهادات العليا من بضع سنين ، وظل يَسعى إلى « وظيفة » حتى اهتدى من نحو شهر إلى « وظيفة » لا يُدركها إلاّ إذا جاز إليها « امتحان مسابقة » ، فأَكبَّ المسكين على الكتب ، وما بقى عنده من « مذكرات » أساتذته ، وراح يُجهد نفسه فى مراجعة ما تلقَّاه من فنون العلم . ودام على هذا قَرابةَ شهر . وكلَّما قابلته وسألته فى شأنه أدخل الطمأنينة على نفسى بما راجع من مسائل العِلم وما استذكر وما حصّل ، حتى أضحى أملُه فى السَّبق إلى « الوظيفة » معقوداً والحمد لله !

ولقد لقينى أَمس فإِذا هو مَغيظٌ مُحنَق ، يشكو الزَّمان ويلوم صَرف الدهر ! . لماذا ؟ لأنهُ قد وفق إلى « وظيفة » أخرى سيعيَّن فيها بغير امتحان . ففيم كان جهده وتعبه فى مراجعة الكتب ، واستظهار ما عُمِّى عليهِ من مسائل العِلم ، وراح يلعن الدهر الذى لم يَسُق إليهِ هذه « الوظيفة » الجديدة قبل أن يَصنَع ما صنع !

فأجبته من فورى « يا خسارة ! » ، فأومأ برأسه يُؤمِّن على توجُّعى لحاله فى لوعة وحسرة ! ! وانطلق مشيَّعاً بضراعتى إلى الله تعالى أن يعوِّض عليهِ ولو بجهل ما علِم ، ونسيان ما استذكر ! . واللهُ على كلِّ شىء قدير !!!

بين القاضى والمأمور

(كان قد وقع خلاف فى الرأى فى مجلس بيا الحسبى بين القاضى الشرعى ومأمور المركز أثناء نظر إحدى القضايا . ثم استحال الجدَل إلى مهاترة ، فشاتمة ، فاشتباك بالأيدى . وقد كان الضربُ الذى كاله المأمورُ لصاحبه قاسياً مؤلماً . ولولا لطف الله ، ودخول الحاضرين بينهما ، لكانت فيها نَفسُ القاضى المسكين .

وقد كتب المؤلفُ هذه الكلمة عقب الحادث ، ونشرها فى (الأهرام) فى يونيه سنة ١٩١٦) .

سبَقَت « الأهرامُ » إلى ذكر تلك الحادثة الجُلَّى التى وقعت فى مجلس بيا الحِسبى بين فضيلة القاضى الشرعى وحضرة مأمور المركز .

ونحن لا نَجزَع من تهاتر اثنين ولا من تضاربهما ، فان جرائد البوليس وجداول المحاكم ، تَحتفِل كلَّ يوم بما لا يُحصَى عديدُه من حوادث السبّ والقذف ، والطعن والقتل ؛ ولكن جزعنا أن قاضياً تأدَّب بأدب الشرع ، وقرأ المنطق ، ودَرَس آداب البحث والمناظرة ؛ ومأموراً أخذَ القانون ، وولَّته الحكومةُ القيامَ على الأَمن ، وتنفيذ الأحكام ، وصيانة الآداب — يجمع بينهما مجلسُ الحُكم والولاية ، و يتفرغان للنظر فى شُئون الأيتام ، ومصالح العاجزين عن تدبير أموالهم ، ليقضيا فيها بحكم الله — فاذا اختلفا على رأى ، وافترقا فى النَّظر إلى مصلحة ، حَصِرا عن إيراد الحُجة ، وعَيِيا عن تأييد الرأى بقوة الدليل ، ولم يَطلُبا من وسائل الفَلْج وأساليب الأقناع إلاَّ التلاحيَ بالألسُن ، والتَّصافعَ بالأكفّ ، والتضاربَ بالعِصىّ ، والتَّرامحَ بالأَرجُل . ونعوذ بالله .

يَقعُد المأمورُ فى صدر المجلس الحِسبى ، والقاضى عن يمينه ، والأعضاء الأعيانُ عن يَساره ، والجند والحجاب ، آخذون مذاهبَ الأبواب . ولا أقلّ من ثلاثة نفرٍ

أو أربعة من عمد البلاد ووجوهها ، وفَدوا لبعض شأنِهم فى المركز — ولو لمحض بثّ الشّوق إلى (البك) المأمور —

ولو أجَلْت طَرْفَك قليلاً لوقع فى زاوية الغرفة على حناب مفتش البنك الزراعى ، وهو مُقبِلٌ بالحديث على حضرة المعاون حتى يأذن الله بالفراغ من تلك الجلسة . أمّا الصَّرّاف فمشغول بالتّسلُّل بين الكراسى والمكاتب ، وطلب الطريق إلى (سعادة) المأمور ، ولو من فوق رؤوس الأطفال ، أو من دون آباط الرِّجال ، فلا يكاد يَنفلِت من مأزِق إلاَّ إلى مأزِق .

وفى بُهْرَة القاعة (أمّ القُصَّر) ، وقد تعلق الثلاثةُ الأيتامُ بذَيلها . وإلى جانبها حماتُها أمّ الفقيد وأخواه ، وأمامَهم شيخُ البلد والشاهدان . ومن خَلفهم أهلُ القَرابة غير الوارثين . ووراء الجميع جَمعٌ من الحُجّاب ، يَدفعون أصحابَ القضيّة الثانية بالأيدى والمناكب إلى ما بين يَدى الباب ، حتى إذا فرَغ المجلسُ مما بين يديه أَخَذ ينظر فى شأنهم ، (فلا يُرسِل السّاقَ إلاَّ مُمسكاً ساقاً) .

وفى بَهْو (المركز) من الأَيَامَى والأَيتام ، والأَوصياء والقُوّام ، وذوى القُربَى ومَشيَخة البلاد وغيرهم من المعدِّلين ، والمزَكِّين ، والشُّرَط والعَسَس ، والأَصحاب والأَتْراب ، عددُ الرّمل والحصَى والتُّراب .

فى هذا المَشهَد الجليل ، والموقف العظيم الحَفِيل ، اختلف الشيخ والمأمور ، فتحاورا وتناظرا ، فدَلَّ الشيخُ بشرف المنصِب وتاه بجَلالة الموضِع ، واعتَزَّ بحُرمة الشرع الكريم ، واستطال المأمور بأُبَّهة الرياسة ، وباهَى بِبَسطة النُّفوذ ، وكاثَرَ بمن حوله من الحرس والجُند . حتى إذا نَفِد ما أَعدّاه من المكاثَرَة والمفاخَرَة ، وما فُتِـح عليهما فى فنون المجادلة والمُهاتَرَة ، وثارت الحمية فى النفوس ، وتوثّبَت الحفِيظةُ فى الصُّدور ، عُقِدت الأَلسُنُ عن السَّب والشَّتم ، وتحركت الأَيدى

بالضرب واللَّطم . وجَعَلت العِصىُّ تَتَهاوَى على الرؤوس والمناكب ، كما تتهاوَى فى اللّيل البَهيم الكواكب ، والناسُ فى أمر مُختلِط : فمن جُندىٍّ يتهيَّأ للقِتال ، ويتحفّز للنِّزال ، ومن خُودٍ يَطلبن الأبواب ، وفِتْيان ينظرون لمن يكون الظفَر والغِلاب ، ومن شيخ يَضِجّ ، وعجوز تَعِجّ ، وطفل مذعور ، وغلام يُصفِّق من الطَّرب والسرور .

أما حاجبُ المحكمة ، فقد « اختَفَى من الأَثَاثِ فى البُرم » . وانتهت المعركة ببطش المأمور بفضيلة القاضى الذى خرّ صريعاً ، بعد أن صُدِعَت ساقُه ، وخُمِشَت أَشداقُه ، وكُسِرت ذِراعُه ، واختَلَفَت أَضلاعُه . وكذلك ظهرت القوّةُ على جلال الفضل ، وعُقِد لها لِواءُ النَّصر فى المعركة الأولى . ولا يَدرِى إلاّ اللهُ لمن يكون الغَلَب فى المعركة الثانية ، بين يدَى النيابة إن شاء الله !

تفرّق الجميع ، ونَفَر الناسُ إلى بلادهم قانعين بسلامة الإياب !

أَمَّا حديثُ الموقعة ، فتسمعه مفخَّماً مجسَّماً من شهود الرُّؤية ، سواء فى مجامع الشيوخ على المصطبة ، أو الشُّبَّان فى الحَقل (الغيط) ، أو الفِتيان فى البَيْدَر (الجرن) ، أو النساء على المَوْرِد (الموردة) ، أو الأطفال على سِيف التُّرعة . ويا له من حديث ، حديث تضارب الحكام ، فى مجلس الولاية والأحكام .

*
* *

وبعد فإنهُ لا غَناءَ للقاضى الشَّرْعى عن حضور المجلس الحِسبىّ كلَّ أسبوع مرةً لأنهُ عُضوٌ فيه ، بل لأنه الذى يقيم – بحكم موضعه – من يجتمع الرَّأىُ على إقامته من الأَوصِياء والقُوَّام ؛ فما عسى أن يَصْنع القضاةُ بعد الآن ، وقد سَنَّ مجلسُ بيا الحِسبى سنةً جديدةً فى تبادل الآراء وتداول الأَفكار ، وهم كما يَعلم الناسُ قاطبةً قومٌ نِحافُ الأجسام ، رِقاقُ العِظام ، لا حيلةَ لهم

عند الخِصام ، ولا سداد لهم فى مَوقِف المقـارعة والصِّدام . أما المأمورون فهم جُنْدٌ أو أشباهُ جُند ، صَلابة عُود ، وقوة ساعد ، وشدة مُنَّـة . وقد ازدادوا بطول الرِّياضة والتمرين بأساً عند مقارعة الأقران ، وصَولةً فى يوم الكريهة والطِّعان !

الرَّأىُ عندي أنهُ ما دامت الحـكومةُ مُبقِيَةً على القضاة ، وما دام يجتمع فى المجلس الحِسبيّ مثلُ قاضى بيا ومأمورها ، فلا مَندُوحةَ لهـا عن اختيار واحدة من ثلاث :

فإمَّا أن تَختار القضاةَ الشرعيين من خرِّيجى المدرسة الحربية ، حتى تَتَكافأ القوّتان ، فى فنون الضَّرب والطِّعان ! .

وإمَّا أن تأمر بألاّ يُعقَد المجلسُ الحِسبيُّ إلاّ إذا استوثَق الأعضاء من كِتاف المأمور ، فلا يَصِل شرُّه إليهم ، ولا تضرّ صولتُه عليهم !

والثالثة أن تُخرِج للقضاة الشرعيين ، بدَل الأوسمة التى تطبعها لهم ، دُروعاً تقيهم بأس المأمور وأذاه ، وتَعصِمهم من كَفِّه وعَصاه ؛ وإلاَّ فالتخلُّفُ عن الحضُور ، أخفُّ من كَفِّ المأمور . والدخولُ فى مجلس التأديب ، أهونُ من الدُّخول فى هذا المُعتَرَك ، والوُقوع فى هذا الشرَك !!!

يوم ويوم ! . . .

جازت بى أصيلَ اليوم زَفّة لجهاز عروس ، تتقدمها الموسيقى العاديَّة ، فالمؤنس (موسيقى القِرب) . يليهما عنُقٌ من الشبان والفِتيان : هذا باسطٌ على راحتيه ديباجةً مزركشة ، وهذا حامل غِطاء مُرقَّشاً . وثالث (صينية) نحاس مكفَّتة بالفِضة، ورابعٌ آنية زجاج مموَّهة بالذهب . وخامسٌ علبة من الجلد انتظَمت ثلاثةَ أكواب مفضَّضة الكعوب . وسادسٌ شاهرٌ حِذاء حريريًّا . . . . وتاسعٌ طاسَ حمَّام صيغ من الفضة الخالصة . . الخ . . الخ . .

ثم يلى هؤلاء قِطار من عربات (الكارُّو) لا يكاد يُدرك الطَّرفُ آخرَه : هذه تحمل حَشِيّة (مرتبة) وغطاء سرير . وهذه تحمل طُنفُسةً وكرسىّ خَيزُران . وثالثة بُسط عليهـا لِحاف مزخرف وثلاث وسائد مدبَّجة الأطراف . ورابعة عليها « دولاب » يتوجَّه بثلاثة أبواب من البللور . وخامسة تَظْهَرها « كنبة » و (فوتيان) منجَّدَةً ثلاثتُهـا بحرير أرجوانى . وسادسة تحمل سائر (الطقم) من كراسى و (كنصول) ومناضد . وهكذا حتى يأذن الله ويجىء دور آنية النُّحاس من أباريق ، وطسوت غسل الثياب ، وطسوت الحمّام ، ومن رِحلل ومغارف ومصافى . . . الخ . . . الخ . . . !!!

*
* *

وهذا ما يكون من أمر يوم الجهاز عند هذا الضَّرب من الناس . أما ما يكون من أمر يوم (العزال) فلا أكثر من عربة واحدة لحمل هذا كلِّه ، مَزيداً عليه ما لا يَدخل فى جهاز العروس من (الماجور) و (الشالية) والزير وحمّالته ، وطاحونة البنّ ، وأقفاص الفراريج والحمام وغير ذلك . يُركَم ذلك كلُّه بعضُه فوق بعض ، حتى ليخيَّل إليك ، من عظم ارتفاعه ، ان سَراته تَحُكّ قَرن الشمس !!!

اعوذ بالله ! . . .

على طريقى إلى الدار (حانوت) والعياذُ بالله تعالى ، نُضِّدت فيه خُشُب الموتى ، ودَكك الغسل تنضيداً بديعاً . وسُجِّيت على بعضها نماذجُ الأكفان الزاهية الألوان من (شاهى) للرجال ، و (كريب چورچيت) لموتى العرائس . ولم يَعدْ يَنقص هذا (الحانوت) الطريفَ إلاَّ أن تقام على بابه (ڤترينة) تُزيَّن بأسباب الموت وحوائجه.

ويجلس على بابه كلَّ يوم من الصباح الباكر عماله الكرام ، من (غاسلين ، وحمالين ، ومنشدين) ، وهم يتوسَّمون وجهَ كل غادٍ ورائح . لعل القدَر يُسعدهم برزوء فى أحد بنيه ، أو فى أمّه أو فى أبيه .

وجُزتُ بهم مُصبَح يوم وعيناى تَنتضحان بالدمع من أثر رمَد ، فأتلعوا إلىَّ أعناقهم ، ورأيت البِشر يَشيع فى وجوههم . وسَرعان ما تحركوا جَذِلين للقائى . وهم يدعون الله فى أنفسهم أن يجعل (استفتاحى لبن !) ، فصحت فيهم : استريحوا يا أولاد الـ . . . فمابى والله بكاء ، ولكنه الرَّمد . وكلنا ، والحمد لله ، بخير وعافية . وقطع الله أرزاقكم ولا أدخل النعمة عليكم أبداً . . . !

(أوكّازيون) !

تلقيت من بعض معارفى هذا الكتاب :

حضرة . . .

قرأت ما كتبتَه عن (الحانوت) الواقع على طريق دارك . وغيظك من نشاط هذه (الطائفة) ، واجتهادها فى عملها ، وإعلانها عن بضاعتها بعرض حوائج الموت مرتبةً منظَّمةً مزيَّنة الخ . .

وإنى مصارحك يا سيدى بأن المصريين مهما افتنُّوا فى هذا الباب ، فما كانوا بالغين فيه شَأوَ الإفرنج . فلقد وقعت ليدى فى ربيع العام الماضى جريدةٌ إفرنجيةٌ تَصدُر فى القاهرة ، وفيها الإعلانُ الآتيةُ ترجمتُه صادراً من محل (حانوتى) مشهور :

إعلان

« نتشرف بأن نعلن حضرات زبائننا الكرام بأنه نظراً لقرب حلول موسم الصيف ، وبَدء ظهور الأوبئة وانتشار الحُمَّيَات ، قد أجرينا تخفيضاً هائلاً فى الأسعار ، فضلاً عن أننا قد استحضرنا من أوربا عربات فَخْمة من جميع الأحجام للرجال والسيدات والأولاد . وصناديق مذَهَّبة ومنضَّضة ، ومحلاة بأدقّ النقوش وأبدعها . كما استحضرنا كميات وافرة من (الكورونات) وغيرها . ومن يشرّف يرَ ما يسره » !

فما قولك فى هذا الاعلان ؟ ؟   المخلص   (ن)

(حاشية) نسخة الجريدة ما زالت تحت يدى ، وإنى على استعداد لإرسالها اليكم إذا شئتم وتقبلوا . . .   (ن)

(اليوميات) أما نسخة الجريدة فلا حاجة بى إليها يا سيدى (ن) . لأننى لم أعتزم الموت إلى الآن . على أنه إذا جرى القَدر على نفسى أو ، لا أذن الله ، على أحد ممن أَحْمِلهم ، فاننا لن نعامِل فى هذا إلاَّ إخواننَا المصريين . ومهما يكن من شىء ، فالمهم فى الموضوع أن نعرف أثر هذا الاعلان اللطيف المشوّق فى إقبال الجمهور على ذلك الحانوت الشهير ! . . . ولعله يُتِمّ صنيعه فى موسم العام القادم ، إن شاء الله ، فيُخرج لعملائه الكرام (لوتريَّة) تُعطِى من يُسعده الحظّ منهم بالنمرة الرابحة ، الحقَّ فى التجهيز والدَّفن مجاناً !!! .

فى الخدمة ! . . .

لقِيَنى اليومَ فى الترام لحَّادٌ (تربى) مشهورٌ أعرفه . فسلّم وسلّمت ، وأقبلتُ عليه أُحييه ، بما جرت به عادة الناس ، وأسأله عن شأنه ، فقال لى يردّ التحية فى لهجة تَشفّ عن الصدق والإِخلاص : (إحنا فى الخِدمة !) . فقلت له : الله يحفظك ! فأجاب من فَوره كذلك فى إخلاص ولهَفة : (ربنا لا يحرمنا منك !)

***

وبعد ، فما أحسب أَن دعوةً فى هذه الدنيا محققة الأجابة قدر هذه الدعوة ، (فانَّا لله وإنَّا إليه راجعون) !!!

شعراؤنا والندابات ! (١)

الحمد لله . لقد أصبح عندنا « طقم » شُعَراء لا يقل استعداداً ولا سرعةَ إجابة فى المهمات عن «موسيقى حسب الله» ، تَمشى فى «الزّفف» كما تمشى فى «الجنائز» ، وتعزف دائماً — على حسب الأحوال — بالمُطرِب والمُحزِن من الأَلحان !

أَمسَى « طقم » الشُّعراء من ضرورات الحياة عندنا ، يَخفّ للدّعوة ويَنشَط للشعر هناءً لكل مُعرِس ، وترحيباً بكلّ قادم ، وتكريماً لكلّ مُولَع بالظهور ، ورثاءً لكلّ ميت . ولا يبعد أن تتّسع غداً هذه المهنة فيحل شعراؤنا محلّ جماعة « شوبش » فى « صبحية » العرْس . و « صَلّوا عليه سعيد » بين يدى موكِب « المطاهر » !

ولعل شعراءنا المجيدين يتّخذون لهم محلاً مختـاراً حتى يكونوا تحت طلب (الزبون) فى كل وقت ، فلا يُتعبوا أصحابَ (الأفراح) ولا أهل الموتى فى التماسهم ، وطول البحث عنهم . وهم مخيَّرون بين أن يَتّخذوا لهذا الغرض قهوة (الآلاتيّة) بشارع محمد على ، أو حانوت السيد مصطفى على بالسيدة زينب ، ما داموا مطلوبين دائماً للأَعراس كما هم مطلوبون للمآتم . على أنه سيأتى ، وقد يكون قريباً جداً ، ذلك الوقتُ الذى يكلّف صاحبُ « المهمّ » الفراشَ بإحضار « طقم » شعراء ، كما يَستحضِر عادةً « طقم » الموسيقى ، و « طقم » المولوية ، وحملة المباخر والقماقم الخ .

---

(١) نرجو أن يوسع شعراؤنا صدورهم لهذه الداعبة التى لا نبغى بها حطاً من أقدارهم ، ولا أن نغمط ما لأكثرهم من الفضل على الأدب . ولا نريد بالبداهة كل شعراء مصر فان فيهم من هم أجلّ من أن يلحقهم مثل هذا النقد . على أن من نقصدهم أعلم بأنفسهم وأدرى بما يصنعون مما فيه مهانة للشعر وزراية على الأدب ، نرجو أن يتنزه عنهما كل من يحبون أن يسمّوا شعراء

لقد مات كثيرٌ ممن لا شأنَ لهم ولا جَليلَ خطَر فى هذه الحياة . بل لقد كان بعضُهم ممن تعفّ عنهم كلُّ فضيلة ، وتـكبُر عليهم أحقرُ المزايا ، ولم تتعلّق مُنَى أهليهم ولا أصدقائهم بأن يَعقِدوا لهم يوماً للرثاء . ومع ذلك بادر « طَقم » الشعراء أنفسهم فأعلنوا بلسانهم الدعوةَ إلى يوم الأربعين لاستماع مراثى فلان وفلان ، وفى بعض الأحيان اضطلع هؤلاء « الشعراء » بما تقتضيه «الحفلةُ» من النفقات ، حتى يُسمِعوا الناسَ أشعارَهم ، ويَتبارَوا فى إعلان بلاغاتهم !

والعَجَب العاجب — ولا يتعاظمنّك الأمر أيها القارئ — أن بعضَ إخواننا الشعراء غلبوا جماعة « الموالدية » أمثال الشيخ الحَمزاوى ، والشيخ سُطوحى ، والشيخ الزِّربى ، إذ أصبحوا يُؤجرون عَدداً من المرتزقة ليَرفعوا الأصواتَ بالهُتاف لهم كلما أنشدوا ، ويَبرُوا أيديَهم من التَّصفيق كلما انحطُّوا إلى موضع قافية ، ولو كانت الحفلةُ حفلةَ رثاء لميت وتفجُّع على راحل !!

لقد أصبح وجهُ الشَّبَه شديداً جداً بين طائفة من شعرائنا وطائفة « الندّابات » فى مصر . وهل جاءك أيها القارئ العزيز نبأ السيدات : حَطَبة ، وحَنطوره[1] ، وأمّ إمام ، وبِتْبِتْ ، ودِجْدِجَة ؟ . .

إنهن لا يَنقُصن عن شعرائنا بديهةً ولا حضورَ قول ، وأكثرهن ، كذلك ، تشتغل نائحة فى المآتم و (عالمة) فى (الأفراح) ، يُشِعْن الطربَ فى هذه ، بقدر ما يبعَثن الشَّجَن والأسى ، ويُثِرن الدمعَ مِدراراً فى تلك . إنهن فى عامة الشَّعب قد يَكنَّ أبلغَ تأثيراً وأعلى مكانةً من بعض شعرائنا فى أشباه خاصَّته !

لقد دُعِين إلى مَناحة المرحومين : مَنْبُوك ، وكَسَلَة ، وبَلَحة ، وإأّه ، وخليل بَطِّيخه ، وغيرهم وغيرهم من (عِتَر) البلد و (صَبْواتها) . ويا طالما هيَّجْن من زَفَرات ،

(١) حطبة وحنطورة من تلميذات الفنانة الشهيرة المرحومة الأستاذة (كوهيَّة) رئيسة (الندابات) فى مصر .

وأَجرَين من عَبَرات ، وبَعَثن الأكُفَّ تُشبع الخدود لَطْماً ، واستَنفَرن الأظافير تَفرِى الصدور لَدْماً ، وكم دَقَقْنَ الرؤوسَ دقّاً ، وشقَقْن الجيوبَ شقّاً .

وإذا كان شعراؤنا لا يَعدُون فى وصف كلّ ميت بأنه أجملُ من القمر ، وأعلمُ من الجاحظ ، وأشعرُ من زُهَير ، وأكتبُ من ابن المقفّع ، وأبلغ فلسفةً من ابن سينا ، حتى لا نكاد نميز ميتاً عن ميت — فان فى (الندّابات) قصداً فى القول ، وتَحرّياً فى « النَّدب » لما هو أشكلُ بكلّ ميت !

ولقد تُوفّى فى صدر هذا الأُسبوع المغفورُ له المعلم دُقدُق الجزّار ، فكان مما قلن فيــه :

« اسم الله عليك يا خُويَه يا خَطْرة الباشَه »
« يا مَحلَى أورطك — يا عينى — فى حَبْكة اللّاسَه »
« اسم الله عليك يا خويَه يا خَطْرة اليمَنى »
« يا مَحلَى دِراعك — يا شَلَبِى — فى الشَّاهى اللّبنى »

والشىء بالشىء يُذكر ، فلقد اتَّصل بنا ممن لا يُشكّ فى روايته ، أن المحلات التِّجارية الكبرَى ، رأت أن تَتخذ من (الندابات) أحسن رِكلام عند من يَغْشَين المنَاحات من السيدات . لذلك تراهن ينتهزن الفرصةَ فى موت إحدَى العذَارَى فيقلْن فيما يَندُبْن مثلاً :

« يا للّى ما لِحقتيش ِتتهَنّى يا حلوه ! يا للّى ما لِحقتيش ِتتمتّعى يا عروسه ! يا للّى ملحقش أبوكِ يِفرَح بِك يا شَبَّه ، ولا يجهّزك من محل فلان . يا للّى ما وعيتيش لما يشترىلك الطقم اللّا ِكيه اللّى على الشِّمال والواحد داخل يا حلوة . يا للّى ما ستَنّيتيش لمّا يجيب لك من « الكِريب دِى شِين » الموضه اللّى جَه الجمعة دى بس يا ختى . يا للّى خطفك الخَطّاف قبل « الكازيون » اللّى فيه الحاجة هناك بتراب الفلوس يا عروسة !!! »

يا للّى . . . يا للّى . . . حتى تستوفى « الكتالوج » ، وتَستقصِى أسعارَ (الأكّازيون) عن آخره !

وما يُدرينا ، فلعلّ تجارنا واصلون غداً إلى أن يَأجُروا بعض شُعرائنا ليصنَعوا لهم (رِكلاماً) عن بضائعهم و « مُودَاتهم » فى حفلات الأربعين ، فيُنشدوا مثلاً فيما يُنشدون من أبيات الرثاء والتأبين :

كم زُرتُ قَصرَكَ والإعجابُ يَدفعُنى ... لِوَصفِ كل طَريفٍ فيه مَجلُوبِ
« رأيتُ فيه بِساطاً جَلَّ ناسِجُه » ... من خَيرِ ما يَحتوِى دكانُ شَلْهُوب[1]
دكانُ شَلْهوبَ يَستهوِى النفوسَ بما ... يَضُمُّ من تُحَفٍ فى حُسْنِ تَرْتِيبِ

*
* *

رأيتُه فى قَمِيصِ الخَزِّ مُزْدَهِيًا ... مما يُقَدِّمُ (بِرْنَارُ[2]) لأَمْجَادِ
وفَوقَهُ (بَدلةٌ) من خَيرِ ما صَنَعَت ... أيدِى المُجيدينَ من صُنّاعِ « سِيفَادِ[3] »
عنـدَ العَقارِىّ ذا تَلْقَاه مُنبَسِطاً ... وذَاكَ فى الطَّابقِ العُلْوِى بِرِصَاد

*
* *

ولقـد تخرّمكَ المنيـةُ قبلَمَـا ... تَهْنا بمـا جَلَبوا إليكَ وأطْنَبُـوا
لجهـازِ عُرْسِـك كلَّ غالٍ قَـيِّمٍ ... جادُوا به فمُفَضَّضٌ ومُـذَهَّبُ
من عنـدِ سَمعانَ الشهيرِ وبَعضُه ... مِن شِيكُرِيلَ أعزّ ما يُتَطَلَّبُ

وبهذا يخدم شعراؤُنا الأوطان ، بما يَسبِقون فيه الأمريكان ، من التفنُّن فى وسائل الإعلان !

---

(١) تاجر (موبليات) (٢) تاجر قمصان (٣) خياط كان محله بازاء البنك العقارى

الشيخ حَسَن غَنْدَر

(كان من حق هذا المقال أن يوصَل بحديث التطفيل والطفيليين ؛ ولكنه كتب بعد طبع ما تقدم من الكتاب)

وما أدراكَ ما الشيخ حسن غَندَر ؟ . لقد كان الشيخ غَندَر من مباهج مصر، وآيةً يَتيه بها ذلك العصرُ على كلّ عصر . نعم ، لقد كان المفرَد العَلم فى (فنّ) التطفيل ، وهيهات فى الزّمان بمثله (فإن الزّمان بمثله لَبخيل) !

كان ، رحمه الله ، طويل القامة ، ليس بالبـدين ولا بالهزيل . مستطيل الوجه ، شديد حمرته ، لو نَضا عنه عِمامَتَه لخِلته من أبناء التاميز . تدور حوله لحيةٌ دقيقةٌ بيضاء ، لا أثر فى شَعَراتها لسواد . أزرق العينين ، رقيق الحاجبين ، مقوّس الأنف . ولعلك فى غير حاجة إلى من يَزعُم لك أنهُ لم يكن دقيق الفم . وكيف يُتصوّر له هذا ، وفمُه هو سبيلُه إلى ذهاب صيته ، وشُيوع ذِكره ، وخلود اسمه ؟ !

وكان ضَخْم الصَّوْت ، إذا تحـدَّث أحسستَ أن صوته إنما يَجئُ من أقصَى حَلقه !

ثم لقد كان حسَن السَّمت ، نظيف الثَّوْب ، فاخر البزَّة . لا يَلبَس القَباء إلاّ من صُنع الحمّصَانى . ولا يفصِّل الثيابَ إلاَّ عنـد أشهر الخيَّاطين . فإذا كان الصَّيفُ وضع عليهِ الجُبَّة من الحرير المتموِّج (موريه) المعروف عند أولاد البلد (بالألاج) .

وترى فى إصبَعه خاتَماً كبيراً من الماس النقىّ . فإذا اقتحم به مِهرَجان العُرس وتساقطت عليهِ أضواء الثُّريَّات ، تموّجت من حوله ألوانُ الطيف ، وبرَقت من أقطاره أَشعةٌ تكاد تَخطَف الأبصار !

وبعد ، فلقد كان ، إلى هذا التأنق والتجمُّل ، عذب الرُّوح ، فكِه الحديث ، حسَن المحاضرة ، حُلو المنادمة ، حاضر النكتة ، عالماً بأخبار النـاس ، محيطاً

بصفاتهم وأسبابهم وشمائلهم . يحدّثك عن أجوادهم وبخلائهم ، ومن يهشّ للأضياف منهم ، ويتبسّط على طعامه معهم . ومن يُغلِق دونَ الضَّيف بابَه ، ويُقيم عليهِ إذا حضر الغَداءُ أحراسَه وحجّابه . ومن يُخفِت نَشيش[1] اللحم حتى لا يسمعهُ الجار ، ويكتُم ريح القتار[2] فلا تَشَمّه القِطَّة ، ويُضلّ بلطف حيلته النَّملَ عن موضع السكَّر فى البيت .

وإنهُ ليحدّث عن عادة كلّ عين من أعيان البلد فى طعامه وشرابه ، ويَعرف ما يُؤثِر من ألوان الطَّعام وما يَكره . وكم يقرَّب إليه من الصِّحاف فى غَدائه وفى عَشائه ، ووظيفة مطبخه من اللحم والطير فى كلّ يوم . وكيف يَطهِى له طاهيه ، وأىّ الألوان يَحذِقه ويجود فيهِ . وما الذى يعالجه بالسَّمن ، والذى يعالجه بالزيت أو الخلّ . وماذا يُشوَى منـهُ وما يُقلَى ، وما تُذكَى له النارُ وما تُخبَى . وما يُـكمَخ منهُ ويُتبل[3] ، وما يُعجَل بالطَّهى وما يُنظر حتى يُذبَل الخ . حتى ليُخيَّل إليك أن بصيرة هذا الرَّجل تَقتحِم كلّ بيت ، وتَنفُذ إلى كلّ مطبخ . وأن عينه تَسلُك كلّ قِدر ، وأنفه يَجول فى كل بُرْمة ! .

وهو إذ يُحدّثك فى هذا ترى شِدقَه دائمَ الاختلاج ، وشفتيهِ لا تَفتُران عن التحلُّب ، شأنَ من ألحّ عليـهِ الجوع ، وهو يرى أشهَى الطَّعام بين يديه ، ولكن لا سبيلَ له ألبتة إليهِ !

ولقد يَجول الشيخ غَندَر فى غير حديث الطَّعام ، فيُبدِع فى حديثه ، ويُلوّن فى سَمره ، ويَفتنّ فى إيراد النكتة كلما دعت مناسَباتُ الكلام . وبهذه الخِلال فيهِ كان أثيراً عند كثرة الخاصَّة ، محبَّباً إلى نفوسهم ، يشتهون مجالستَه بقدر

(١) النشيش : سوت اللحم وهو يطبخ أو يُقلى (٢) القتار : رائحة الشواء

(٣) المراد ما يشهّى به الطعام من المخللات و (البهارات) ونحوها

ما يَشْتهى هو مؤاكلتهم والإستواء إلى موائدهم . حتى إذا انتظمهم الخوانُ فى عُرس أو نحوه ، لم يتبرَّموا بتدسُّسه ، فى سِرّ من ربّ الدار ، بينهم . بل ربما فَسَحوا له وكفُّوا سَطوةَ ربّ الدَّار عنه . وأنت خبيرٌ بأن هؤلاء ، فى العادة ، إنما يُجيبون دعوةَ الدَّاعى لأرضائه ، وإظهار الإحتفال لشأنه ، لا ليُصيبوا عنده دسَماً ، ولا ليُشبِعوا من طعامه نَهَماً . فلا بأسَ عليهم بأن يحتاز هذا الطفيليُّ الظَّريفُ الطَّعامَ دونهم ، ويملِكه كلَّه عنهم . بل إن تقبيحَه فى طعامه ، وشهودَهم لافتراسهِ والتقامه ، لمما يُعجبهم ويُدخل السُّرورَ عليهم !

وكيفما كان الأمر ، فإن هذا الرَّجل ما يزال إنساناً وديعاً أنيسَ المَحضَر ، ظريفَ المجلس ، حتى يحضُر الطعام . فإذا حضَر جُنّ جُنونهُ ، وثار ثائرُه ، وخِيفَت بَوادره ، وتغير خَلقهُ ، وتنكَّرت صورتهُ ، وأمسى مَنظَره مفزِعاً مرعباً . ولو قد رأيتَه وهو يَفرِى الفرِىّ ، ويَلتهم اليابسَ والطَّرىّ ، لخلت أن كل شىء فيهِ قد استحال فماً : فهو يأكل بفمهِ ، ويأكل بعينـه ، ويأكل بأنفه ، لا تراه يَلوك لُقمةً أو يحرّك للمضغ ضرساً . بل إنهُ ليكوّرها ثم يقذف بها فى حلقه ، فتكاد تسمَع رنينها فى قَرارة بَطنه . فإذا فرغ من شأنه ، وما بيده أن يفرغ ، لبث يتلمَّظ ساعة . ثم ارتدَّ إنساناً وادِعاً ظريفاً يلوِّن السَّمرَ ، ويُفنّن الحديثَ تفنيناً ! .

* * *

وبعد ، فسترى من هذا الرجل فى أسباب تطفيله العَجَب العاجب : لقد كانت له ضَيعةٌ فى ضواحى القاهرة لا تقلّ عن مائة وسبعين فداناً . وكانت له بَنيّات (منازل ودكاكين) فى قلب المدينة يَجبى رَيعها . وقد أتلف هذه الثروةَ الضخمة . وأتى عليها تمزيقاً وتبديداً ، حتى خرج فى مُؤخِرات أيامه عنها كلها ، كما خرج بالموت عن الدنيا كلها !

لم يكن الشيخ غندر مقامراً ولا مضاربا . ولم يكن سِكّيراً ولا طِلْب نساء . ولم يدخل فى (مقاولة) أو يجازف فى تجارة . ولم يداخل طَوالَ حياته سبباً من الأسباب التى تأتى ، فى العادة ، على رؤوس أموال الناس ! إذن فاحزُر . وما أراك بعدُ بقادر !

لقد أتلف الرجلُ ثروته كلها ، وأتى عليها جميعها فى سبيل التطفيل وحدَه لا فى أىّ سبيل آخر !

أليس من أعجب العَجَب أن يُتلف امرؤٌ جلائلَ الأموال فى سبيل الإصابة من طعام الناس بالمجّان ؟ وأىُّ شىء يكون التطفيلُ غيرَ الارتصاد لأصابة جيّد الطعام بالمجّان ؟

إذن فإليك السبب ، وإذا عُرف السبب ، بطل كما يقولون العَجَب ! :

لقد استَمكنَت شهوةُ التُّطفيل من الرجل ، حتى استحالت فيه طبيعةً وغريزةً وجِبِلة . فأمسى يَطلبها لذاتها متجرّدة من أى اعتبار آخر . إنه شَهْوان إلى طعام الناس ، يَسقط عليه ، ويَقتحِم له مهما يُصِبه فى سبيله من المشَقَّة حتى فى إتلاف الأموال !

ولقد كان فى مصر طوائفُ من أولاد (الذوات) المسرفين المستَهتَرين بألوان المنكرات . ولقد تُصفِر أيديهم فى بعض الأحيان ، بِضنّ الوالدين ، أو بتعجيل الإتلاف لوظيفة الشهر أو لذخيرة العام . أو بغير ذلك من أسباب العُسر . فكيف لهم بالمـــال ؟

لقد عَرَفوا الشيخ غَندراً ، وأدركوا مَدَى همّ البطن فيه ، وهداهم الرأىُ إلى استغلاله من هذه الناحية . فاذا أعوَزوا واحتاجوا إلى المال . بَعَثوا فى طلب حَمَل (قوزى) أو ديك رومى ، ودفعوه إلى طاهى أحدهم ، وأَوصَوه بأن يُحسن إنضاجَه ، وبأن يَطهى ألواناً أخرى من شهىّ الطعام وفاخر الحلوى . ثم دسُّوا على الشيخ حسن من يُخبره الخبر . ويَستوصيه بألاّ يُفشى للجماعة سرَّه . فيُهروِل من فَوره

إليهم . حتى إذا طلع عليهم تنكَّروا له ، وربما ردُّوه بالقول الغليظ ، وهو يَستعطفهم ويَتوسَّل إليهم ، وربما تركهم فى إصرارهم وانسلّ إلى المطبخ ، حتى إذا رأى ما رأى وشمّ ما شمّ ، انقلب إليهم وقد زاغ بصرُه ، وتقلَّصت شفتُه ، وجعلت أسنانُه تُضقضِق قَضقَضةَ المقرور . ثم عاد يَتوسَّل ويَتذلَّل . فيُاديه بعضُ القوم بأنه حلَف بكل مؤثمَّةٍ من الأيمان ألاَّ يَقرب الطعامَ إلاَّ إذا أقرَضه عشرين جنيهاً أو ثلاثين لغاية الشهر ، فيُسرع إلى داره ، إذا لم تكن حاضرةً فى جيبه ، ويجيء بها ما تَنقُص قرشاً واحداً . وهو الذى يَحتمِل أجر المركبة إذا كانت المسافة مما يَستدعِي اتخاذ المركبات . وربما ورَّطوه فى ضمانة أو نحوها من وجوه الالتزامات ، ففعل ، نزولاً على حكم البطن العاتى الجبار . وهكذا . . . !

ولقد تَرامَى هذا إلى غيرهم من (أولاد البلد) فحذَوا فى استخراج الأموال منه حَذوَهم . حتى أَفلَس الرَّجلُ وأَمحَل ولصِقت يدُه بالتراب !

*
* *

هذا ما كان من أمر الشيخ حسن غَندَر فى طعامه . أما ما كان من أمر شَرابه . فلقد كان لبطنه فيه كذلك عَبقريةٌ وجَبَروت .

وإنى أبادر فأوكد لك أننى لا أَعنِى بالشراب الخمر، فان الرجل لم يكن يذوقها قط ، فلقد كان ، رحمه الله ، شديدَ التأثُّم . حريصاً على دينه من هذه الناحية . إنما أَعنِى بالشراب ما آحلَولَى طعمُه ، وساغ فى الشرع حُكمُه . وإن كان لا يرى حرجاً من منادمة جماعات الشاربين .

وإنى أكتفى ، فى هذا الباب ، بذكر نادرة واحدة من نوادره ، تُتمّ بها الكلام ، لتكون (مِسك الختام) :

فى ذات عشيَّة سقَط الشيخ غندر على (فلان بك) ، وكان ، غفر الله له ، من أبناء (الذوات) الموسرين ، المستَهتَرين بالشَّراب . وهو كذلك من أولاد

النكتة أصحاب البدائه ، وكان الشيخ غندر أثيراً عنده ، يستمتع بلطف حديثه ، كما يستمتع برؤيته فى ثورة نَهَمه .

وقبل أن يمضى إلى مَباءات سُكره وعَبَثه . استصحب الشيخَ إلى بعض المطاعم المشهورة ، وحكّمه فيما يَشتهى ، حتى إذا بلغ كفاياته من الطعام ومن الحلوى والفاكهة أيضاً . وناهيك بكفايات الشيخ غنــدر ، انكفأ به إلى بعض الحانات الكبيرة . ودعا لنفسه بخمر مما يُشرب فى الكؤوس الدّقاق ، ودعا للشيخ بكوب من (الشربات) ، فجاء الغلامُ بكأس الخمر ، وجاء معه بكوب كبير جداً من (الشربات) . وما كاد صاحبُنا يُفرغ الخمرَ فى حَلقه فى جرعة ، حتى رأى الشيخ يَصبّ كوبَه الضخْم فى بعض جرعة . ثم دعا بالغلام وسأله كاساً له أُخرى . وهنا تقدّم الشيخ حسن وقال للغلام : أريد يا بنيّ أن تأتينى هذه المرّةَ بشراب الورد ، فانه طيب الرائحة لذيذ الطعم . ثم طلب صاحبُنا الثالثة ، فأسرع الشيخ وقال للغلام : أمّا هذه المرّة فعليّ بشراب اللوز (الصومادة) ، فانه يُصلح المعدة ويبرد من حرارة القلب . ثم دعا صاحبُنا بكأس رابعة . فقال الشيخ للغلام : عليّ هذه المرّة يا بُنيّ بشراب البنفسج (القيوليت) ، فانه بديع النّكهة ساحر المذاق !

ثم رأى صاحبُنا ، على عادة المستهتَرين من أصحاب الشّراب ، أن يَتحوّل إلى حان آخر ، فدعا لنفسه بخمر ، ودعا الشيخُ لنفسه كذلك (بشربات) . وظلاّ يتحوّلان معاً من حان إلى حان ، يَشرب صاحبُنا خمراً ، ويَشرب الشيخُ بإزائه (شربات) حتى كاد يَنصدع عمودُ الصبح . ثم انقلبا إلى الدُّور . فاذا هذا قد أصاب اثنين وعشرين كأساً من الخمر ، وإذا الشيخُ غندرٌ قد والَى بإزائه بين اثنين وعشرين كوباً من . . . . (الشربات) !!!

فهرس الكتاب

الباب الخامس

فى المداعبات والأفاكيه